

تاريخى بقلمى

نبوية موسى

GIFTS 2002

DR. HODA SODA
CAIRO - UNIVERSITY

تاريخي بقلمي

نبوية موسى

الكتاب: تاريخى بقلمى
تأليف: نبوية موسى
الطبعة: طبعة ثالثة ١٩٩٩ ـ طبعة أولى د. ت.؛ طبعة ثانية د. ت.
الناشر: ملتقى المرأة والذاكرة ـ القاهرة ـ ١٩٩٩
٤ شارع عمر بن عبد العزيز ـ المهندسين
الجمع التصويرى: عائشة الخميسى
رقم الإيداع بدار الكتب: ٩٩/٨٩٤٨
ISBN: 977/5895/03/0
مطبعة ماكس جروب
١٣ شارع المنتصر ـ العجوزة

تاريخي بقلمي

نبوية موسى

تقديم

رانيا عبد الرحمن
هالة كمال



المحتويـــات

تاريخى بقلمى

نبوية موسى: ذكريات معلمة

تقديم

رانيا عبد الرحمن
هـــــالة كمـــــال

فى إطار اهتمامنا بالبحث فى التاريخ الثقافى العربى والكشف عن الدور الفعال للنساء فى صنع التاريخ رغم تعرضهن عادة إلى الاستبعاد والتهميش فى عمليات التأريخ الرسمى، يسعى ملتقى المرأة والذاكرة إلى إحياء ذكرى النساء اللاتى قمن بأدوار بارزة فى تاريخ مصر الحديث ثم سقطت أسماؤهن من ذاكرة الأمة. ومن هنا كان حرص ملتقى المرأة والذاكرة على تشجيع البحث الأكاديمى حول شخصيات نسائية منسية وكذلك إعادة إصدار مؤلفاتهن التى نفذت طبعاتها منذ عشرات السنين وخلت منها المكتبات الجامعية والعامة، ناهيك توقف عن تداولها بين أيدى القراء والقارئات من غير المتخصصين.

وقد كانت بداية إصدارات ملتقى المرأة والذاكرة لمؤلفات رائدات حركة تحرير المرأة المصرية هى كتاب النسائيات لباحثة البادية ملك حفنى ناصف(١)، وتحدد هدى الصده فى مقدمتها للكتاب أهداف مشروع إعادة إصدار مؤلفات النساء من رائدات العمل العام فى النقاط التالية:

> يهدف الملتقى من إعادة نشر هذه الكتابات إلى إبراز كتابات النساء فى هذا العصر الحديث، وتأكيد حضورها بعد أن طواها النسيان. كما يهدف إلى إتاحة مادة غنية للقراء والباحثين يصعب الحصول عليها لغير المتخصصين، أما الهدف الأساسى من هذا المشروع فهو التفاعل النقدى

مع هذه الكتابات وقراءتها من منظور هذا العصر واحتياجاته وربما تؤدى هذه القراءة إلى مراجعة مواقفنا، أو رؤيتنا لبعض القضايا التى تشغلنا فى الحاضر(٢).

ويأتى كتاب نبوية موسى تاريخى بقلمى ضمن هذه السلسلة. ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو لماذا الاهتمام بإعادة إصدار هذا الكتاب؟

إن كتاب تاريخى بقلمى له أهمية خاصة أولاً من حيث كونه سيرة ذاتية كتبتها نبوية موسى. وإذا أخذنا فى الاعتبار تعريف السيرة الذاتية من حيث كونها تسجيل المرء/ المرأة لمواقف حياتية خاصة بشكل مباشر دون وساطة، فإننا بالتالى نجد فى السيرة الذاتية جوانب تجعلها تحتل موقعاً ما بين الأدب والتاريخ، وتصبح عملية كتابة "الذكريات" أو "المذكرات" مزيجاً من التأليف والتأريخ. فإذا كانت عملية التأريخ تتم من خلال تسجيل أحداث من الحياة بصورة واعية، فإن عملية التأريخ ذاتها تخضع فى نفس الوقت لعوامل ذاتية شخصية لعل من أبرزها الاعتماد على الذاكرة الشخصية من جهة وتأويل كاتب/ كاتبة السيرة الذاتية لمواقف متنوعة من الواقع. أما الجانب الآخر الذى يمحو عن عملية الكتابة صفة الموضوعية التاريخية هو خضوع عملية الكتابة لعاملى الانتقاء والترتيب. فكتابة السيرة الذاتية لا تخلو من ممارسة واعية لفنون التأليف من حيث الاختيار الواعى للأحداث والمواقف التى يتم تدوينها، ثم الكيفية التى يتم عرض تلك المواقف بها بهدف تقديم "الذات" فى صورة معينة ومقصودة(٣).

إن تاريخى بقلمى هو ضمن السيرة الذاتية المعدودة التى تركتها لنا الرائدات المصريات فى العصر الحديث، ومن هنا كان حرص نبوية موسى على تدوين "تاريخها بقلمها" جديراً بالملاحظة، خاصة وأن مجموعة الموضوعات والمواقف التى ترد فى تاريخى بقلمى إنما هى فى واقع الأمر مجموعة من المقالات التى كانت نبوية موسى تنشرها تباعاً فى مجلتها "الفتاة " منذ إصدارها عام ١٩٣٧، ضمن باب ثابت عنوانه "ذكرياتى"، وهو ما توضحه فى مقدمة سيرتها الذاتية بقولها: "قمت بسرد ذكرياتى حسب تاريخ حدوثها فى حياتى، فأصبحت بذلك تاريخاً مفصلاً لما تكبدته من مشاق وما شعرت به أحياناً من اغتباط"(٤). ومن الملاحظ أنها كانت قد نشرت مذكراتها لأول

مرة مسلسلة فى مجلتها الأسبوعية "الفتاة" بعد إنشائها عام ١٩٣٧، ثم عادت بعد سنوات تعيد نشر نفس المذكرات مع بعض التعديلات بداية من العدد ١١٩ من المجلة. ومن الجدير بالذكر أن نبوية موسى حين قررت جمع مقالاتها تلك ونشرها فى كتاب، قامت بعملية انتقاء لجوانب من خبراتها فى مجال التعليم، إلا أنها لم تحتفظ بعنوان سلسلة مقالاتها الصحفية وإنما اختارت لها عنواناً مختلفاً هو تاريخى بقلمى، وهو ما نود التوقف عنده سريعاً.

إن تاريخى بقلمى جملة تحمل وعياً بجانبين هامين الا وهما "التأريخ" من جهة ووجهة النظر الشخصية من جهة أخرى. وهكذا يعكس عنوان السيرة الذاتية شكلاً من أشكال المقاومة: مقاومة تجاهل التاريخ الرسمى لما تراه نبوية موسى من رحلة حياة مليئة بالمعاناة والكفاح، ومقاومة محاولات تزييف وقائع حياتها من جهة أخرى بأن تقوم هى بتسجيل سيرة حياتها "بقلمها" لا من خلال غيرها. ومن هنا كان من الممكن قراءة تاريخى بقلمى على أنه تعبير عن وعى مؤلفته بالاستبعاد الذى قد تخضع له المرأة فى عملية التأريخ، بل وصورة من صور مقاومة التهميش والتزييف من خلال الفعل أى كتابة "تاريخها بقلمها". أما تاريخها كما يرد فى الكتاب فيقتصر على الجانب العملى من حياتها، وتحديداً يقوم الكتاب على تسجيل رحلة نبوية موسى مع التعليم بداية من محاولاتها الأولى فى تعلم القراءة والكتابة مروراً بمواقف من حياتها طالبة ومعلمة وناظرة...

نشأتها وشخصيتها:

ولدت نبوية موسى محمد بدوية فى ١٧ ديسمبر ١٨٨٦ بكفر الحكما بندر الزقازيق(٥). كان والدها ضابط بالجيش المصرى برتبة يوزباشى. كان له فى بلدته بمديرية القليوبية منزل ريفى كبير وبضعة فدادين يؤجرها حين يعود إلى مقر عمله. وقد سافر والدها إلى السودان قبل ميلاد نبوية بشهرين ولم يعد من هناك. فنشأت نبوية يتيمة الأب ولم تراه - كما تقول إلا فى المنام، عاشت هى ووالدتها وشقيقها محمد موسى فى القاهرة لوجود أخيها بالمدرسة واعتمدت الأسرة على معاش الأب وعائد الأرض(٦).

النزعة إلى الحرية:

وفى الصيف عندما ينتهى شقيقها من دراسته كانت الأم تذهب إلى بلدتهم فيقضوا إجازة الصيف فى ذلك المنزل الريفى. وتتضح بعض جوانب شخصية نبوية من كيفية تمضية وقتها فى الريف. فلم تكن تتعدى السادسة من عمرها وبالرغم من ذلك كان يلتف حولها بعض أطفال القرية وكانت تكلفهم العمل معها: تأمرهم فيطيعون وتنهاهم فيستمعون وكأنها رئيستهم. وكانوا يقضون اليوم في عمل متواصل: تبنى أفراناً صغيرة تسوى فيها ما تصنعه من الطوب الذى تبنى به منازل صغيرة تحيطها بالحدائق التى تزرع فيها الفول والذرة ثم تشكل ماشية: جاموس، بقر، حمير، جمال، خيول وكانت تحاول تصويرها تصويراً يقرب من الحقيقة(٧).

ولم تكن الأم من الأمهات اللاتى يحرصن على إكتساب بناتهن مهارات وقدرات معينة فى مجالات الفنون فلم تحرص على تعليمها العزف على البيانو أو الغناء أو الرسم أو التطريز وهى اهتمامات كان مجتمع الطبقة الوسطى يتوقع من البنت إتقانها. وإذا كان المثل السائد وقتها: "علموهن الغزل ولا تعلموهن الخط" فإن أمها ـ طبقاً لنصيحة عمها بخصوص رغبة نبوية فى الإلتحاق بالمدرسة السنية ـ رفضت أن تأتى لنبوية بمدرس يعلمها الحساب (حتى تتمكن من اجتياز امتحان القبول بالمدرسة) ولكنها لم تعلمها "الغزل" أيضاً(٨). وهكذا لم يتحكم فى طفولة نبوية نظام صارم أو قيود أو كبت. وكان لغياب صورة محددة لدى الأم لما يجب أن تتقنه الفتاة أكبر الأثر فى إعطاء نبوية المساحة الرحبة لكى تفكر بحرية وتتصرف بحرية وتشكل عالمها الصغير بحرية، بنفسها وبيدها لا بيد الآخرين. ومثلما مضت نبوية وهى فى السادسة تطوع الطمى وتشكل منه منازل صغيرة وماشية، تمكنت من تشكيل وتطويع شخصيتها هى نفسها لتصبح شخصية فريدة لم ترضخ للهوية المفروضة على البنت من قبل المجتمع. فلا عجب إذن أن يكون رد فعلها لأسئلة أحد المدرسين والذى كان يمتحنها شفوياً وأخذ يسألها إذا كانت تحسن الغناء أو إذا كانت تعرف الرقص أو إذا كانت تلعب البيانو (فتجيبه كل مرة بالرفض): "لا تسألنى هذه الأسئلة فإنى لم أخلق لمثل هذه الحياة"(٩).

وقد وصل انطلاق الطفولة ذروته عندما قررت نبوية الإلتحاق بالمدرسة السنية، ولعل

القرار المبنى على التفكير الحر والذى يصل إليه الإنسان وحده بدون مشورة الآخرين يعطى صاحبه قوة إرادة وتصميم وجرأة. فلم تجد نبوية أى مساندة من عائلتها عند اتخاذها هذا القرار. فقد اعتبرته أمها "خروجاً على قواعد الأدب والحياء ومروقاً من التربية والدين"(١٠). كما رفض كل من عمها وأخوها - علماً بأن أخوها هو الذى علمها حروف الهجاء لتقرأ وقرأ لها من الأدب العربى فتذوقته - غير أن الأغلبية الرفضة لم تستطع أن تتغلب على رغبتها الجامحة فى دخول المدرسة: فذهبت نبوية سراً إلى المدرسة. سرقت ختم والدتها لتقدم هى لنفسها بدلاً من ولية أمرها وباعت سواراً من الذهب حتى تحمل المدرسة على قبول طلبها الذى جعلته بمصروفات (حيث كانت أغلب طالبات السنية فى ذلك الوقت يتعلمن بالمجانى)(١١). وبالرغم من الحب والاحترام الشديد الذى كانت تكنه لأخيها، إلا أنه عندما هددها بمقاطعتها إذا دخلت المدرسة السنية ابتسمت وقالت له: "لقد نقص إذن من أقربائى واحد ولا ضير فى ذلك" فقاطعها لمدة عام(١٢).

رفضها التبعية:

نشأت نبوية موسى وعاشت فى فترة تاريخية كانت مصر خاضعة فيها للاحتلال الإنجليزى، كما كان المجتمع المصرى مجتمعاً أبوياً لم يألف تواجد المرأة فى مجال العلم أو العمل. وفى ظل الاستعمار والأبوية تسعى "الذات" دائماً إلى السيطرة والسيادة على "الآخر"، وينقسم المجتمع إلى سيد/ مسود، قاهر/ مقهور، وقد احتلت المرأة المصرية المكانة الثانية بحكم نوعها (أنثى) وجنسيتها (مصرية). وفى ظل هذا الوضع يكون القهر هو القاعدة لا الاستثناء، خاصة عندما يكون المقهور قد اعتاد القهر فأصبح يجرى فى دمه جزءاً لا يتجزأ من ذاته، فيتقبله ويدعم أسسه ويضمن استمرارية علاقة القهر بأن يتقبله هو على نفسه وبأن يقهر من هو أضعف منه.

لكن نبوية كانت عزيزة النفس، شديدة الثقة بالنفس، رافضة للقهر والسيطرة والخنوع والتبعية والانصياع لأوامر الآخرين بدون مساءلة. ولعل غياب الأب وعلاقة الصداقة التى نمت بينها وبين أخيها هى التى سمحت لتربية الأم أن يكون لها على نبوية هذا الأثر الكبير. فمن الصعب أن يرضى بالاضطهاد من تغذى على الحب، وقد

تغذت نبوية على حب أمها حتى سن الثالثة عشر (التحاقها بالمدرسة)، ذلك الحب الذى كان يصل أحياناً إلى حد "الدلع" حتى أن نبوية وهى فى الثامنة من عمرها حينما مرضت مرضاً لم يتمكن الأطباء من علاجه صممت الأم على أن تقيم حفلة زار لابنتها، ورغم أنها لم يكن لديها سوى مبلغ مائتى جنيهاً هو ثمن منزل باعته وكانت تنوى شراء غيره، إلا أنها أنفقته كله على الزار وعلى شراء أساور وقلادات من الذهب وقرط من الماس لنبوية، حتى أنه حينما كانت نبوية تنزل إلى الشارع كانت تلفت الأنظار إليها، فقد كانت طفلة لم تتجاوز الثامنة تلبس "من المصاغ ما تلبسه الآنسات الرشيدات"(١٣).

ولذا فإن هذه المعاملة اللينة قد أكسبتها ثقة بالنفس جعلتها ترفض احتلال مكانة ثانوية فى الحياة وتأبى التبعية لأية سلطة كانت سواء من الإنجليز أو المصريين، رجالاً ونساء، مدرسين أو نظار، وزراء معارف أو مستشارى وزارات. وقد كانت فى المدرسة تتعامل مع المعلمات الإنجليزيات معاملة الند للند، فكانت هى وزميلاتها يترجمن أسماءهن على سبيل الفكاهة فينادين "مس كارتر" بـ "الست عربجى"(١٤). ولم تكن نبوية لترضى التنازل قط عن مبادئها، ففى المدرسة السنية أثارت كراهية الناظرة الإنجليزية عندما رفضت الاعتذار لها، حيث لم تر نبوية أنها فعلت شيئاً يستحق الاعتذار، وهى كراهية دفعت نبوية ثمنها طوال دراستها فى هذه المدرسة، ونجم عنها اضطهاد هذه الناظرة لها ورفضها تعيين نبوية بعد ذلك فى مدرستها كمدرسة: "كان الواجب أن أعين فى المدرسة السنية نفسها ولكن حضرة الناظرة قالت إنها لا تسمح لمكان واحد أن يضمنى ويضمها إلا القبر"(١٥).

ولعل رفضها للخنوع وللتمشى مع السائد يفسر مسار حياتها العملية، الذى هو عبارة عن حالة تنقل مستمر بين الوظائف على مستوى الجمهورية: فمن مدرسة السنية لمدرسة عباس بالقاهرة لناظرة المدرسة المحمدية للبنات بالفيوم ثم لمدرسة معلمات المنصورة ثم نقل للمعارف مرة أخرى كوكيلة معلمات بولاق ثم إلى نظارة مدرسة معلمات الورديان بالإسكندرية ثم إبعادها بتعيينها مفتشة للتعليم الأولى بالوزارة ثم محاولة نفيها بعيداً عن التعليم بإعطائها إجازة مفتوحة مدفوعة الأجر وعند فشل المحاولة فقد فتحت مدارس خاصة وتفرغت لها نُقلت إلى القاهرة مرة أخرى بوظيفة كبيرة مفتشات

بالوزارة ثم لنظارة معلمات بولاق ثم إيقاف عن العمل. وتمثل لهجة خطابها الموجه إلى اللورد دنلوب مستشار وزارة المعارف الإنجليزى عينة من موقفها من السلطة وعلاقتها معها (سواء تمثلت تلك السلطة فى إنجليز أو مصريين)؛ فعندما ضاقت بالعمل وكيلة لمعلمات بولاق (وكان هو الذى نقلها) كتبت له:

"إنى أعرف جيداً أنك مستشار وزارة المعارف أى وزيرها الفعلى وأن فى استطاعتك أن تفصلنى من عملى بلا ذنب ولا يستطيع أحد أن يناقشك فى ذلك بل أنت أقوى من ذلك فإنك تستطيع أن تمنعنى من التوظف فى جميع مجالس المديريات.. من أى عمل حر مهما كان وأنت فوق كل هذا وذلك الرجل الإنجليزى النافذ الكلمة وفى البلد أحكام عرفية فأنت تستطيع التخلص من حياتى بكلمة تخرج من فمك. ولكنى أريد أن أسدى إليك معروفاً بأن أطلعك على ما يقال فى غيبتك والرجل القوى العظيم لا يعرف ما يقال عنه وقد يفيده ذلك لو عرفه فأنا أقول لك مع شدةاحترامى لشخصك أنى إذا دخلت غرفة نومى وأغلقت نوافذها وأبوابها ووثقت أن أحداً لا يسمعنى من خلق الله قلت فيك ما يأتى:

"إن هذا المستشار أشر من الألمان لأن أولئك الألمان يغتصبون حق محارب أما هو فيغتصب حق مسالم وقد اغتصب حقى بعد أن وثقت به وسلمته إليه"(١٦).

نبوية موسى والتعليم:

نبوية موسى (١٨٨٦ ـ ١٩٥١) هى رائدة تعليم الفتيات فى مصر الحديثة. وكان التعليم بمثابة قضية عمرها التى كافحت فى سبيلها على مدى مراحل حياتها المختلفة: تلميذة ومعلمة وناظرة وامرأة مصرية، وكانت ترى فى التعليم طريقاً إلى تحقيق المساواة بين الجنسين والسبيل نحو نهضة المرأة المصرية. فانعكس إيمانها بأهمية التعليم على حياتها ساعية إليه وعاملة على إتاحته للفتاة المصرية. ونبوية موسى هى أول فتاة مصرية تحصل على شهادة البكالوريا فى عام ١٩٠٧، وهى أول امرأة تعمل معلمة للغة العربية،

وأول ناظرة مصرية ولعلها أول امرأة مصرية تتخذ من تعليم الفتيات قضية وطنية.

وحين تقص نبوية موسى فى مذكراتها رحلتها مع التعليم تذكر الكيفية التى تعلمت بها مبادئ القراءة والكتابة فى البيت مثلها فى ذلك مثل بنات جنسها وطبقتها الوسطى، وتصف كيف تعلمت القراءة من خلال تذوقها الشعر العربى، فكانت تحفظ القصائد العربية التى يرددها شقيقها محمد - وكان يكبرها بعشرة أعوام -. ثم من خلال التدريب على قراءتها علمت نفسها القراءة أما الكتابة فقد تعلمتها نبوية عن طريق محاكاة النصوص المكتوبة، وهو ما تصفه بقولها: «ولما كنت قد حفظتها (أى القصيدة) عن ظهر قلب قبل أن أقرأها فقد كنت أتعلم منها القراءة... ثم ملت بعد هذا إلى الكتابة محاكية ما قرأته»(١٧).

ولم تكتف نبوية موسى بهذا القدر من العلم وإنما أصرت على الالتحاق بالتعليم المدرسى، وهو ما لم يكن مقبولاً أو مستساغاً اجتماعياً فى بدايات القرن العشرين. فكان عليها بالتالى مواجهة قوتين معارضتين لها وهما الأسرة والمجتمع بشكل عام، وكانت قد قررت الالتحاق بالسنة الثالثة فى المدرسة السنية وهو ما يتطلب معرفتها بمبادئ الحساب. ولما رفضت والدتها تعيين معلم لها استعانت نبوية بأخيها ليأتيها بكتاب الحساب المقرر على السنة الثانية وأخذت تعلم نفسها مبادئ الحساب، كما لجأت إلى أخيها ليعلمها كما تقول"ألف باء اللغة الإنجليزية مستعينة بالوقت القليل الذى كنت أختلسه من أخى متحملة تمنعه وسخريته منى"(١٨).

وتشير نبوية موسى إلى رد فعل والدتها حيال سعيها للإلتحاق بالمدرسة السنية، وهو ما اعتبرته والدتها "خروجاً على قواعد الأدب والحياء ومروقاً من التربية والدين"(١٩)، وهو ما يعكس رؤية المجتمع حينذاك لخروج الفتاة إلى المدارس طلباً للعلم. وتجدر الإشارة إلى أن كفاح نبوية فى سبيل تعليم نفسها ووعيها بمدى مقاومة المجتمع لتعليم الفتيات مع إيمانها الشديد بالعلم كقيمة تنهض بالمجتمع ككل، إنما يفسر لنا التشدد الذى عرفت به نبوية موسى معلمة وناظرة نحو تلميذاتها والمعلمات وسعيها الدائم نحو "الحشمة والكمال"(٢٠) فى وجه مجتمع يشكك فى أخلاق تلميذات المدارس والمعلمات. وتكشف بدايات علاقة نبوية موسى بالتعليم عن جوانب فذة فى شخصيتها

لعل من أبرزها ذكاؤها الذى مكنها من تعليم نفسها بنفسها، وقوة عزيمتها وتصميمها على تنفيذ إرادتها وإصرارها على تحقيق أهدافها أياً كانت المعوقات ودون الخضوع لمجتمع كان يرى فى تعليم البنات خروجاً على الآداب العامة.

وهكذا التحقت نبوية موسى بالقسم الخارجى للمدرسة السنية فى عام ١٩٠١، وهو العام الذى حصلت فيه الفتاة المصرية - ولأول مرة - ممثلة فى ملك حفنى ناصف وفكتوريا عوض على الشهادة الابتدائية. وفى عام ١٩٠٣ الذى شهد تعيين ملك وفكتوريا معلمتين فى السنية بعد نجاحهما فى دبلوم المعلمات، التحقت نبوية موسى بالسنة الأولى قسم معلمات السنية، وقد حصلت على دبلوم المعلمات سنة ١٩٠٦ لتعين معلمة بمدرسة عباس الأميرية للبنات لتبدأ رحلتها فى مجال ممارسة التعليم.

مواقفها الفكرية:

المساواة بين الجنسين:

كانت "المساواة" شعار نبوية موسى الدائم، فلم تكن تقبل بالفتات أو ما تكتبه الأقدار. فعند تعيينها معلمة بعد تخرجها من معلمات السنية ساءها أن تأخذ نصف مرتب الرجل، فتقول:

> فساءنى أن تعاملنا الحكومة ونحن نعمل معاملة الوراثة أى نصف الرجل. لا أنكر أن الوراثة قد تكون على حق لأنها ليست من مجهود أحد، أما أن تعمل الفتاة ما يعمله الرجل ثم تتناول نصف مرتبه فهذا ما لا يعقل. لهذا ثارت ثائرتى(٢١).

وهكذا دخلت نبوية موسى معركة البكالوريا لتتساوى مع خريجى المعلمين العليا. ومما هو لافت للنظر عند قراءة مذكرات نبوية موسى أن كل مواقفها فى الحياة تكاد ترتبط من قريب أو بعيد بالتعليم. فإذا أخذنا على سبيل المثال موقفها من تمييز المجتمع بين الجنسين فإننا نراها تعبر عنه فى كتابها من خلال قضية التعليم، بداية من اضطرارها إلى التمرد على أسرتها ووالدتها سعياً للحصول على الشهادات الدراسية (أسوة بأخيها؟)، وفى مرحلة لاحقة اعترضت على أن تعاملها الحكومة "معاملة الوراثة

أى نصف الرجل". وتمضى نبوية موسى فى دعوتها للمساواة كى تشمل كافة نواحى الحياة، فتقول:

> لقد كنت أدرس كما يدرس الفتى، ولم يكن للحكومة مدارس ثانوية كثيرة. فكنا جميعاً ندرس للمدارس الابتدائية، فلماذا تميزه (الرجل) الوزارة عنى لا بجنيه ولا بجنيهين بل بضعف مرتبى؟ لقد كنت أعمل جاهدة فى أن تساوى المرأة بالرجل فى الوظائف وفى كل شىء(٢٢).

ومن هنا ولتجاوز هذا الفارق ولتأكيد مساواتها بالرجل تقدمت نبوية موسى للحصول على شهادة البكالوريا، لتكون أول فتاة مصرية تنالها عام ١٩٠٧، وهو حدث كانت تراه أقرب إلى الانتصار العظيم حين تعقب فى مذكراتها: "ولو أنى إذ ذاك فتحت فرنسا لما كان لاسمى رنة أشد مما كان له على أثر نيل تلك الشهادة العظيمة أى شهادة البكالوريا"(٢٣). وكان إيمانها بالعلم يماثل إيمانها الكامل بحقها فى العمل، ولذا نراها تلتحق فى عام ١٩١٢ بمدرسة الحقوق لتنال درجة علمية تمكنها من العمل حين قلقت من نوايا وزارة المعارف فى استبعادها من العمل فى مجال التعليم.

وتشير نبوية موسى إلى غياب المساواة بين الجنسين وقد دفعها وعيها بتلك المشكلة إلى محاولة ضمان تحكمها هى فى أمور حياتها وعملها، وهو ما يتضح حين تذكر فى كتابها مراحل إنشاء مدرسة "ترقية الفتاة" فى الإسكندرية، وهى مدرسة أهلية تابعة لجمعية ترقية الفتاة سعت نبوية موسى إلى تأسيسها بعيداً عن سيطرة الحكومة على المدارس الأميرية. وقد تمت أول الأمر محاولة قصر دور نبوية على الأعمال الإدارية فى المدرسة مع استبعادها من الإجراءات القانونية، وهى تصف عملية استئجار مقر المدرسة كما يلى: "ويوم استأجرناه كان معى زوج رئيسة الجمعية، وحسب العادة المتبعة فى مصر من تقديم الرجال على النساء قدم إليه العقد فأمضاه وقد شعرت بشىء من القلق من جراء ذلك"(٢٤). وقد كان مصدر قلقها أن زوج رئيسة الجمعية أصبح هو مستأجر المقر وبالتالى خشيت نبوية من استغلاله الموقف ليدعى ملكيته للمكان، وهى مخاوف ما لبثت أن تحققت بالفعل، مما دفعها إلى شراء مقر المدرسة من مالها الخاص بدلاً من خضوعها لسيطرة الآخرين. وهكذا يتداخل

إحساسها بعدم مساواة المجتمع بين الرجل والمرأة مع سعيها الدائم لرفض أشكال اللامساواة ومنح نفسها حرية القرار والاختيار.

الحرية والتمرد على القيود:

تؤكد نبوية موسى فى مذكراتها حبها للحرية والاستقلال فى العمل، وكان من أكثر المجالات إبرازاً لتمردها على القيود التى تتنافى مع المنطق هو موقفها من مناهج التعليم، حيث كان أساس التعليم لديها قائماً على الأخذ "بالمنطق لا بالقواعد"(٢٥). فلم تكن تقبل بما تفرضه عليها وزارة المعارف دون الأخذ فى الاعتبار مدى ملاءمة مناهج الوزارة للعملية التعليمية. فكان أن لجأت إلى تأليف مناهج دراسية خاصة بتلميذاتها ومن أبرز مواقفها فى هذا الصدد هو انتقادها لكتاب "الفوائد الفكرية" لعبد الله باشا فكرى والذى كان يدرس فى المدارس الابتدائية، فقامت بتأليف كتاب "ثمرة الحياة فى تربية الفتاة" والذى تم تحويله فيما بعد إلى كتاب للمطالعة العربية فى مدارس البنات(٢٦). وفى مقدمة كتاب المطالعة العربية توضح نبوية موسى أهمية التعليم القائم على الاختيار لا الأمر والنهى والإجبار، فتقول:

> ولما كنت فتاة أشعر بما تشعر به الفتيات وأعرف من أين يتأثرن وما يحرك عواطفهن ألفت هذا الكتاب لتلميذات السنتين الثالثة والرابعة من المدارس الابتدائية للبنات وجعلته حاثاً على الآداب فى أسلوب لا يظهر فيه أمر ولا نهى لأن الإنسان إذا أمر بشىء فربما ثقل عليه عمله، وإن نهى عن شىء تاقت نفسه إليه.. لذا شرحت الأمر الحسن ومدحته وبينت الشىء القبيح وذممته وتركت الفتاة تختار لنفسها ما شاءت(٢٧)..

وقد كانت نبوية موسى شديدة الانتقاد للسياسة التعليمية حينذاك وكانت بالتالى كثيرة الخروج على مناهج وزارة المعارف، وهو ما يتضح جلياً من خلال الجزء الأعم من مذكراتها والتى كانت تنشرها تباعاً ضمن صفحة "ذكرياتى" فى مجلتها الأسبوعية "الفتاة". وكان مما أثار وزارة المعارف عليها هو قيامها بنشر سلسلة من المقالات تنتقد فيها سياسة التعليم وذلك فى جريدة الأهرام موقعة باسم مستعار هو "ضمير"،(٢٨)

وذلك بعد نقلها من وظيفة ناظرة إلى العمل مفتشة بهدف التقليل من تأثيرها على العملية التعليمية. ولم تتوقف عن كتابة هذه المقالات إلا حين منحتها الوزارة إجازة مفتوحة بأجر انتهزتها فرصة لإنشاء مدرسة أهلية "حرة" هى مدرسة "ترقية الفتاة" التى تحولت فيما بعد إلى مدارس "بنات الأشراف" فى الإسكندرية والقاهرة.

التعليم عمل وطنى:

كانت نبوية موسى ترى أن معاداة وزارة المعارف لها إنما ترجع إلى اعتراض الإنجليز على وجودناظرة مصرية تنافس مدرستها مدارس الناظرات البريطانيات بل وتفوقها نظاماً وصيتاً بين الناس. وحين قامت ثورة ١٩١٩ أعلنت المدارس الإضراب عن الدراسة، أما نبوية ناظرة مدرسة معلمات الورديان فكانت ترى أن التعليم هو أعظم تعبير عن العمل الوطنى، ولذا اجتمعت بالمعلمين والمعلمات وأقنعتهم بوجهة نظرها كما توضحها مذكراتها:

> فاجتمعت بالمعلمين والمعلمات وقلت لهم: لست ممن يعتقدون أن الإضراب فى المدارس مما يفيد البلاد بل أنا أعلم أن البلاد على حاجة شديدة إلى التعليم وأن المعلمين يجب أن يكونوا بعيدين عن الحركة الوطنية لأنهم يقومون بعمل وطنى مجيد يجب أن لا ينصرفوا عنه إلى عمل آخر مهما جل وذلك العمل هو تثقيف أمة قد انتشر فيها الجهل إلى أقصى حدوده فنحن فى كفاحنا ذلك الجهل الشديد يجب أن نتفرغ له وأن لا ننظر إلى عمل غيره(٢٩).

وقد تم استغلال موقف نبوية من الإضراب كوسيلة للتشكيك فى وطنيتها، فكان ردها على مفربى باشا كما تورده فى مذكراتها كالآتى: "إن وطنيتى يا سيدى تقضى علىَّ بعدم الإضراب لأنى أريد أن أخرج أمتى من هذا الجهل المخيم على العقول(٣٠)". ولم تضرب مدرسة نبوية عن العمل إلا بأمر من الوزارة حين تم قطع المواصلات فى البلاد.

ويبدو أن نبوية كانت مدركة لاتهامها التخاذل تجاه الحركة الوطنية ولذا نجدها ما تلبث أن تستشهد فى مذكراتها بمواقفها تجاه المستعمر الأجنبى، حيث تذكر حواراً دار

بينها وبين ضابط إنجليزى حول الاستعمار الإنجليزى فى مصر، حيث قالت له:

أما أن تطلب منى المفاضلة بين حريتنا واستعبادنا فهذا هو الأمر المدهش، ويكفى أن يكون فى سؤالك هذا ما يظهر خطر الاستعمار فإنكم بمثل هذه الأسئلة تسلبوننا أخلاقنا وفضائلنا وتعلموننا الكذب والخداع وهما شر الصفات(٣١).

ولا يغيب عن القارئ والقارئة هنا أن منطق نبوية موسى تجاه الاستعمار لا يخلو من مسحة تربوية نابعة من سيطرة قيم التعليم على كافة توجهاتها. فهى ترى الاستعمار من حيث كونه يمثل خطراً أخلاقياً يدفع المصريين إلى تبنى صفات الكذب والخديعة خوفاً من سلطة الإنجليز فى مصر. ومن هنا نستشف أن التعليم كان بالنسبة لها عملاً وطنياً فى حد ذاته، وبمثابة السلاح الذى سيمكن المصريين والمصريات من مواجهة الاستعمار بمجرد تحررهم من قيود الجهل.

نبوية موسى بعيداً عن مذكراتها:

سبق توضيح أن كتاب تاريخى بقلمى يقتصر على تسجيل الجوانب المتعلقة بالتعليم المدرسى فى حياة نبوية موسى، ونود فيما يلى الإشارة سريعاً إل جوانب أخرى خافية من حياتها، من أهمها دورها التعليمى كمحاضرة فى الفرع النسائى التابع للجامعة المصرية فى أوائل القرن العشرين. وكذلك دورها الفعال ضمن الحركة النسائية فى مصر الحديثة، حيث كانت ضمن وفد الاتحاد النسائى المصرى الذى ضم هدى شعراوى وسيزا نبراوى وريجينا خياط ومدام ويصا واصف المشاركات فى المؤتمر الدولى للمرأة فى روما فى عام ١٩٢٣(٣٢). ذلك إلى جانب استعانتها بالصحافة وسيلة لنشر فكرها وإيضاح مواقفها، فإلى جانب مجلة الفتاة كانت تنشر مقالاتها فى الصحف والمجلات ومنها على سبيل المثال الأهرام، والجريدة، والبلاغ الأسبوعى. وهى كلها أدوار لا تتناولها نبوية موسى فى كتابها من قريب أو بعيد، ربما تأكيداً لإيمانها بأن تاريخها الحقيقى إنما يرتبط بكفاحها فى سبيل تعليم الفتيات، سواء على مستوى المؤسسة التعليمية أو فلسفة التعليم كما تتبدى من خلال المناهج الدراسية! ومن هنا كانت

صحافة النصف الأول من القرن العشرين تمثل مجالاً رحباً للبحث فى كتابات نبوية موسى الصحافية وكذلك بما تعكسه من جوانب هامة للقضايا العامة التى تبنتها وشاركت فيها ضمن سياق أعم يشتمل على رائدات النهضة النسائية ورواد ورائدات الفكر التنويرى فى مصر الحديثة.

ملتقى المرأة والذاكرة وصعوبات إعادة إصدار تاريخى بقلمى:

نود أخيراً الإشارة إلى الصعوبات التى واجهتنا فى محاولتنا إعادة إصدار تاريخى بقلمى. فالكتاب غير متوفر فى المكتبات الأكاديمية فيما عدا "متحف التعليم فى معهد الدراسات والبحوث التربوية"، وهى نسخة بدون تاريخ تشتمل على مجموعة من المقالات المنشورة فى الفتاة. وفى محاولة للتوصل إلى نسخة أشمل تم الاتصال بالأستاذ عادل موسى (حفيد شقيق نبوية موسى) فلم نجد لديه سوى طبعة أسبق من كتاب تاريخى بقلمى بدون تاريخ، تنتهى بموضوع "المعلمة الإنجليزية" الذى تسرد فيه خبرتها عند تعيينها ناظرة للمدرسة المحمدية فى الفيوم، فى بداية حياتها العملية كأول ناظرة مصرية.

وقد اعتمدنا على النسخة الأشمل من كتاب تاريخى بقلمى لإعادة إصدار مذكرات نبوية موسى مثلما اختارت هى أن تنشرها، كما حرصنا على أن يضم هذا الكتاب مجموعة الصور والرسوم الكاريكاتيرية التى تضمنها الكتاب فى طبعته السابقة. أما بالنسبة لغلاف الكتاب فقد كان اختيارنا لهذه الصورة تحديداً من صور نبوية موسى ليتوافق مضمون الكتاب كسيرة ذاتية مع صورة مؤلفته، بما يعكس وعينا بأن فن السيرة الذاتية إنما يقوم على الانتقاء بهدف تقديم صورة للذات، ومن هنا كان تشبيه السيرة الذاتية بالصورة. فكتاب/ كاتبات السيرة الذاتية يمارسون اختياراً واعياً للمواقف التى يودون تدوينها فى سيرهم، وهى عملية تشبه التصوير حين يختار المرء/ المرأة الكيفية التى يودون الظهور بها عند تصويرهم. ومن هنا كان اختيارنا لصورة نبوية موسى تلك التى بين أيدينا كغلاف لكتابها تاريخى بقلمى بناء على ما تحمله الصورة من عناصر تتوافق مع مضمون مذكراتها.

الهوامش

١- ملك حفنى ناصف باحثة البادية، النسائيات، (القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ١٩٩٨).

٢- هدى الصده، "باحثة البادية" مقدمة كتاب ملك حفنى ناصف، المصدر السابق، ص ٦ ـ ٧.

٣- للمزيد حول خصائص السيرة الذاتية يمكن الرجوع إلى Liz Stanley, The Auto/ Biographical I, (Manchester University Press, 1992).

٤- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، (القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ١٩٩٩)، ص ٢١ . كافة الاستشهادات التالية من الكتاب تعتمد على هذه الطبعة.

٥- د. محمد أبو الإسعاد، نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١)، سلسلة تاريخ المصريين، ع ٦٩، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤)، ص ٩.

٦- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٢٢ .

٧- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٢٢ .

٨- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٢ .

٩- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٥٦ .

١٠- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٢ .

١١- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٣ .

١٢- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٥ .

١٣- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٠ .

١٤- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٥٣ .

١٥- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٧٧ .

١٦- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٢٠٧-٢٠٨ .

١٧- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٦ .

١٨- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٢ .

١٩- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٣٢ .

٢٠- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٢٠١ على سبيل المثال.

٢١- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٨٢ .

٢٢- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٨٢ .

٢٣- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٨٥ .

٢٤- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٢٦١ .

٢٥- نبوية موسى، تاريخى بقلمى، ص٢٤٩ .

٢٦- محمد أبو الإسعاد، سبق ذكره، ص ١٩ .

٢٧- نبوية موسى، كتاب المطالعة العربية لمدارس البنات، (القاهرة: نظارة المعارف، ١٩١١، ط٢)، ص٥-٦

٢٨- تاريخى بقلمى، ص٢٥٥ .

٢٩- تاريخى بقلمى، ص٢٣٥-٢٣٦ .

٣٠- تاريخى بقلمى، ص٢٣٦ .

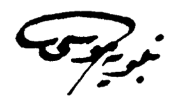
٣١- تاريخى بقلمى، ص٢٣٧ .

٣٢- محمد أبو الإسعاد، سبق ذكره، ص ٨٠.

مقدمة

أنشأت مجلتى "الفتاة" فى أكتوبر سنة ١٩٣٧، وأخذت أكتب فيها بعض ذكرياتى فأقبل الناس عليها، وطلب منى كثيرون أن أدونها فى كتاب، وتلبية لهذا الطلب قمت بسرد ذكرياتى حسب تاريخ حدوثها فى حياتى، فأصبحت بذلك تاريخاً مفصلاً لما تكبدته من مشاق، وما شعرت به أحياناً من اغتباط إن كان فى ذلك التاريخ معناً للاغتباط.

وهو تحليل نفسى لفتاة قضت عمرها فى جهاد مستمر وهى نفسها لا تعرف إلى الآن أكان سبب هذا الجهاد والنضال المستمر خطأ صدر منها أم هو خطأ المقادير. لهذا أروى تاريخى بالتفصيل وأترك للقارئ الكريم بعد هذا الحكم لى أو علىّ. وسأتحرى الصدق فيما أكتبه ليبنى القارئ رأيه على حقيقة واضحة لديه.



طفولتى

كان والدى ضابطاً فى الجيش المصرى برتبة "يوزباشى" وكان الضابط المصرى لا يصل إلى تلك الرتبة إلا بعد جهد عظيم لأن رتب الجيش الكبيرة كانت كلها فى يد الأتراك والشركس قبل الثورة العرابية. وكان ضباط الجيش يحالون إلى الاستيداع نصف مدة العمل أو أكثر، فكان والدى إذا أحيل إلى الاستيداع ذهب إلى بلدتنا فى الريف وهى بلدة صغيرة فى مديرية القليوبية، وكان له بها منزل ريفى كبير جداً كما كان له بضعة فدادين، فكان يكلف خدمه زرعها حتى إذا طلب للعمل أجَّر الأطيان وعاد إلى مقر عمله فكان لهذا أكثر الضباط خدماً.

وسافر والدى إلى السودان قبل أن أولد ولم يعد وقد ولدت بعد سفره بشهرين وهكذا نشأت يتيمة فلم أر والدى إلا فى المنام ورتب لنا مبلغ من معاشه يقوم بحاجتنا أنا ووالدتى والمرحوم شقيقى. وقد سكنت والدتى القاهرة لوجود أخى بالمدارس ولكنها كانت تذهب أثناء الصيف عندما ينتهى شقيقى من دراسته إلى بلدتنا، فنقضى إجازة الصيف فى ذلك المنزل الريفى. وكنت أسر بتلك الإجازة وأعمل فيها أعمالاً كثيرة إذ كان يلتف حولى كثير من أطفال جيراننا فى تلك القرية، وكنت أكلفهم العمل معى فأضرب طوباً صغيراً وأبنى به أفراناً صغيرة كنا نسوى فيها بعد ذلك ما نصنعه من الطوب ثم نبنى به منازل صغيرة كانت على ما اعتقد غاية فى الاتقان. وكان فى منزلنا الريفى بئر نأخذ منها الماء اللازم لبناء تلك المنازل ونحيطها بالحدائق ولعلها لم تكن غنَّاء، لأننا كنا نزرع فيها بعض النباتات فقط كالفول والذرة.

وهكذا كنت أقضى إجازة الصيف لا أعرف للراحة طعماً وكلما انتهيت من منزل بدأت فى بناء غيره وعمل ماشية له كالجاموس والبقر والحمير والخيول والجمال وكنت أعنى بتمثيلها تمثيلاً يقرب من الحقيقة على قدر طاقتى. وكان يعجب بها كثيرون ممن يرونها لقربها من الحقيقة حتى أن الأفران التى كنا نبنيها كانت تحمى ويظهر فى

جوفها اللهب كالأفران الحقيقية تماماً، وكنت أخبز فيها الخبز الصغير الذى كنت أصنعه أحياناً ولم أكن مع صغر سنى أبرح ذلك المنزل لاشتغالى بتلك الأعمال ومراقبة مرءوسى من أطفال القرية. ومن المدهش العجيب أنى كنت آمر هؤلاء الأطفال فيطيعون وأنهاهم فيستمعون وكنا نقضى اليوم فى عمل متواصل كأننا نقوم باكتساب قوتنا وكأنى رئيستهم الفعلية.



«كنت آمر هؤلاء الأطفال فيطيعون»

وكنت إذا انتهيت من ذلك وتعب الأطفال الذين يعملون معى ابتدأت أخيط ملابس عروستى وأعمل للجمال والخيول سروجاً من القماش المزين البديع وهكذا كنت أقضى إجازة الصيف حتى إذا انتهت تركت ما عنيت بعمله من المنازل والتماثيل وانتقلت بعروستى وقطتى الصغيرة إلى القاهرة وكنت مشهورة بحب القطط والعناية بها حتى أنى كنت أكسوها ملابس مزخرفة بشتى الزخرف وكنت أقوم أنا بخياطتها وزخرفتها وكانت تلك القطط والعروسة هى عملى الوحيد فى القاهرة ولم يكن معي من الأطفال من يساعدنى على ما أقوم به من الأعمال إلا خادمة صغيرة فى مثل سنى، كنت

أختلسها اختلاساً من والدتى، وكنت أميل إلى مجالسة شقيقى عند حضوره من المدرسة وكان يكبرنى بنحو ١٠ سنوات فكنت أستمع لما يقرأه من القصص وأجتهد فى فهمها وكثيراً ما كنت أحفظ ما يحفظه هو من المحفوظات. أما أثناء النهار فكنت أقضيه كما قدمت فى خياطة ملابس القطط والعروسة ثم تدرجت من ذلك إلى خياطة ملابسى على آلة الخياطة.

كيف تذوقت الأدب العربى
قبل أن أعرف القراءة والكتابة؟!

كنت فى سن السادسة لما كان شقيقى فى سن السادسة عشر، وكان طالباً فى المدارس الثانوية وقد ألف مجالستى فكان يقرأ لى فى كتب الأدب القديمة كالأغانى وغيره، وكنت أصغى إليه باهتمام حتى تعودت فهمها، وكان إذا حاول حفظ قصيدة كلفته المدرسة حفظها، حفظتها معه. ولا يخفى أن موهبة الحفظ قوية عند صغار الأطفال فهم لا يجدون فيها صعوبة ولهذا كنت كثيراً ما أحفظ القصيدة بمجرد استماعى له وهو يقرأها قبل أن يحفظها هو، وكان يسره ذلك فيسمّعها لى ويطلب منى أن أسمّعها له وهكذا تمت بيننا الصداقة والألفة واستطعت أنا أن أتذوق الأدب العربى قبل أن أعرف الألف من الباء.



«وكنت أصغى إليه باهتمام»

كيف تعلمت القراءة؟

انتهى شقيقى من دراسته الثانوية ودخل المدرسة الحربية الداخلية. فبعد عنى وعز علىّ الأمر، وشعرت بالوحدة بعده، وتشوقت للقراءة حتى إذا عاد يوم الخميس من مدرسته توسلت إليه أن يعلمنى مبادئ القراءة، ففعل. ولم آكد أتعلم الحروف الهجائية وحركاتها حتى بدأت أعالج القراءة بنفسى وكنت قد حفظت مع شقيقى بعض قصائد من كتاب "مجانى الأدب"، فلما عاد أخى أحد أيام الخميس رجوته أن يدلنى على مكان إحدى تلك القصائد من كتاب "مجانى الأدب" ثم أخذت أقرأها فى بحر ذلك الأسبوع حتى إذا عاد فى الأسبوع التالى أطلعته على مبلغ قراءتى لتلك القصيدة، ولما كنت قد حفظتها عن ظهر قلب قبل أن أقرأها فقد كنت أتعلم منها القراءة، وهكذا قضيت تلك السنة الدراسية فى قراءة القصائد التى سبق أن حفظتها وكنت أعتقد أنى لا أستطيع أن أقرأ غيرها.

وحدث فى ذات يوم أنى ذهبت لزيارة إحدى قريباتى فوجدت فى منزلها كتاباً صغيراً كتب عليه (قصة حسن الصائغ البصرى)؛ وكم كان سرورى عظيماً عندما استطعت قراءة ذلك العنوان، وقد اكتشفت فى تلك اللحظة أنى أستطيع أن أقرأ الكلمات التى لم تشكَّل والتى لم أحفظها من قبل. فسررت بذلك وطلبت من قريبتى أن تعيرنى ذلك الكتاب فلم تمانع وكانت قراءة ذلك الكتاب عملى مدة الأسبوع، حتى إذا عاد أخى من مدرسته أطلعته على ما استطعت قراءته. وأخذت من ذلك اليوم أقرأ كثيراً من الكتب والروايات فقرأت كتاب ألف ليلة وليلة جميعه وقصة عنترة ابن شداد بأكملها كما قرأت كثيراً من الروايات الأخرى لا أطلب من ذلك سوى التسلية ومع هذا كنت أصل الليل بالنهار فى قراءتها ثم ملت بعد هذا إلى الكتابة محاكية ما قرأته.

لقد قرأت أشعار عمر بن أبى ربيعة وأبى نواس ومجنون ليلى وغيرهم وكلهم

يتغزلون ويتشببون بالنساء، وأخيراً، قرأت ديوان المرحومة عائشة هانم التيمورية وكان فيه كثير من الغزل. واعتقدت لسذاجتى إذ ذاك أن الغزل سهل وأن الإنسان يستطيع أن يقول فى الغزل ما لا يستطيع أن يقوله فى أى موضوع آخر، إذن يجب أن أقول الشعر فى الغزل ومادمت لا أشعر بالحب فكيف أتغزل أو أتشبب؟ وأخيراً اهتديت إلى حل وهو أن أكتب قصصاً لأقول فيها الشعر الغزلى على لسان غيرى وكتبت أول قصة فى كراسة صغيرة وكان فيها الأبيات الآتية:

أحالت عن العهد الذى كنت أعهده
ومودعنا بالأمس خابت مقـــاصده
حبيبـــــة قلبى لا تميـــل لعـــاذل
فإن عذولى قد دهتنـــى مكايـده
وزورى فتى فى هــــواك متيمـــاً
عليلاً ليشكو ما يلاقى لعائــــده

ولا أدرى لم نصبت متيماً وعليلاً وأنا فى ذلك الوقت لا أعرف شيئاً من أصول النحو؟ كما يرى القارئ الكريم من ذلك البيت الأخير أني لم أكن أعرف حروف الجر ولهذا رفعت عائداً تبعاً لقافية الأبيات مع أنه مجرور.

وحدث أن دخل علىّ شقيقى ومعه مصطفى أفندى عبد الرازق ابن عم والدتى وفى يدى تلك الكراسة فأخذها وقرأ الأبيات ثم ألقى بها إلى الأرض مرسلاً ضحكة حلوة عالية وهو يقول فى دعابة وسخرية "مالك والكتابة"؟! إن هذه اللام لا تجر عربة فقط بل تجر حماراً أيضاً" ودهشت لما يقوله أخى لأنى لم أفهمه وخجلت من تهكمه على كتابتى وتناول الكراسة مصطفى أفندى عبد الرازق، وقرأ ما فيها، وقال لى فى شيء كثير من التشجيع لا يهمك كلامه، واعلمى أنك إن تعلمت فلن يستطيع أحد منا أن يجاريك فى الكتابة فقلت فى خجل وأسف وما هى اللام التى يذكرها أخى؟ قال سأرسل لكِ الجزء الأول من النحو لتتعلمى منه تلك القواعد وفى اليوم التالى جاءنى ذلك الجزء فأخذت أقرأه وأطبقه على ما أطالع من الروايات والأقاصيص وقد اتجه

فكرى فى ذلك الوقت إلى تحقيق ما قاله ذلك القريب والالتفات إلى التعليم وترك قراءة كتب القصص والروايات.

وفى تلك السنة ذهبنا فى إجازة الصيف إلى بلدتنا فأخذت معى مصحفاً، وجعلت أحفظ بعض سوره وكنت أختار سور القصص كسورة يوسف ومريم وكنت أفهمها فهماً جيداً ولكن أحد جيراننا وكان طالباً فى الأزهر قال لى إنه من الكفر أن أقرأ القرآن وحدى. فقلت لم يكون كفراً وأنا لا ألحن فيه؟ وقرأت أمامه بعض الآيات فوافق على أنى أقرأها صحيحة. ولكنه قال إنه يجب أن أحذر كل الحذر من أن أحاول فهم معناها وإلا عدَّ ذلك كفراً لأنه هو نفسه لا يحاول فهم سورة إلا إذا تلقى تفسيرها على أستاذه فى الأزهر. فقلت له ولكنى أفهمها جيداً حسب ما أعتقد قال إن ما تعتقدينه شىء والحقيقة شىء آخر. وأردت أن أعرف المعنى الذى تعلمه هو فى الأزهر. وأقسمت له إن أفادنى أن أمدحه بقصيدة. وإن لم يفعل فلابد من ذمه بقصيدة أخرى. وسألته عن معنى الآية "يا أبانا مُنع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون" وقد كنت أفهم معنى تلك الآية على حقيقتها فقال لى هو إن أخاهُم اسمه نكتل. وهنا سخرت منه وقلت له: إن الكفر هو ما تعلمته أنت عن أستاذك. وكتبت له قصيدة الذم كما أوعدته وكان اسمه محمداً أبا نصرة. ولست أتذكر شيئاً من تلك القصيدة إلا البيتين الآتيين:

أمحمد سموك خابت ظنونهم
لو أنصفوك لكنت تدعى باقل
لقبت بالنصرة وفعلك ضدها
فلتعلم الأقوام أنك متخـــاذل

خرافات وأوهام
تأثير السرور فى الصحة

مرضت بعد هذا وكان المرض غريباً حقاً لأنى كنت أستيقظ من النوم صارخة دون أن أشعر بذلك الصراخ، حتى إذا شعرت بحالتى أحسست كأن إبراً تغرس فى كفى وكان هذا ولا شك هو سبب الصراخ. وكنت لا أبقى طعاماً فى جوفى، وحاول الأطباء علاجى فى غير جدوى، وعز على والدتى الأمر، وهالها بالطبع مرضى لأنى أولاً ابنتها الوحيدة، وثانياً ستفقد بفقدى المعاش المقرر لى لهذا هلعت كل الهلع، وأشار عليها بعض صديقاتها بأن تعمل لى حفلة زار، فصممت على ذلك، وكانت قد باعت منزلاً صغيراً لنا بمبلغ مائتى جنيه وأرادت أن تشترى بها منزلاً آخر فلما مرضت لم تبخل علىّ بالمبلغ واستعدت لعمل حفلة الزار، وأحضرت كثيراً من (مصاغ) الزار المعروف كخلخال من الفضة وأحجبة وغير ذلك إلا أنى لم أسر لذلك المصاغ الغريب ولم أعره أى التفات. وزارتنا فى ذلك الوقت إحدى الدلالات ومعها قرط ثمين من الماس تبلغ قيمته مائة جنيه ولكنها كانت تعرضه بخمسين جنيهاً فتشبثت بشراء ذلك القرط ولم تر والدتى بداً من إرضائى فاشترته لى وكان ذلك فى اليوم الذى تمت فيه معدات الزار. وقد سررت بالقرط سروراً عظيماً، أعاد إلىّ صحتى، وقامت شيخة الزار بإعداد الكرسى ووضعت عليه صينية مُلئت برءوس السكر والمكسرات وزبادى اللبن وغير ذلك من المأكولات. سررت بكل هذا وكان أخى ومصطفى أفندى عبد الرازق يحذران من أن أعمل ما تعمله السيدات من ذلك الرقص المستهجن، فلم أفعل، ولكنى بعد تلك الحفلة شفيت تماماً، ولعل مرضى كان عصبياً فشفاه السرور والابتهاج.

وسرَّت والدتى بشفائى بعد اليأس ورأت أن ما بقى معها من ثمن المنزل لا يكفى لشراء أى عقار فاشترت لى به حلياً مختلفة من الذهب، كأساور وقلادات وغيرها.



دفعنى السرور بذلك الحلى الجديد أن ألبسه وأذهب لأزور إحدى قريباتى وقد كنت فى ذلك الوقت لا أتجاوز الثامنة من العمر، وكان منظرى لا شك مضحكاً لأنى ألبس من المصاغ ما تلبسه الآنسات الرشيدات، وأنا لا أزال طفلة. وقابلتنى فى الطريق امرأتان من الرعاع فأقبلتا علىّ وقالت لى إحداهما: ألست ابنة السيدة فلانة؟ فقلت: نعم أنا هىّ. قالت: لقد كلفتنى أمك أن أصنع لكِ عروسة كبيرة بحجمك فتعالى معى لأعطيها لكِ، ورابنى كلامها، فقلت لها: وكيف أستطيع حمل عروسة فى حجمى أنا؟

فدهشت المرأة، وقالت تعالى معى لاحضرها لكِ وأحملها أنا وأذهب بها إلى والدتك. قلت لا داعى إلى ذهابى معك. ومادامت والدتى هى التى كلفتك صنع تلك العروسة فعليك أن تذهبى إليها بها، وستحتفظ بها والدتى لى. ودهشت المرأتان لهذا الجواب العجيب من طفلة ومالت إحداهما على الأخرى، هامسة فى أذنها "تكونش دى ست وانسخطت".

أتممت زيارتى ثم عدت إلى والدتى فأخبرتها الخبر وقلت لها على مقدار شكى فى المرأتين، فقالت لقد صدق ظنك لأنى لم أكلف أحداً عمل عروسة، ولعلهما أرادتا أن تسلباك حليك.

كان هذا الحلى موضع غرابة فى الأسرة بأكملها فقال عم والدتى، إن والدتى لا

تعرف التربية، وإن ابنها هذا الوحيد سيتلف من تلك التربية، وينشأ ممن يجمعون أعقاب السجاير، أما البنت فلن تفلح بعد ذلك الحلى "والدلع" وستنشأ على أسوأ سلوك. قال ذلك عم والدتى وأنا فى الثامنة من عمرى. وقد أثبتت الأيام خطأه فقد كد أخى وعمل مع هذا الترف الذى كان يعيش فيه وملاينة والدتى له ولى. كد ودأب حتى كان من الأوائل فى امتحان شهادة الحقوق. لأنه ترك المدرسة الحربية والتحق بالحقوق لأسباب صحية وعين مساعداً للنيابة فى شهر نجاحه. إذ كانت الحكومة تعيّن الأوائل بالترتيب. أما أنا فلم أكد أبلغ الثالثة عشر من عمرى حتى ازدريت لبس الحلى. فوضعته فى علبة ولم ألبسه حتى الآن. إذ دخلت فى تلك السن المدرسة السنية ولم أر من اللياقة أن ألبس شيئاً من هذا والظاهر أننى اكتفيت بما تمتعت به من اللبس والدلع من نشأتى إلى سن الثالثة عشر، ولم أعد بعد ذلك أشتاق لشىء منه.

ولعل حريتنا فى صغرنا هى التى قوَّت من إرادتنا وجعلتنا، أى أنا وأخى، نبتعد عن اللهو ونكد ونعمل فيما نريد، وهذه على ما أعتقد هى التربية الاستقلالية التى نصَّ عليها علماء التربية، ولم تقم بها والدتى لعلم بما ستجنيه منها، ولكن دفعها الجهل والخوف علينا إلى معاملتنا تلك المعاملة اللينة.

وبهذا نشأنا على الصدق وقوة الإرادة، ولكن هذه التربية لا تصلح فى البلاد المستعمرة التى اعتاد أهلها الاستعباد فأصبح الرئيس يحتقر مرؤوسه، ويهينه لسبب وبلا سبب. فإذا رفض هذه الإهانة كان عليه أن يحتمل الذل والفقر والطرد، وهذا هو نفس ما صادفنى فى حياتى. فقد فشلت فشلاً تاماً وسبب ذلك الفشل هو تلك التربية التى اعتدت منها أن لا أحتمل الضيم مما كان ضئيلاً.

وكانت والدتى بعد هذا إذا مرضْت ألحت علىّ في أن أعمل الزار لأنه تأكد لديها أن لى صاحباً من الجن وأننى عندما أرضيته وعملت الزار شفيت، وهى تجهل أننى شفيت من تأثير السرور بما اشترت لى من الحلى وأنى بعد أن كبرت أصبحت لا أسر بتلك السخافات بل إن أسباب مرضى كانت فى الغالب لكدرى من أشياء أهمها قلة المال ولو أنى أطعتها وعملت حفلة زار لخسرت من النقود ما يضاعف مرضى وهكذا استمرت هى على اعتقادها وظللت أنا على نكرانى وجحودى لجميل ذلك الزار.

كيف دخلت المدرسة السَنية؟

اتجهت إلى التعليم كما قدَّمت ولم أكتف بمطالعة القرآن وحفظه بل أردت أن أتعلم تعليماً صحيحاً فى المدرسة السنية، وعلمت من أخى أنى إذا أردت دخول السنة الثالثة وجب علىّ أن أعرف مقرر الحساب للسنة الثانية وهو جمع وطرح وضرب وقسمة الأعداد الصحيحة والكسور الاعتيادية وكان سنى فى ذلك الوقت ١٣ عاماً فطلبت من والدتى أن تعين لى معلماً واستشارت عمها فقال لها جملتهم المأثورة "علموهن الغزل ولا تعلموهن الخط" وهكذا رفضت والدتى أن تعين لى معلماً ورفضت أيضاً أن تعلمنى الغزل إذ أنى أجهله حتى الآن. ساءنى ذلك والتجأت إلى أخى ولكنه فى ذلك الوقت كان مشغولاً عنى بمدرسته فأحضر لى كتاب الحساب المقرر على السنة الثانية وكان فيه لحسن الحظ شرح تلك القواعد فتعلمت منه الأربع قواعد الأصلية للأعداد الصحيحة والكسور الاعتيادية أيضاً، ولا أنكر أنى وجدت شيئاً من الصعوبة فى فهم عمليات الكسور الاعتيادية من الكتاب ولكنى تغلبت عليها وحاولت فى الوقت ذاته أن أتعلم ألف باء اللغة الإنجليزية مستعينة بالوقت القليل الذى كنت أختلسه من أخى متحملة تمنعه وسخريته منى وأخيراً عوَّلت أن ألتحق بالمدرسة السنية ولما كاشفت والدتى برغبتى قامت لذلك وقعدت، واعتبرته خروجاً على قواعد الأدب والحياء ومروقاً من التربية والدين وأخذت تقص الحكاية على أقاربها كأنها أحدوثة. وكان يساعدها على ذلك كل من سمع بتلك الرغبة الجامحة. صممت هى على الرفض، وصممت على تنفيذ رغبتى مهما بلغ الأمر ولكنى رأيت أن أخفى عنها تلك الرغبة مؤقتاً وأن أحاول الالتحاق بالمدرسة السنية دون أن أخبرها بذلك، فإذا نجحت وقبلتنى المدرسة كان لى ولها شأن. تكتمت الأمر وعولت على تنفيذه سراً فسرقت ختم والدتى وذهبت إلى المدرسة السنية وكتبت استمارة التحاقى بها وختمتها بختم والدتى ولا أنكر أن خطى فى تلك الاستمارة كان مضطرباً رديئاً لأنى لم أعتد

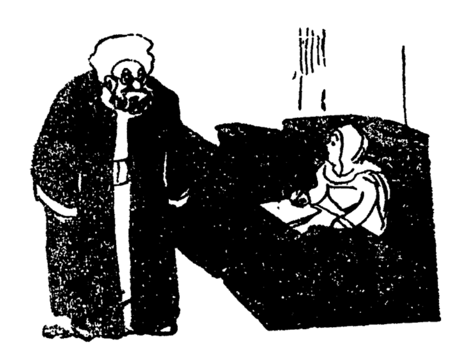
الكتابة ولم أحسن إمساك القلم وعجب سكرتير المدرسة السنية والمعلمون من جرأة تلك الفتاة التى جاءت لتقدم لنفسها. ولكى أحملهم على قبول طلبى جعلته بمصروفات، وكان أغلب طالبات السنية فى ذلك الوقت يتعلمن بالمجانى لعدم إقبال الأهالى إذ ذاك على تعليم البنات ولهذا ظننت أن طلباً تقوم صاحبته بدفع المصروفات جدير بأن لا يرد.

دخلت الامتحان وما كان أشده وأقساه على فتاة فى سن ١٣ عاماً، لم تر نظام المدارس ولم تُحسن إمساك القلم. فكان القلم يلعب بى بدلاً من أن ألعب أنا به. فكم لوثت ورقة وكسرت قلماً فى ذلك الامتحان، فكانت ورقتى فى اللغة العربية كلاماً عربياً صحيحاً وخطاً لا يختلف كثيراً عن خطوط الأطفال. وقد تعجب المعلمون من رداءة الخط وجودة الإنشاء: إنشاء لا تستطيعه طالبة فى المدارس الثانوية وخط لا تكتبه تلميذة فى السنة الأولى الابتدائية.

دخلت امتحان الحساب وكان واضعه الشيخ أحمد التونى، وكان يشمل ثلاث مسائل عقلية لا تحتاج إلى العمل ومسألة واحدة عمليةفيها عملية ضرب طويلة.

أراد الأستاذ بذلك أن يعجز تلك الطالبة المستجدة بهذه المسائل العقلية ثم أعطاها مسألة واحدة هى التى ظن أنها تستطيع حلها وكان الأمر على عكس ما ظنه الأستاذ فقد كنت قوية فى حل المسائل العقلية وكنت مع ذلك ضعيفة فى العمليات لم أحفظ جدول الضرب بعد. ولما كانت المسائل العقلية لا تحتاج إلا إلى عمل بسيط لا يتجاوز الرقم الواحد فقد ابتدأت بالثلاث مسائل العقلية فحللتها، ثم أخذت بعد ذلك أغالب عملية الضرب لأتغلب عليها فتفوز علىّ وتقهرنى.

وجاء الأستاذ وكنت وحدى فى الغرفة لأنه لم يتقدم إلى امتحان السنة الثالثة سواى. جاء الأستاذ وألقى نظرة على الورقة فدهش إذ كان حلّى للمسائل الثلاث صحيحاً فقال باسماً لقد كان الامتحان سهلاً؟ قلت نعم ولكنى أطلب المساعدة فى عملية الضرب هذه فدهش الأستاذ وقال "الخبر إيه؟ هل أنت من الفلاسفة؟" قلت كلا ولكنى لم أحفظ جدول الضرب فضحك الأستاذ وقال يكفيك حل ثلاث مسائل.



أما امتحان اللغة الإنجليزية فقد كان إملاء سهلاً جداً ومع ذلك فقد أخطأت فى نصف كلماته وخشيت أن لا أقبل بالمدرسة فاتصلت بالمعلمين، ورجوتهم أن يقبلونى مؤكدة لهم أنى سأدفع المصروفات لاعتقادى أنى سأنجح فى النهاية فإن فشلت فأنا التى سأخسر لا المدرسة، وضحك المعلمون من التماسى هذا وصمموا على قبولى بالرغم من ضعفى فى اللغة الإنجليزية ورداءة خطى.

سررت سروراً عظيماً عندما علمت بقبولى فى المدرسة السنية وكنت احتفظ بالقسط الأول من المصروفات فى جيبى فدفعتها وهى ٢٥٠ قرشاً لأن التلميذة الخارجية كانت تدفع ٧٥٠ قرشاً سنوياً وتتناول الغداء بالمدرسة، والداخلية ١٥ جنيهاً.

ولعل القارئ يسأل من أين جئت بالنقود والواقع أنى بعت سواراً من الذهب بخمسة جنيهات إذ أصبحت فى ذلك الوقت أحتقر الحلى.

ذهبت إلى المنزل وأنا أكاد أطير من الفرح فأخبرت والدتى بالتحاقى بالمدرسة السنية، قالت إذا فعلت فلا علاقة لى بك. قلت لقد فعلت ولا شك فى ذلك وأنا ذاهبة لا محالة فإن تشبثت بالرفض وعدم القبول فسأدخل المدرسة الداخلية وفى معاشى ما

يقوم بذلك قالت أحق ما تقولين؟ قلت نعم حق لا ريب فيه وسأذهب إليها يوم السبت. قالت إذن فلا تدخليها داخلية وكونى خارجية قلت حسناً. وفى يوم الجمعة زارنى شقيقى فقال لى تأكدى إن دخلت السنية فلن أعرفك فابتسمت قائلة لقد نقص إذن من أقربائى واحد ولا ضير فى ذلك. فغضب أخى وانصرف. وفى يوم السبت ذهبت إلى السنية فكان خجل، وكان حياء، وكان اضطراب لحالة لم آلفها، فقد كنت قبل ذلك فى المنزل فلم أر من الرجال إلا أخى أما اليوم فقد رأيت كثيراً من المعلمين والخدم ولهذا كنت أنتقد أية حركة تبدو من أى معلم، بل وأية كلمة تنبو عن موضعها، وكنت أقيس حركاتى وسكناتى بالمللي حتى لا تخرج عن معنى الأدب والكمال الذى تعودته فى منزلى تحت إشراف والدتى وملاحظات أخى الكثيرة القاسية.

الشيخ حمزة فتح الله
وكيف أثار الطالبات علىّ؟

كنت غريبة فى المدرسة السنية كما قدمت، ولم أمكث فيها أكثر من ثلاثة أيام حتى زارنا الشيخ حمزة فتح الله، ومع أنى كنت قد دخلت فى السنة الرابعة عشر من عمرى فإنى لم أكن أكبر سناً عن تلميذات السنة الثالثة إذ ذاك بل كنت مثل كثير منهن وأصغر من بعضهن. ولما كنت قصيرة القامة فقد جلست فى الصف الأول من الفصل، ودخل الشيخ حمزة فتح الله، وكان لسوء الحظ أن كانت وقفته إلى جانبى فطلب منى أن أقرأ فقرأت وسرَّ الأستاذ سروراً عظيماً لأنى كما قدمت كنت أقرأ قراءة صحيحة مع أننى كنت أكتب خطاً رديئاً لا كرداءة الخطوط العادية بل خط فتاة لم تعتد الكتابة، أى: خط طفلة لا تعرف كيف تكتب. سر الأستاذ من قراءتى وأعجب بها إيما إعجاباً ثم طلب من غيرى أن تقرأ، وهاله ما بينى وبينها من الفرق العظيم، فغضب وأمرها بالجلوس، وقال إنها متأخرة جداً بالنسبة للتلميذة الأولى، ثم سأل غيرها فكان غضبه أشد، وهكذا ثار الأستاذ وسأل المعلم عن سبب ضعف التلميذات إلى هذا الحد. وهنا مال عليه المعلم وقال همساً هؤلاء هن طالبات السنة الثالثة وهن لا يستطعن أن يقرأن أحسن من هذا، أما تلك التلميذة التى قرأت فى الأول فهى جديدة لم تدخل المدرسة إلا هذا العام وهى على ما يظهر أقوى منهن بكثير. وهنا نظر الشيخ حمزة فتح الله وقال أرجو يا ابنتى أن تساعدى زميلاتك على حسن القراءة والصرف، وكل البنات يرغبن ويزيدن لهذا الحادث العظيم فى نظرهن، إذ كيف يطلب المفتش من تلميذة مثلهن أن تعلمهن وهى فضلاً عن هذا غريبة عن المدرسة وليست من تلميذاتها وهذا ما اعتبرته التلميذات عاراً لا يمحى. وما كادت الحصة تنتهى حتى خرجن إلى الفناء وشكون أمرهن إلى باقى تلميذات المدرسة، وكان فى المدرسة طالبة عرفت بالصراحة كما عرفت بالشجاعة والإقدام فكانت بطلة المدرسة أو بلطجيتها، وكانت إذا مرت بتلميذتين تتشاجران قضت

بينهما بالعدل وضربت الظالمة أو أنبتها مع أنها كانت لا تزال فى السنة الثانية فذهبت التلميذات إليها وشكون لها ما فعله المفتش، فجاءت ووقفت أمامى وكنت جالسة فارتعدت فرائصى خوفاً وأيقنت أنى مضروبة لا محالة، وقالت لى بلهجة الغضب والتأنيب كيف تسمحين لنفسك أن تعلمى زميلاتك وهن أقدم منك فى المدرسة؟ فنظرت إليها فى هدوء وقلت لها وهل قمت بتعليمهن أو طلبت إليهن ذلك؟ وما ذنبى أنا إذا سمح الشيخ حمزة فتح الله لنفسه أن يقول ذلك السخف الذى لا يعنينى أمره؟ فنظرت إلىّ فى شىء من التردد ثم قالت صدقت، ليس هذا بخطئك وانصرفت من عندى، ويظهر أنها وبخت تلميذات السنة الثالثة على ثورتهن ضدى فهدأن ولكنهن أطلقن علىّ لقب زوجة الشيخ حمزة فتح الله.

وكنت لا أعرف كلمة فى اللغة الإنجليزية، وكنت أجلس فى الفصل هادئة لا أكاد أتحرك، وكان بعض المعلمات الإنجليزيات يعتقدن أن التلميذة الهادئة جداً خاملة العقل لا تفهم شيئاً ولو أن معلمتنا فى ذلك الوقت اعتقدت هذا لقضى علىّ بعدم النجاح ولكن هذه المعلمة كانت على عكس زميلاتها فى هذا التفكير، فتخيلت أنى أذكى فتاة فى المدرسة وأخذت تساعدنى بكل ما تستطيع، فكانت تأمر التلميذات أن يترجمن لى كل ما تقوله رغماً عنهن، ورأيت أنهن يقمن بمناورات ضدى فى حصة اللغة الإنجليزية فأردت أن أردهن إلى الصواب فأخذت أضايقهن فى حصة اللغة العربية. فكنت أهزأ بمن تخطئ وأصحح لها خطأها، فتتألم وتغضب، فيغضب عليها المعلم ويعاقبها، وهكذا ضايقتهن مضايقة عظيمة فجئن إلىّ وطلبن أن تضع الحرب بيننا أوزارها قلت حسناً إذا كنتن على استعداد لمساعدتى فى حصص اللغة الإنجليزية فقبلن منى ذلك الشرط واتفقنا من ذلك اليوم على أن أساعدهن فى اللغة العربية ولو بسكوتى ويساعدننى هن فى اللغة الإنجليزية بترجمة ما لا أفهم وهكذا انتظمت حالى بذلك الصلح قليلاً ولكنه كلفنى كثيراً إذ كان أغلبهن يطلبن منى أن أملى عليهن موضوع الإنشاء الذى يكلفهن المعلم كتابته، وعلى هذا كنت أكتب موضوع الإنشاء أربع أو خمس مرات حسب الطلب، فكنت أملى على كل من طلبت منى ذلك موضوعاً يغاير فى ألفاظه وأفكاره موضوع الأخرى حتى لا يظن المعلم أن إحداهن نقلت من الأخرى.

وفى نظير ذلك كن يترجمن لى كل ما تقوله المعلمة الإنجليزية وكنا لسوء الحظ نتلقى علوم الجغرافية والتدبير المنزلى والأحياء باللغة الإنجليزية التى لم أكن أعرف منها شيئاً، فكنت أجد صعوبة عظيمة فى فهم تلك العلوم ولكن المعلمة كانت تشجعنى كل التشجيع ولهذا استطعت أن أتغلب على تلك الصعوبات.

وحدث فى يوم أن كانت تشرح لنا المدرسة جغرافية مصر الطبيعية على الخريطة وكانت الأطالس أمامنا، والظاهر أن الخريطة كانت ضيقة لا تمثل مكان واحة سيوة وقالت المعلمة للتلميذات أن ينظرن جيداً إلى الأطلس وكانت الواحة موجودة عليه، وأن يشرن إلى مكانها على الخريطة. وقامت التلميذات الواحدة بعد الأخرى تشير إلى الموضع الذى كانت تظنه موضع واحة سيوة. ولما كانت التلميذات متجهات إلى وضع واحة سيوة على الخريطة مع أن محلها نفسه لم يكن موجوداً على تلك الخريطة فقد أخطأن جميعهن، وطلبت المعلمة منهن ترجمة السؤال لىّ فذهبت لأشير إلى مكان الواحة فوضعت الإشارة على الحائط لا على الخريطة وظن التلميذات ذلك غباء منى فضحكن ضحكات عالية ملؤها الشماتة ونظرت إليهن المعلمة فى دهشة حتى إذا انتهين من الضحك أخبرتهن ببرود الإنجليز المعروف أنهن قد أخطأن، ولم يعرف مكان واحة سيوة بالضبط إلا تلك التلميذة التى سخرن منها، وكانت دهشتهن عظيمة لذلك وابتدأن من ذلك اليوم يملن لىّ ويحترمننى.

كنت غريبة عن المدرسة السنية، بعيدة عن كل نظمها وكنت انتقد ما يلقى علينا واحتقره إذا كان لا فائدة منه، لهذا لم تعجبنى قواعد الصرف فكنت أسخر منها ولا أرى أية فائدة فى أن أعرف أن سار أصلها (سير) وأن كان أصلها (كون) وغير ذلك من العلل الصرفية لأنى كنت أرى أنى أعرف أن افهم واقرأ وأن أكتب ما يفهم قبل أن أتعلم تلك القواعد التى لا معنى لها، وأعطانا المعلم يوماً امتحاناً فى الصرف وبدلاً من أن أجيب عليه كتبت له فى الكراسة الأبيات التالية:

دهتنى صروف الصرف لا در دره

ولا خير فى فعل إذا رمت صرفه

كما أنه يخشى الزمـان وصرفـه

أرى الفعل موهوباً لدى وصرفـه

فإن تكسروا للفعل عينا فـأننى

كسرت ذراع الفعل عمدا وأنفـه

وإن كان معتلاً فلست طبيبـــة

دعوه دعوه علّه يلقى حتفـــــه

وبالطبع قد منحنى ذلك الأستاذ فى ذلك الامتحان صفراً بأكمله دون أن يبخل علىّ بشىء منه.

وأمرنا الأستاذ يوماً أن نحفظ حروف المعانى المكتوبة فى كتاب النحو بترتيبها عن ظهر قلب، فلم يعجبنى أن أتعب نفسى فى هذا السخف الذى لا معنى له، وعندما طلب منى المعلم فى اليوم التالى أن أسمِّع ما حفظت قلت له إنى نظمتها شعراً قال هاتى فقلت الأبيات الآتية:

أشكو إليك حروفـــا فى تعلمها

حلت بقلبى من تكرارها العــــلل

(إذن واذما) فمــــا كررتها أبدا

إلا بدت أدمعى كالسيل تنهمـــل

ولا ذكرت (بلى والكاف ثم جــلل)

إلا وخاب لدى تذكارها الأمـــــل

(جيرى وحتى وحاشا) بت أقرأها

حتى ثنى همتى عن حفظها الملل

علىّ بذلك لا القى العقـــاب ولا

عن ساحة الكرم المأمول أنتقـل

فقال المعلم ومكافاة لكِ على هذا الاجتهاد سأعطيك صفراً، فقد مللت أن أكتب لك فى كل شىء عشرة وهذه فرصة أغير فيها العشرة إلى صفر تشجيعاً لكِ على قول الشعر. وهكذا كنت لا آخذ فى اللغة العربية درجة إلا الدرجة النهائية أو صفراً.

الشيخة رمانة

كانت السنة الثالثة أصعب سنى دراستى لأنى كنت غريبة عن نظم المدارس وترتيباتها ومع هذا فقد نجحت وكنت الأولى فى امتحان النقل إلى السنة الرابعة وكان عدد طالبات السنة الرابعة على ما أتذكر ٦ طالبات وامتحنا امتحان الشهادة الابتدائية فى مدرسة عباس لأن المدرسة السنية كانت فى بناء قديم غير بنائها الحالى وكان على مقربة من بنائها المعروف الآن، فقد كان فى حارة صغيرة فى شارع المبتديان.

وتشاء القدرة الإلهية أن يكون امتحان الحساب فى ذلك العام وهو عام ١٩٠٣ أصعب امتحانات الحساب التى رأيتها حتى الآن، ولهذا رسب فى الحساب فقط ٦٠٪ من عدد المتقدمين لذلك الامتحان، خرجنا من امتحان الحساب وكل الطالبات يبكين وكان من بين طالبات المدرسة السنية طالبة عُرفت بالطيش وعدم تقدير الأمور فخرجت تضحك وتتظاهر بالنجاح، فكانت جميع الطالبات باكيات وهذه الطالبة ضاحكة ساخرة أما أنا فكنت على الحياد لا بكاء ولا سرور، فدنت منى ضابطة مدرسة عباس وقالت أراكِ لست كزميلاتك فى البكاء ولا تشاطرين تلك الزميلة الأخرى سرورها واغتباطها فما شأنكِ؟ قلت أظن أنى ناجحة فلا معنى للبكاء أما السرور والابتهاج فليس من المروءة أن أضحك وزميلاتى باكيات. قالت وهل أنتِ واثقة من نجاحك؟ قلت نعم. قالت لا تغترى فقد رسبت أولى طالباتنا فى العام الماضى. قلت: لابد يا سيدتى أنها كانت ضعيفة فى الحساب. قالت نعم هى كذلك، قلت الحساب لا صاحب له فقد تكون التلميذة مجتهدة فى كل شىء تذاكره مذاكرة جيدة فتتقدم على زميلاتها ولكنها ينقصها الذكاء فلا تستطيع النجاح فى الحساب، أما أنا فمحال أن أرسب وأنا أولى الفصل فى أغلب المواد وفى الحساب أيضاً. قالت إذن سنرى.

انتهى الامتحان وخرجت التلميذات وأغلبهن واثقات من عدم النجاح ولا أدرى

كيف تأثرت بآرائهن فساورتنى الشكوك فى نجاحى بعد أن كنت متأكدة منه، وكانت والدتى شديدة الثقة فى منجمة تدعى الشيخة رمانة، وكانت تقول إن كلامها لا ينزل الأرض حسب تعبيرها هىّ، وكان أخى - رحمه الله - على عكس رأيها وهو الذى كنت أسير مع آرائه، فأردت أن أشرح لوالدتى بطريقة عملية أن هذه المنجمة لا تستطيع معرفة الماضى لا المستقبل، فطلبت أن أذهب معها إلى تلك المنجمة لأعرف منها الغيب فى مستقبلى القريب وهو النجاح فى امتحان الشهادة الابتدائية فغيرت ملابسى ولبست ملاءة وبرقعاً أسود، وذهبت إليها مع والدتى فوجدت حولها عدداً كبيراً من النساء يغلب على ظنى أنهن يساعدنها على كشف مستقبل الزبائن وإن كن يتظاهرن بأنهن جميعهن زائرات جئن للكشف عن مستقبلهن.

جلست على مقربة من الشيخة وتقدم منها امرأتان، وأعطت الشيخة إحداهما منديلها لتكشف عن مستقبلها فقالت لها فى لهجة الطفلة العابثة المترددة (مش واوه؟) وهى جملة ترسلها بين التأكيد والاستفهام. فقالت الزائرة لا يا سيدتى مش واوه، فقالت الشيخة (أنا أقول مش واوه) قالت ذلك بلهجة التأكيد - ثم قالت بلهجتها الأولى (مش حاجه ضايعه؟) فقالت الزائرة نعم يا سيدتى شىء مسروق. قالت الشيخة (أنا أقول حاجه ضايعه) ثم عادت إلى ترددها تقول (مش ذهب؟) قالت الزائرة يا ليتها كانت ذهباً - ومعلوم أن الماس أغلى من الذهب ولهذا قالت الشيخة بلهجة التأكيد (أنا أقول الماظة) فنظرت المرأة إلى زميلتها وقالت فى سذاجة لقد عرفت الشىء المسروق وتشجعت المنجمة وقالت سرقها شخص يأكل معك، وبالطبع لا يخلو الحال من أن يكون مع كل سيدة بعض أشخاص يأكلون معها إما من الخدم أو من الأقارب، ولكن المرأة لسذاجتها تأكدت أن الشيخة قد عرفت ذلك بعلمها فقالت لزميلتها بصوت مسموع.. لا يأكل معى إلا نفيسة وزادت جرأة الشيخة فقالت إن نفيسة هى السارقة وهنا قالت المرأة فى دهشة لقد عرفت المنجمة حتى اسم السارقة، فتركت المكان وهى تعتقد أن المنجمة قد عرفت كل شىء حتى اسم السارقة ونسيت أنها هى التى ذكرت اسم نفيسة بصوت سمعته المنجمة كما سمعته أنا، وقد كنت أكثر بعداً منها عن المنجمة وهنا علمت كيف تعمل السذاجة والجهل لصالح هؤلاء المنجمات.

تقدمت إلى الشيخة بعد هذه الزائرة فقالت لى جملتها المعروفة (مش واوه؟ مش حاجة ضايعة؟) وأنا أجيبها بالنفى ثم قالت لى بعد هذا (مش زواج؟) وخشيت إن أنا وافقتها على هذا لأظهر لوالدتى جهلها أن تظن والدتى أنى قد أضمرت فى نفسى أن أسأل الشيخة عن الزواج وقد كنت أود أن تعلم والدتى بجلاء كذب تلك المنجمة فالتفت إلى والدتى، وقلت لها فى شىء من الدهشة زواج؟ طيب ما انا متزوجة، وانتهزت المنجمة تلك الفرصة وأسرعت قائلة أنا أعرف أنك متزوجة وسأرد لك زوجك. فنظرت إلى والدتى قائلة هيا بنا إلى المنزل ننتظر الزوج عند قدومه إلينا قلت ذلك وانتصبت واقفة، وقامت والدتى معى، فتعالت أصوات النساء اللائى يحطن بالمنجمة قائلات حذار أيتها الفتاة من أن تسخرى بالشيخة وإلا أصابك ضرر بليغ. قلت وماذا فعلت؟ إنى سأذهب مسرعة إلى المنزل لأنتظر زوجى مادامت الشيخة ستردە إلىّ كما وعدت، وخرجت أنا ووالدتى بعد أن تغير اعتقادها فى الشيخة لأنها رأت كيف ظنتنى متزوجة وأنا لا أزال فتاة.

ظهرت نتيجة الامتحان ولم ينجح من المدرسة السنية إلاّ أنا وطالبة أخرى اسمها عائشة صبحى تنتمى إلى أسرة مجيدة، وهى الآن حرم حضرة صاحب السعادة إسماعيل باشا رمزى وكنت أنا الأولى بالنسبة للبنات وكانت هى بعدى وبينى وبينها عدد من البنين ولست أتذكر ترتيبنا بالضبط.

ومن مدهشات الأحلام أنى حلمت قبل ظهور هذه النتيجة بأنى أسير فى طريق بلدتنا الريفية بسرعة، وأنى دخلت منزلنا فى الريف ونظرت ورائى فرأيت زميلتى صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزى آتية من بعيد فقلت لها لقد تأخرت يا عائشة. قالت لا بأس فلم يمر أحد من التلميذات سوانا وهكذا ظهرت النتيجة فلم يمر أحد سوانا.

وعلى ذكر زميلتى صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزى أقول إنها من فضليات المصريات ومن أولياتهن علماً وأخلاقاً وذكاء، وإن كان اسمها لم يظهر كثيراً فى المجتمعات، ولعل ذلك ناشىء من تمسكها بالعادات الشرقية، فقد خرجت من أسرة كريمة، ودخلت أسرة مثلها فى الكرم من أسر المصريين، لهذا ظلت بعيدة عن

المجتمعات لم يذكر اسمها فى السياسة إلا مرة واحدة إذ خطبت أمام حضرة صاحب الرفعة النحاس باشا بعد خروجه من الوزارة فى عيد ١٣ نوفمبر ١٩٣٨، وهكذا تخفى المنازل الأسر العريقة دررا لو ظهرت فى المجتمع لأضاءته بذكائها الحاد المتوقد وأكسبته بهاء وروعة.



«المرحوم موسى محمد بك قاضى محكمة دسوق سابقا»
﴿وهو شقيقى﴾

شاب ريفى

نجحت فى الشهادة الابتدائية فى يونيه سنة ١٩٠٣ كما قدمت ولم ينجح فى البلاد المصرية كلها غيرى فى ذلك العام إلا ثلاث فتيات وأنا رابعتهن: تلميذتان من المدرسة السنية واثنتان من مدرسة عباس، ولا غرابة بعد هذا أن يقوم شبان قريتنا وأن يقعدوا ابتهاجاً بهذا النبأ وتقديراً لتلك العبقرية فى نظرهم إذ ذاك أى العبقرية التى استطاعت بها فتاة من قريتهم أن تنجح فى الشهادة الابتدائية. مع أن الناس الآن لا يعلقون أهمية ما لمن ينجحن فى الشهادات العالية فسبحان مغير الأحوال. كنت فى القرية حسب عادتى عندما ظهرت نتيجة الابتدائية فتوافد الناس على دارنا أفواجاً للتهنئة وإظهار إعجابهم بذلك النبوغ النادر كما كانوا يسمونه، وعلى أثر ذلك أرسل إلىّ أحد مشايخ القرية كريمته وهى فى سنى لتتعلم من معاشرتى المدنية وظلت عندى مدة شهر كنا نخيط معاً بعض الملابس. وفى أحد الأيام جاءتنى "ناعسة" وهو اسم تلك الفتاة وعلى وجهها شىء من علامات القلق وما كادت تخلو بىّ حتى قدمت إلىّ خطاباً من أخيها يقول لى فيه إنه أحبنى دون أن يرانى كما يحب الناس الجنة دون أن يروها.

ساءتنى جرأة هذه الفتاة وهالنى استهتار أخيها بالآداب فى تلك القرية الصغيرة التى رأس مال أهلها الدين والكمال، وخشيت إن أنا أطلعت شقيقى على الخطاب أن يغضب لهذا وأن يضرب ذلك الشاب ويصبح ذكرى أحدوثة بين أهل القرية جميعاً فكظمت غيظى من الفتاة وأخيها ومزقت الخطاب إرباً إرباً حتى لا يستطيع أحد قراءته ووضعته فى الظرف ولم يكن الظرف معنوناً، وأعطيته لها، وقلت لها لقد ساءنى جداً أن يرسل أخوك هذا الخطاب وأن تكونى أيتها الصديقة الرسول، ولهذا أرجوك أن تذهبى الآن وأن تخبريه بأنى لا أعرف شيئاً عن الحب وأنى أحتقر كل من يعرفه كما أرجو أن لا تعودى إلى دارنا مرة أخرى.

خرجت الفتاة تتعثر فى أذيال الخجل والأسف وهى لا تكاد تقوى على جر قدميها؛ ومضت أيام ولم تعد "ناعسة" إلى دارنا فسأل أخى ووالدتى عن السبب فقلت لهما لقد تم تمدينها ولم تعد فى حاجة إلىّ. وفى ذات يوم جاءنى أخى وقال لى فى شىء من الحدة كيف عرفك فلان؟ وذكر اسم ذلك الشاب وخشيت فى تلك اللحظة أن يكون ذلك الشاب قد أغضبه رفضى لصداقته فاختلق علىّ من الأكاذيب ما يغضب أخى ولكنى تمهلت وقلت لأخى ومن أين عرفت أنه يعرفنى؟ قال لقد كنت أمس فى فرح فلان وكان هذا الشاب يجلس أمامى ولكنه لم يشعر بوجودى وسمعته يتحدث مع بعض شبان القرية، فقال أحدهم إن فتيات المدن فاسدات الأخلاق ماجنات، وهنا انبرى له ذلك الشاب يكذبه ويقول إن كريمة موسى أفندى محمد وهى من فتيات المدن ومن أولى الناجحات فى الابتدائية هذا العام على جانب عظيم من الأخلاق والكمال، فقال له ذلك الشاب المنتقد وما يدريك فقد تكون كباقى فتيات المدن ماجنة فاسدة ولكنا لا نعرف من أمرها شيئاً؟ فقال أخو ناعسة لقد خبرتها بنفسى، وأعلم أنها أكثر النساء عصمة واستقامة. وهنا تبسمت وقلت لأخى وهل كلامه هذا يدل على أنه يعرفنى؟ قال لقد قال إنه خبر ذلك بنفسه. قلت هذا تعبير يدل على تأكده مما يقول وهل نسيت أن ناعسة أخته بقيت معى مدة تخالطنى وأخالطها وعرفت من أخلاقى ما لا يعرفه غيرها وأظن أن هذا ما أراده أخوها بقوله إنه خبر ذلك بنفسه، ولم يشأ أن يذكر اسم أخته، فزالت آثار الغضب عن ملامح أخى وقال صدقت لقد نسيت مسألة "ناعسة".

وهكذا كان ذلك الشاب الريفى مثال الشمم والصدق مع أن غيره من رجال المدن الفاسدين ينتقمون أشد الانتقام ممن تتمسك بأهداب الفضيلة وتخيب مطامعهم الفاسدة فيما أرادوه منها. نعم يتفننون فى الانتقام من الفتاة لا لسبب سوى أنها امتنعت عن إجابة مطالبهم فيدبرون لها كل وسائل الكيد ويدفعهم الغيظ إلى تسوىء سمعتها ووصفها بما هى بريئة منه لا لسبب سوى حقدهم عليها لتمسكها بالفضيلة والعصمة.

أما القرويون فيمجدون الفضيلة ولا يسمحون لأحد أن يفخر بالرذيلة والفساد

من سكر وعربدة وغيرها كما يفعل المدنيون ومن يفعل ذلك منهم فإنما يعرض نفسه لسخط أهل القرية عامة واحتقارهم له وبعدهم عنه فلا تسمع من القرويين عادة من يروى لك فى شىء من الفخر والزهو رواية سكره وعربدته، وهو لو فعل ذلك لما أصغى أحد إليه، ولما كان جوابه على ما يقوله إلا الضرب وهكذا لا تجد الفضيلة أنصاراً إلا فى وسط الريف الساذج البرىء.

طرائف

قبل أن أترك مرحلة تعليمى الابتدائى أذكر بعض المفارقات الكثيرة التى كانت تحصل فى تلك المرحلة.



«المرحومة ملك حفنى ناصف»

فقد دخلت كما قدمت المدرسة السنية فى السنة الثالثة الابتدائية، وكان ذلك فى سنة ١٩٠١، وكانت المرحومة ملكة حفنى ناصف فى السنة الثانية من معلمات السنية أى كان بينى وبينها فرق دراسة ثلاث سنوات، وكانت المرحومة مشهورة بجودة الإنشاء فى

اللغة العربية وهى موهبة، ورثتها عن المرحوم والدها حفنى بك ناصف، فلما دخلت أنا اتجهت أفكار المعلمين إلى الموازنة بينى وبينها، وأخيراً قرَّ رأيهم على أن يعطى معلم السنة الثالثة الابتدائية نفس موضوع الإنشاء الذى يعطيه معلم السنة الثانية من قسم المعلمات، وتم هذا، وعرض الموضوعان على مدرسى اللغة العربية فى القسمين الابتدائى والثانوى، فمال أغلبهم إلى تفضيل موضوعى وقالت الأقلية إن الموضوعين متساويان فى الجودة، وأغضب ذلك المرحومة ملكة وكانت طيبة القلب وقد نمت بينى وبينها صداقة فكانت تميل إلى مجالستى، فجاءتنى بعد هذه الموازنة تشكو إلىّ سوء تقدير المعلمين فى وقع موازنة كهذه بين تلميذة فى السنة الثالثة الابتدائية وطالبة فى السنة الثانية من قسم المعلمات، وقالت إنها تظن أن اهتمامهم بى لأنى فى السنة الثالثة الابتدائية يجعلهم يقدرون إنشائى فوق ما يستحق وأنها تريد أن تعرض الأمر على والدها، وطلبت منى أن أكتب قصيدة فى مدح الخديوى وأن تكتب هى أخرى، وأن تعرض القصيدتين على والدها ففعلت وفعلت ثم جاءتنى بعد ذلك وعلى وجهها علامة عدم الرضا وقالت لقد انضم والدى إلى رأيهم ويظهر أنكِ محظوظة، فقلت لها مازحة ولكنى عرضت القصيدتين على أخى ففضل قصيدتك وبهذا أصبحنا خالصتين واحدة بواحدة. وفى السنة الرابعة قالت هى قصيدة مدح فى الخديوى وقلت أنا أخرى ولكنها لم تعرض قصيدتها علىّ بل فوجئت بها على صفحات المؤيد، وأعجبنى بيت فيها أيما إعجاب وكنت خارجية وكانت المرحومة داخلية فلما رأيتها فى الصباح قرأت لها البيت فقالت لمن هذا؟ قلت عجباً ألا تعرفين؟ قالت: لا قلت إنه من قصيدتك المنشورة اليوم فى المؤيد قالت لعل والدى وضعه ومن هذا علمت أن المرحوم حفنى بك كان يساعدها فيما تكتب أثناء دراستها.

وحدث مرة أن السيدة فيكتوريا عوض (الآن مدام هنرى بك بدير مدير مخازن وزارة الصحة) وكانت زميلة المرحومة ملكة شكت إلىّ من أن المعلمين أخذوا فكرة ثابتة عن تفوق المرحومة عليها فى الإنشاء فمهما اجتهدت ومهما كتبت فهم يضعون لها درجة أقل من درجة المرحومة ملكة حفنى وأنها لهذا تريد أن أكتب لها أنا موضوعاً لترى هل يقدره المعلم ويرفع درجته عن درجة موضوع زميلتها، فأجبتها إلى ما طلبت فلما قرأ

المعلم الموضوع سألها بعض أسئلة تتعلق ببعض المراجع التى قرأت فيها عندما أرادت أن تكتب ذلك الموضوع فلم تعرف لأنها لم تكن كتبت ولا قرأت، وهنا اتضح أنه كتب لها فجاءتنى ضاحكة وقالت لقد ضبطت السرقة ولم نفلح فيما أردنا.



« السيدة ڤيكتوريا عوض»

وأخذت طالبات قسم المعلمات يطلبن منى أن أكتب لهن مواضيع الإنشاء وضايقنى هذا فاقسمت أن لا أصرف وقتاً من أوقات فراغى فى إملاء إنشاء لطالبة مهما كانت، وأنهن إذا أردن منى ذلك فعلى التى تريد أن أملى عليها الإنشاء أن تقف على باب المرحاض عندما أكون أنا داخله، وهناك أستطيع أن أملى عليها دون أن يضيع من وقت فراغى شيئاً، وهكذا تم الاتفاق فقل بالطبع عدد طالبات المواضيع إذ لم أكن أستطيع أن أملى أكثر من موضوع فى اليوم وعلى طالبته أن تقف تلك الوقفة التى لا يرغبها أحد.

ومن طريف ما حدث أن طالبة كانت متأخرة جداً فى اللغة العربية فأمليتها

موضوع إنشاء كلّفها به المعلم فلما صحح الإنشاء معلم الفصل دهش لتقدمها فى الإنشاء ومدحها على هذا التقدم السريع، وهنا تعالت الضحكات من جوانب الفصل، وسدت كل طالبة أنفها بينما كان المعلم يقرأ موضوع هذه الطالبة، لأنهن اعتقدن أننى أنا صاحبة الموضوع لا هى، وعندما سألهن المعلم عن سبب سد الأنوف قالوا إننا واثقات أن هذا الموضوع إنما خرج من مرحاض، وحاول المعلم أن يفهم ما أردن فاستعصى عليه الأمر، وأصرت الطالبات على أن رائحة الموضوع كريهة، بالرغم من أنه هو لا يشم شيئاً.

وكان لى فى ذلك العهد شهرة فى حل المسائل الحسابية العقلية بسرعة مدهشة وكانت مدرسة الحساب فى قسم المعلمات معلمة إنجليزية، وكان فصلا السنة الثالثة الابتدائية والثانية معلمات متقابلين فى فناء صغير، وفى ذات يوم خرجت من فصلى عندما انتهت الدراسة فنادتنى المرحومة ملكة حفنى من فصلها، فلما ذهبت إليها عرضت علىّ مسألة فحللتها على السبورة، وكتبت الجواب فدهشت الطالبات وأسرعت إحداهن وراء معلمة الحساب التى كانت قد خرجت من الفصل وردتها إليه ثانياً، وأظهرت المعلمة دهشتها، وكل ذلك وأنا لا أكاد أعرف سبب هذه الدهشة، وأخيراً قالت لىّ المرحومة ملكة إن معلمة الحساب صرفت الحصة بأكملها فى حل المسألة ولم تستطع أن تأتى بالجواب المدون فى كتاب الحساب، وأخيراً أكدت لهن أن الجواب المكتوب فى كتاب الحساب خطأ، فلما أتيت أنا الجواب المذكور فى كتاب الحساب دهشت الطالبات، ونادين المعلمة ليظهرن لها الخطأ الذى ذهبت إليه، وهكذا حللن المسألة بالطريقة التى كتبتها لهن على السبورة، ومن ذلك اليوم زادت مشاغلى إذ كنت أحل لقسم المعلمات كل مسألة تستعصى عليهن.

نهضة تعليم البنات فى مصر

فى يونية سنة ١٩٠١ نجح فى الشهادة الابتدائية لأول مرة ثلاث تلميذات هن السيدات: المرحومة ملكة حفنى ناصف وفيكتوريا عوض الآن (مدام هنرى بك بدير مدير مخازن وزارة الصحة) والجرابلنتر. وفى أكتوبر سنة ١٩٠١ فتح قسم المعلمات فى السنية ودخل فيه هؤلاء الثلاث فى السنة الأولى. وفى يونية سنة ١٩٠٢ نجح فى امتحان دبلوم معلمات السنية لأول مرة أيضاً طالبتان هما المرحومة السيدة ملكة حفنى ناصف والسيدة الفاضلة فيكتوريا عوض. أما الثالثة فرسبت فى الامتحان وفى أكتوبر سنة ١٩٠٣ عين كل من المرحومة السيدة ملكة حفنى ناصف والسيدة فيكتوريا عوض معلمة بالمدرسة السنية.

وفى نفس هذا التاريخ دخلت أنا السنة الأولى من قسم معلمات السنية أى فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وكان قسم المعلمات يشمل ثلاث سنوات الأولى والثانية والثالثة ومجموع تلميذات هذه السنوات الثلاث كان بالتحديد ١٤ طالبة. بالسنة الثالثة أربع طالبات هن السيدات ألجرابلنتر التى رسبت فى أول امتحان لدبلوم معلمات السنية، وآسيا عبد الفتاح (الآن حرم محمد بك حمدى مرتضى وكيل مديرية المنوفية)، وتوحيدة صبحى (الآن حرم حضرة صاحب العزة محمد بك شفيع)، وعائشة الشيمى. وبالسنة الثانية خمس طالبات هن المرحومتان السيدة فاطمة عمرشقيقة عبد العزيز باشا فهمى وحرم عبد المجيد باشا عمر، والمرحومة السيدة نور الهدى عبد الله، والسيدات زينب بهجت وزينب فؤاد وهانم صالح. أما السنة الأولى فكان بها خمس طالبات أيضاً هن السيدات عائشة صبحى (الآن حرم إسماعيل باشا رمزى) وبهيه حسونه ونور حسن وأديل دياب ونبوية موسى. على أنه لم ينجح فى دبلوم معلمات السنية من هؤلاء الطالبات الأربع عشرة إلا ثمان فقط. اثنتان نجحتا فى سنة ١٩٠٤ وهما السيدتان آسيا عبد الفتاح وتوحيدة صبحى، على أن الأخيرة منهما لم تعمل فى التعليم واثنتان

فى سنة ١٩٠٥ هما السيدتان نور الهدى عبد الله وزينب بهجت، والأخيرة منهما لم تعمل فى التعليم أيضاً، وفى سنة ١٩٠٦ نجح جميع طالبات السنة الأولى اللائى ذكرتهن الآن ما عدا السيدة عائشة صبحى مع أنها كانت من المتقدمات إذ كانت الثانية دائماً، ولكنها تركت المدرسة فى نهاية السنة الثانية، وقد كانت أمهر طالبات السنية فى اللغة الإنجليزية حتى أنها كانت تكتب فى الإنشاء الإنجليزى ما يزيد عن أربع صفحات فلا تخطىء فيها مرة واحدة.



«المرحومة الآنسة نور الهدى عبد الله»

ومن العجيب أن هذا الفصل الذى كنت أنا إحدى طالباته نجح كله فى دبلوم معلمات السنية واشتغل كله أيضاً بالتعليم ما عدا السيدة عائشة صبحى كما قدمت، وفى الصفحة التالية صورة تاريخية لجميع طالبات قسم المعلمات بالمدرسة السنية

ومعهن ثلاث معلمات إنجليزيات إحداهن مس كارتر وهى الآن كبيرة مفتشات اللغة الإنجليزية بوزارة المعارف وقد خدمت تعليم البنات فى مصر ٣٨ سنة. خدمته بإخلاص ونشاط قلما يوجدان فى غيرها. فتقدم طريقة التعليم باللغة الإنجليزية يعود إلى جهودها الجبارة وإخلاصها النادر ومس كارتر تكاد تتوقد ذكاء وعبقرية، وهى كتلة نشاط إلى الآن لم تكل قواها ولم تتضعضع عزيمتها بل هى الآن بنفسها مس كارتر الشابة التى كانت تدهش طالباتها باجتهادها ونشاطها النادرين.

هذا هو مجمل بسيط لنهضة تعليم البنات فى مصر. ولست أتغالى إذا قلت إن قسم المعلمات فى المدرسة السنية فى ذلك الحين كان أقوى بكثير فى اللغة الإنجليزية على الخصوص من الحاصلين على شهادة كلية الآداب أو المعلمين العليا الآن، وكان ذلك يرجع لنشاط مس كارتر ودقتها فى العمل. لقد خرجت المرحومة فاطمة عمر من المدرسة السنية فى سنة ١٩٠٤ دون أن تتم دراستها لأسباب ربما شرحتها فيما بعد، وقد تركت التعليم وتزوجت ورزقت أطفالاً انشغلت بحبهم انشغالاً عجيباً مدهشاً وكان المظنون بعد هذا كله أن تنسى كل شىء عن التعليم، ولكنها كانت مع هذا تتكلم باللغة الإنجليزية كإحدى بناتها وتكتب باللغة العربية بأسلوب أدق وأرقى من أسلوب النابهين من طلبة التخصص فى اللغة العربية بالأزهر الشريف أو طلبة دار العلوم العليا، وكذلك السيدة عائشة صبحى أو حضرة صاحبة العصمة حرم إسماعيل باشا رمزى فهى تجيد اللغتين الإنجليزية والعربية إجادة يدهش لها من سمعها تتكلم اللغة الإنجليزية أو قرأ ما تكتبه باللغة العربية هذا مع عنايتها التامة بأبنائها ومنزلها.

ومن لطائف ما أتذكره أن المعلمات الإنجليزيات كن يخالطننا مخالطة الند للند، ويلعبن معنا وكنا مع احترامنا وحبنا لهن نترجم أسماءهن على سبيل الفكاهة والتسلية، وكان لأغلبهن أسماء لها معناها، فكنا نقول عن مس كارتر مثلاً الست عربجى، وعن مس هانى برن مدموزيل عسل محروق، ومس ليتش الآنسة دودة، ومس بورد السيدة لوح، وكان سرورنا بمخالطة المعلمات الإنجليزيات عظيماً خصوصاً عندما كنا نمزح معهن فلا يغضبهن ذلك المزاح، فكنا ننادى مس بورد عن بعد يا سيدة لوح وكانت تعرف أن هذا اسمها فتضحك ونضحك. ومن هذه المخالطة اكتسبنا قوة فى اللغة الإنجليزية

يندر أن توجد فى طلبة العصر الحالى، وكانت الوزارة هى التى تقوم بامتحانات النقل فى المدرسة السنية، ولهذا كانت كل معلمة تجتهد فى تقوية تلميذاتها فى المادة التى تدرسها خشية أن يظهر ضعفها فى التدريس أمام الوزارة فى آخر العام.



صورة طالبات قسم «معلمات السنية فى أكتوبر سنة ١٩٠٣»

الجالسات من اليمين إلى اليسار: مس كارتر، والسيدات توحيدة صبحى، نبوية موسى، الجرابلنتر، بهية حسونة، زينب بهجت. الصف الثانى من اليمين إلى اليسار: مس هانى برن، السيدات : المرحومة نور الهدى عبد الله، عائشة الشيمى، زينب فؤاد، فاطمة عمر، نور حسن، مس ليتش. الصف الثالث من اليمين إلى اليسار: السيدات: عائشة صبحى، آسيا عبد الفتاح، هانم صالح، أديل دياب.

وكانت الوزارة تعنى بامتحاننا عناية تامة فتمتحننا تحريرياً وشفوياً ويقوم بذلك الامتحان أكبر رجال الوزارة مقاماً وسناً.

وكان من مفتشى وزارة المعارف المستر بويد كاربنتر، فجاء ليمتحننا فى اللغة الإنجليزية شفوياً، وكنت قد سمعت باسمه فأخذ يناقشنى فى أفكار المصريين، فقال إنهم يهتمون بالتعليم ويهملون الصناعة، وأردت أن انتصر لبلدى فقلت إنهم على حق يا سيدى فإنه لا صناعة بلا تعليم والعلم هو الذى يرقى بالصناعات أما صناعة الجهلاء فلا قيمة لها. قال ولكن المصريين يحتقرون الصناعة وأربابها، قلت إنهم على حق ما دام أرباب الصناعة الآن جهلاء، ألست ترى يا سيدى أنه من العار أن تكون الفتاة ابنة

نجار مثلاً قلت ذلك وضغطت على كلمة نجار ومعناها باللغة الإنجليزية كاربنتر وهو اسم المفتش. ضغطت على الكلمة فى شىء من الدعابة وفهم المفتش أنى أريد التلميح باسمه فضحك وقال أشكرك، ثم أعطانى الدرجة النهائية.

وكان الشيخ شريف وهو من أكبر مفتشى اللغة العربية فى ذلك الوقت يمتحننا فى اللغة العربية شفوياً، وكان رجلاً شديداً فى امتحانه لا يكف عن الأسئلة إلا إذا عجزت الطالبة عن الإجابة ولما كان أول اسمى نوناً فقد كان يوضع فى آخر كشف الامتحانات وأخذ الأستاذ يناقش زميلاتى الواحدة بعد الأخرى ولا ينتهى من امتحان إحداهن إلا إذا عجزت وأجابته بجملة "لا أعرف" وجاء دورى فأخذ يناقشنى وأجيبه ويظهر أنه ضايقه هذا وأراد أن يحملنى على الاعتراف بعدم المعرفة وكان فى يده صحيفة المؤيد لصاحبها السيد على يوسف باشا وبها أربعة أبيات للمرحوم إسماعيل باشا صبرى، ولم أكن قرأت تلك الصحيفة وكانت الأبيات حديثة لم تدون فى كتب الأدب، ومع هذا فقد قرأها لى الأستاذ ثم سألنى عن قائلها وكانت أسئلته ببطء وبنغمة مخصوصة فقال ما نصه (أنت. تعرفى. مين. اللى. قال. هذه الأبيات) وعرفت غرضه فتحاملت عليه وأجبته بنفس نغمته وترتيبه فقلت (أنا. مش. ضرورى. أعرف مين. اللى. قال. هذه الأبيات).

وما كاد الأستاذ يسمع هذا التهكم حتى رفع رأسه وشعر بخطئه فى السؤال فنظر إلىّ وقال متشكر ثم وضع لى الدرجة النهائية.

وعلى ذكر هذا الامتحان أقول إننا كنا فى الشهادة الابتدائية نحسن التخاطب باللغة الإنجليزية أكثر من طلبة البكالوريا الآن، وأذكر أنه فى امتحان الابتدائية كان يمتحننى فى اللغة الإنجليزية رجل وسيدة، فقال لى الرجل ما اسم السيدة التى تخيط ملابسك ولم أتذكر كلمة خياطة فى ذلك الوقت، وأردت أن أشغله بإجابة أخرى حتى أتذكر الكلمة، فقلت له إنى أنا التى أخيط ملابسى قال وماذا نسميك إذن؟ قلت وهل تستطيع أن تسمينى إلا تلميذة سواء فى ذلك أخطت ملابسى أم لم أخطها، قال افرضى أنك ترسلين ملابسك لسيدة لخياطتها فما اسمها؟ قلت إن هذا الفرض يحتاج إلى المال الذى ليس معى شىء منه ولهذا لا أستيطع أن أفرضه واغتاظت السيدة من

تلاعبى هذا وقالت لى بحدة إنها هى ترسل ملابسها إلى سيدة لخياطتها فما اسم هذه السيدة؟ وهنا تذكرت الكلمة فضحكت ضحكة الظافر وقلتها لها، على أن كلام السيدة كان فيه ما ذكرنى بالكلمة المطلوبة، وأراد الرجل أن يداعبنى أو يضايقنى بعض الشيء فقال أتحسنين الغناء؟ قلت كلا. قال هل تعرفين الرقص؟ قلت لا. قال فهل تلعبين على البيانو؟ وساءنى أن تكون إجابتى كلها بالنفى وهى كلمة لا تدل على مقدرة الطالبة فى اللغة الإنجليزية، فقلت له لا تسألنى هذه الأسئلة فإنى لم أخلق لمثل هذه الحياة، قال فبماذا تتسلين إذن؟ قلت أحل بعض المسائل الحسابية، فضحك الرجل وقال مخلوق عجيب! وفى اليوم التالى كان امتحان الحساب وكان فيه مسألة عقلية صعبة لم تحلها تلميذة واحدة فى اللجنة فجاءنى المفتش وكان مراقباً فى الحساب، وطلب منى أن أريه نتيجة تلك المسألة، فلما رآها قال صدقت فيما قلته أمس من حبك للحساب.



«المرحومة السيدة فاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمى»

نزق الشباب

كان بقسم المعلمات كما قدمت ١٤ طالبة، ولم يكن فى مصر قاطبة من نال الشهادة الابتدائية إلا هؤلاء الطالبات الأربع عشرة، وكانت الضابطات اللائى يقمن بمباشرة نظام المدرسة لم ينلن شهادات، فكانت الطالبات يتكبرن عليهن لأنهن يعتقدن أنهن أعلم من ضابطاتهن وأن بأيديهن برهاناً قاطعاً على صدق هذا الرأى ألا وهو الشهادة الابتدائية التى لم ينلها أحد غيرهن.

وحدث أن عاقبت إحدى الضابطات طالبة من هؤلاء الفطاحل فقام قسم المعلمات لذلك وقعد وأرغى وأزبد وشمخ بأنفه واستكبر وقر رأى الطالبات جميعهن على الاحتجاج على ذلك العمل الذى لا يليق بكرامة فتاة نالت الشهادة الابتدائية وكانت السيدة آسيا عبد الفتاح أو صاحبة العصمة حرم محمد بك حمدى مرتضى أولى السنة الثالثة أى أولى قسم المعلمات فكتبت احتجاجاً وطلبت من جميع الطالبات إمضاءه والذهاب معها إلى الناظرة لتقديم ذلك الاحتجاج، وكنت أنا فى السنة الأولى من قسم المعلمات ولكنى سخرت من ذلك العمل ورفضت أن أنضم إليهن فى مثل هذا الاحتجاج السخيف، وقلت إنه لابد للمدرسة من ضابطات يحافظن على النظام، ومادام ليس فى مصر من يحمل الابتدائية فلابد من وجود ضابطات لا يحملنها ولابد من وجوب احترامهن ليستطعن القيام بعملهن، وعارضتنى الطالبات فى آرائى هذه، وقلن إنهن لا يحتجن إلى من يشرف على نظامهن لأنهن حاصلات على الشهادة ولأن المشرفات جاهلات، وصممت على رأيى وأخيراً ذهبت الطالبات إلى السيدة ملكة حفنى وشكون إليها عصيانى وعدم تضامنى معهن فى احتجاجهن، فطلبت منى أن لا أخالف الإجماع وأن أنزل على رأى الأكثرية من زميلاتى، فقلت لها إنى أقبل ذلك على شرط أن يتعهد هؤلاء الزميلات بالوقوف فى وجه الناظرة إن هى غضبت من ذلك الاحتجاج، وعاقبتنا جميعاً فقبلت هذا الشرط وتعهدت الطالبات بأنهن يتركن المدرسة إن أوقعت الناظرة

بهن عقاباً لهذا الاحتجاج.

وهكذا ذهبنا جميعاً نقدم الاحتجاج إلى حضرة الناظرة وكان اسمها مس جون ستون أو (حنا حجر) كما كنا نترجمه، وما كاد يقع نظرها علينا حتى غضبت وأمرتنا بالانصراف فانصرفنا واستدعت الأولى وهى السيدة آسيا عبد الفتاح وأخبرتها أننا جميعاً معاقبات، وأنه يجب علينا أن نلزم حجرة النوم من الساعة الرابعة بعد الظهر وأن تكتب كل منا الجملة الآتية، وتعلقها على سريرها وهى (يجب على الطالبات إطاعة الضابطات) وجاءتنا السيدة آسيا بالورق والدواة، تطلب منا الكتابة وتبلغنا العقاب وثارت ثائرتى ورفضت أن أكتب وطلبت من السيدة ملكة حفنى أن تبر بوعدها لى، فأرغمت الطالبات على مخالفة ذلك الأمر والذهاب إلى الناظرة للاحتجاج عليه، وارتدت كل منا ملابسها وذهبنا إلى الناظرة لنخبرها بأننا لا نستطيع تنفيذ هذا العقاب وأننا مصممات على ترك المدرسة إذا هى صممت على عقابها هذا.

دخلنا مكتب الناظرة فاستقبلتنا بشدتها، وسألتنا ماذا نريد؟ فلم يستطع أحد أن يجيبها وكررت السؤال مراراً وقابلنا ذلك السؤال بالصمت مراراً أيضاً، وخشيت أنا أن تأمرنا بالخروج وتضاعف لنا العقاب، فقلت لها لقد جئنا نخبرك أننا لا نستحق هذا العقاب لأننا لم نفعل شيئاً، وإن كنا قد احتججنا على عقاب زميلة لنا فما كان يستوجب ذلك عقابنا بل كان عليك أن تشرحى لنا أننا مخطئات، وأن للضابطات حق عقاب تلك الزميلة، ولو أنك فعلت هذا لخرجنا من عندك راضيات، أما الآن فنحن لا نقبل البقاء فى مدرسة نعاقب فيها بلا ذنب ولا جريرة، وساء الناظرة أن أتكلم أنا مع أنى من السنة الأولى وما كان لمثلى أن يتكلم ومعه طالبات السنة الثالثة اللائى هن أحق منى بالكلام، ولهذا ظنت أنى أنا التى دفعت الطالبات إلى هذا الاحتجاج، وأرادت أن تنهى المسألة فقالت وإذا عفوت عنكن فهل تعدننى أنكن لا تعدن إلى مثل هذا الطيش؟ قلت لك ذلك، قالت لا بأس فاذهبن إلى شأنكن.

تحملت الناظرة منى منذ ذلك اليوم، وأرادت أن تنتقم منى منفردة، وبعد ذلك الحادث بأسبوع مرضت معلمة الجغرافية، فحلت محلها الناظرة فى إعطائنا حصة الجغرافية فدخلت الفصل وأمرتنا بإخراج الأطالس وكتب الجغرافية، وكنت أنا آخر من

أخرجت كتابها فقالت لى بلهجة التأنيب أبشرك بأنك سترسبين فى آخر العام. فقلت وأنا أؤكد لك أن هذه البشرى غير صحيحة ومحال أن أرسب وأنا أولى هذه الفرقة، قالت أتعارضينني فيما أقول؟ قلت ولم لا؟! وهل من المنطق أن أرسب أنا لا لسبب سوى أنى تأخرت ثانية أو ثانيتين فى إخراج كتابى؟ قالت أرجوك أن تتركى الفصل الآن وتذهبى إلى عنبر نومك، وأن لا تعودى إلى الفصل إلا إذا اعتذرت إلىّ، فتركت الفصل غاضبة وذهبت إلى عنبر النوم وبقيت به يومين دون أن أعتذر إليها، وكنت أقضى كل وقتى فى المطالعة ويئست هى من اعتذارى وجاءتنى فى عنبر النوم متظاهرة أنها نسيت وجودى فيه، وأظهرت دهشتها عند رؤيتى ثم سلمت علىّ فقمت لها وسلمت عليها وجلست على السرير وأمرتنى بالجلوس إلى جانبها وقالت لِمَ لَمْ تعتذرى إلىّ الآن؟ قلت لم أفعل ما يوجب الاعتذار فإنى على يقين أنى لن أرسب، وهذا ما قلته لكِ فهل فى ذلك من بأس؟ وهل تمنع الفتاة من أن تقول ما تعتقد مادام ليس فيه ما يضر بغيرها؟ قالت لقد صدقت وإنى أعتبر ذلك منك اعتذاراً فهيا إلى فصلك، وسرت معها وهى ممسكة بيدى إلى أن وصلنا إلى باب الفصل فدخلته.

وقد ترك هذا الحادث وسابقه فى نفسها أثراً عظيماً، وأرادت أن تنتقم منى، فكتبت إلى الوزارة تقريراً تقول فيه إن نبوية موسى متأخرة جداً خصوصاً فى اللغتين العربية والإنجليزية والحساب أما اللغة الإنجليزية فقد كنت متأخرة فيها ولكنى لا أدرى لم اختارت هاتين المادتين اللتين اشتهرت أنا بالتفوق فيهما ولعلها أرادت بذلك أن تترك فى نفس المفتشين أنى ضعيفة فى اللغتين فإذا خجلت أو تلعثمت فى إحداهما وقت الامتحان الشفوى كان ذلك باعثاً لهم إلى عدم إنجاحى فى الامتحان الشفوى.

وكان مكتب الناظرة فى الفناء وشاء الحظ أن أعثر على ورقة تطير فى الفناء بقرب باب الناظرة، وإذا بها مسودة ذلك التقرير، وقد دهشت عند قراءتها، وكاد اليأس يقضى علىّ لولا أنى اعتزمت المثابرة والجد، وضاعفت جهودى فى اللغة الإنجليزية لأكذّب ما ادعته فى تقريرها فاجتهدت فى ذلك العام اجتهاداً لم أقم به من قبل، وأجرت هى امتحان ثلاثة الشهور الأولى، فكنت الأولى وساءها ذلك فجاءت تؤنب الفصل جميعه، وتقول إن هذا الفصل أبلد فصل فى المدرسة، مع العلم أن فصل السنة

الأولى كما قدمت كان هو الفصل الوحيد الذى لم يرسب منه أحد إذ نجح فى امتحان الدبلوم من السنة الثالثة طالبتان من أربع، ومن السنة الثانية طالبتان من خمس أما من فصل السنة الأولى فقد تخرج منه أربع معلمات من خمس طالبات، أو بعبارة أخرى من أربع طالبات لأن الطالبة الخامسة وهى من المتقدمات لم ترسب، ولكنها تركت المدرسة ومع هذا فقد زعمت الناظرة أن فصل السنة الأولى هو أبلد الفصول الثلاثة بدليل أن الأولى فيه لم تتغير مع أن الأولى فى باقى الفصول تتغير من امتحان لآخر، وكانت تريد بذلك الكلام دفع زميلاتى إلى العمل حتى لا أكون أنا الأولى فى امتحان ثلاثة الشهور الثانية.

وفى امتحان ثلاثة الشهور الثانية أرادت أن تزحزحنى عن مكانى وعلمت أنها لا تستطيع شيئاً فى تغيير الدرجات التحريرية، فعمدت إلى الامتحان العملى للتربية أى فن التعليم فحضرته بنفسها ووضعت هى الدرجات فأعطتنى ٤٠ درجة من ١٠٠، وأعطت لكل من زميلاتى فوق التسعين، وبهذا اعتقدت أن هذا الفرق العظيم فى درجات التربية العملية سينزل بى عن مكانتى ودفعنى اضطهادها هذا إلى مضاعفة جهودى فى الامتحان التحريرى، وظهرت النتيجة وجاءت لتقرأها علينا وقبل أن تبتدئ فى القراءة قالت إنى آسفة أشد الأسف، فكملت لها جملتها بسرعة قائلة (لأن نبوية موسى لا تزال الأولى)، فنظرت إلىّ وقالت نعم هو ذلك ما آسف له وما أوبخ زميلاتك عليه لأنهن لو اجتهدن لما استطعت أنت المحافظة على مكانتك فى كل امتحان.

دخلنا امتحان النقل بعد هذا وقد قام به المفتشون، وكنت أولى فرقتى، وأرسلت الوزارة تقريراً إلى المدرسة تقول فيه لقد برهنت الطالبة نبوية موسى على أنها أولى قسم المعلمات جميعه فى أغلب المواد خصوصاً فى اللغتين العربية والإنجليزية والحساب وكان هذا رداً خالصاً على تقرير الناظرة.

عزة النفس
.(تنقلب جبناً).

ذكرت فى ذكرياتى السابقة كيف كانت مظاهرة الطالبات ضد الضابطة التى عاقبت إحداهن سبباً فى خلق عداء بينى وبين الناظرة لم يكن لى ذنب فيه، وكأن هذا الدرس لم يفدنى كثيراً فلم ألبث أن وقعت فى خطأ غيره.

اعتاد معلم اللغة العربية أن يتركنا واقفات عند بدء حصته فلا يأمرنا بالجلوس إلا بعد خمس دقائق أو ست، وفى أثناء ذلك يكون هو مشغولاً بالكتابة فى كراسة تحضيره ويظهر لى أن الرجل لم يكن يعد درسه فى كراسة التحضير قبل دخوله الفصل، فهو يتركنا واقفات إلى أن ينتهى من إعداد درسه حتى إذا دخلت الناظرة عليه لا تلاحظ أننا جالسات بينما يكتب هو مذكرة الدرس أمامنا.

ساء ذلك زميلاتى لأنهن اعتبرنه إهانة لا مبرر لها خصوصاً لطالبات حصلن على الشهادة الابتدائية فى الوقت الذى كانت فيه تلك الشهادة فى نظر الناس أعلى من الدبلومات.

ساءهن ذلك، وشكون إلىّ أمرهن وطلبن منى أن أكلم المعلم فى ذلك لأنهن لا يستطعن أن يعاتبنه خشية أن يثور عليهن. أما أنا فلى عنده مكانة خاصة أستطيع معها عتابه. هذا ما قالته زميلاتى، وإن كنت أنا شخصياً لم أقرهن عليه، كما أنى لم أكن متألمة من وقوفى ٥ دقائق ولكنهن ألحفن علىّ فى الطلب فقبلت منهن ذلك، وقلت لهن سآمركن بالجلوس عند دخوله. فأطعننى وإذا أمركن بالوقوف فإياكن أن تفعلن ذلك.

دخلنا الفصل على هذا الاتفاق، ودخل المعلم فقمنا له، ثم جلس ليكتب فى كراسة تحضيره حسب عادته فأمرت أنا زميلاتى بالجلوس بصوت مسموع وجلست معهن، وتنبه هو لذلك فغضب وأمرنا فى حدة بالوقوف، فوقفت الطالبات وبقيت أنا جالسة، فأمرهن بالجلوس وأمرنى بالوقوف، فلم أقف. وقلت إنى لم أفعل ما يستحق العقاب

وإن الطالبات لم يكن معاقبات وليس للمعلم أن يعاقب الطالبات بلا ذنب ولا جريرة، ولهذا اعتبرت أن مجرد انشغاله بالكتابة هو الذى منعه من أن يأمرهن بالجلوس وبما أنى أولى هذه الفرقة فقد رأيت من واجبى أن آمر التلميذات بالجلوس بالنيابة عنه فلا داعى إذن للغضب مما فعلت. ولهذا لا أرى معنى لعقابى بالوقوف.

غضب المعلم لذلك، ولكنه كظم غيظه وسكت وتجنبنى بعد ذلك فلم يكلمنى إطلاقاً ولم يسألنى ولم يكن ذلك مما يغضبنى بل كنت أسر من أن أستمع إلى المعلم وهو يناقش الطالبات دون أن أدخل أنا فى ذلك النقاش.

لهذا مضى علىّ بعض الوقت دون أن يكلمنى ودون أن أتألم من ذلك الحرمان، وكانت زميلتى عائشة صبحى تجلس إلى جانبى وكانت مؤدبة خجولة على جانب عظيم من الآداب الشرقية، شديدة الحياء مع ذكائها وتوقد قريحتها، فكان إذا سألها نظر إليها فتخجلها نظراته إلى حد يجعلها ترتبك فتردد الكلمة (يا أختى) فى شىء من الحيرة والتردد، وزاد ذلك منها مرة إلى حد ضايقنى فقلت لها ما هذا؟ هل تريدين أن نحفظ منك هذه الكلمة؟ أرجوك إذا كنت تعرفين الجواب أن تدلى به وإلا فاجلسى.

وهنا قال المعلم لعائشة: - أرأيت أنك لم تعجبى نبوية؟ وساءنى ذلك منه فقلت له كلا إنى راضية عنها كل الرضاء، وأنت الذى لا تعجبنى لا هى، وساءه ذلك، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً، واشتد الجفاء بينى وبينه وسأل زميلتى فى يوم آخر عن وزن الفعل آثر وارتبكت كعادتها فهمست إليها قائلة إنه على وزن أفعل، وقالت هى الكلمة بعدى فقال لها المعلم فى شىء من الغضب لقد كذبت أنت ومن قالت لك هذا. فقلت له وهل إذا كان ما قلته خطأ يعد ذلك كذباً أم مجرد خطأ؟ قال إن الكذب أن يقول الإنسان ما ليس بصحيح فهو كذب قلت كلا إن الكذب أن يقول الإنسان شيئاً غير صحيح وهو يعلم عدم صحته أما إذا كان لا يعلم ذلك فهو مخطئ، وأصر المعلم على رأيه فقلت له وهل إذا اتضح أن هذا الفعل ليس على وزن فاعل كما تعتقد حضرتك يكون ذلك كذباً من جانبك؟ قال نعم قلت إذن هو ليس على وزن فاعل بدليل أن مضارعه يؤثر، وقد جاء فى القرآن (وتؤثرون الحياة الدنيا) ولو أن ذلك الفعل على وزن فاعل لكان مضارعه يؤاثر فخجل المعلم ولم يستطع جواباً.

وتصادف أن زارنا فى تلك المدة الشيخ حمزة فتح الله، وقرأ موضوعاً انشائياً لإحدى زميلاتى فوجد فيه كلمة (كون) بدلاً من كان، فأخذ يعنف الزميلة ويسألها من أين أتت بذلك الفعل (كون)، وأخيراً تدخلت فى الموضوع أنا، وقلت له جاءت به من كلام معلمنا، فهو لا يزال طول الوقت يقول لنا إن (كان) أصلها (كون) ولا بأس أن تذكر هى الأصل وتترك الفرع مادام المعلم لم يعلمنا شيئاً غير هذا. فضحك الشيخ حمزة فتح الله وخجل المعلم ورأى أن خصامه لى لا ينجم عنه إلا تلك المواقف الحرجة التى يقفها من وقت إلى آخر، فأراد أن يصالحنى وكان بالمدرسة معلم آخر هو الشيخ أحمد إبراهيم بك، وكيل مدرسة الحقوق الآن وكنت أحترمه لفضله ووقاره فطلب منه أن يصالحنى ففعل وانتهت تلك المشكلة التى أوقعنى فيها غدر زميلاتى وخروجهن عن العهود التى اتفقن عليها معى، ومن بعد هذه الحادثة لم أتفق معهن على شىء مهما طلبن منى ذلك.

وعلى ذكر الشيخ أحمد إبراهيم بك أقول إنى كنت أحترمه احتراماً يدفعنى إلى طاعته مهما كانت الظروف، وقد درَّس لنا اللغة العربية فى السنتين الثانية والثالثة فتصادف يوماً أن أعطانا موضوعاً إنشائياً على فوائد الصوم، وقال لنا إن من فوائده تحسين الصحة، فعارضته أنا فى ذلك وقلت إنى أومن بكل فوائده الأدبية والدينية أما أن نصوم لتصح أجسامنا فهو ما لا أستطيع أن أومن به لأن الغربيين وهم قوم مسيحيون لا يصومون رمضان ومع ذلك فهم أصح أجساماً منا ولو أن الصيام كان للصحة لجاز لنا أن نمتنع عن الطعام فى أوقات معقولة أى نأكل فى الصباح ثم فى المساء أما أن نمتنع عن الأكل النهار كله مهما طال ولا نأكل إلا فى الليل فأمر لا أظنه يفيد الصحة فى شىء. وأصر الأستاذ على رأيه، وأصررت أنا على رأيى، وضايقه ذلك منى لأمرين: أولهما أنه كان رجلاً فاضلاً يريد أن يغرس فى نفوس طالباته أصول الدين وفضائله، وثانيهما: أن المدرسة كانت لا تسمح لنا بتلقى الدرس على أستاذ إلا بحضور مشرفة وكانت تلك المشرفة أجنبية. وظن الأستاذ أنها تفهم اللغة العربية فساءه أن تسمع منى أن المسيحيين أصح منا أجساماً وأن صيام رمضان قد يؤثر فى صحتنا، فغضب وقال لى الكلمة يقولها أجنبى تزعزع عقيدتك فى دينك؟ ورأيت أن الرجل على

حق فى شدة ميله إلى تهذيب طالباته، فلم يغضبنى غضبه بل اجتهدت فى إرضائه، وإن كنت لم أغير رأيئ فيما ذهبت إليه من عدم فائدة الصوم الصحية، وأخيراً اصطلحنا وأظنه لا يزال يذكر تلك الحادثة إلى الآن على أن الأمر الذى أغضبه وهو تخيله أن تلك المشرفة كانت تفهم ما نقول كان غير صحيح، لأنها كانت سيدة يونانية لا تعرف كلمة واحدة من اللغة العربية، وكان جلوسها معنا لا قيمة له من الوجهة الأدبية الصحيحة إذ كان يستطيع المعلم أن يقول لنا ما يشاء وأن نجيبه نحن بما نشاء دون أن تفهم تلك المشرفة شيئاً مما نقول، فوجودها كان كالعدم خصوصاً وأنها كانت تتسلى أثناء وجودها معنا بالتطريز فكانت تنهمك فيه انهماكاً يمنعها أن ترى شيئاً مما نفعل فكانت تلك المشرفة تجلس معنا كحجر أصم لا تسمع ولا ترى، وكان جلوسها لا فائدة منه إلا أنه كان يغضب ذلك الأستاذ الفاضل ويؤلمه أشد الإيلام، لأنه كان يعتبر ذلك عدم ثقة به وقد كان وهو الحريص على الأخلاق والآداب فى كل حركاته وسكناته وفى كل كلمة تخرج من فمه مثال النزاهة والكمال فى كل شىء ولم يكن بالطبع يحتاج إلى إشراف أحد عليه.

الغش فى الامتحانات

كنت أكره الغش فى الامتحانات، فلم أحاوله، ولم أساعد طالبة أخرى عليه مهما كانت الظروف، وكانت الامتحانات فى المدرسة السنية تعمل فى صالة متسعة جداً يجلس فيها طالبات قسم المعلمات وتلميذات القسم الابتدائى، فكانوا يرتبون تلميذة من قسم المعلمات، وعلى يمينها تلميذة من السنة الأولى الابتدائية، وعلى يسارها أخرى من السنة الثالثة الابتدائية، وأمامها إحدى تلميذات السنة الثانية الابتدائية مثلاً، وخلفها تلمذة من السنة الرابعة الابتدائية، وهكذا، فكانت طالبات قسم المعلمات يساعدن تلميذات القسم الابتدائى إذا هن طلبن المساعدة، أما أنا فلم أكن أساعد واحدة منهن إطلاقاً فكانت التلميذة التى يقضى عليها سوء الحظ بأن تجلس إلى جانبى تخرج أول يوم ساخطة متذمرة تشكو حالها لكل من يصادفها قائلة أمرى إلى الله فى هذا الامتحان فقد جلست إلى جانب أبلة نبوية.

كنت كما قدمت أكره الغش، وكنا نتلقى الحساب على معلمة إنجليزية لم تكن تشرح لنا المسائل بل كان يبدو لى أنها هى نفسها لا تفهمها، فكانت تكتب المسألة على السبورة ثم تطلب منا حلها فإذا عجزت الطالبات عن ذلك قامت هى بكتابة الحل على السبورة دون شرح أو مناقشة فتنقله الطالبات حرفاً بحرف دون أن يفهمن منه شيئاً. ومن الغريب أنها لم تكن تختار إلا المسائل العقلية الصعبة جداً وعلى ذلك لم تستفد الطالبات منها شيئاً فى ذلك العام.

واعتادت المعلمة أن تعطينا يوم السبت من كل أسبوع ١٠ مسائل فى كراسة خاصة تحوى حوالى ٩٦ صفحة لنحلها كواجب منزلى ثم تأخذ منا هذه الكراسة يوم الخميس وتردها إلينا مصححة يوم السبت وهكذا.

ولما كانت الطالبات لا يفهمن فى تلك المادة شيئاً وكنت أنا ميالة إلى ذلك النوع من المسائل فقد كن ينتظرن حتى أنتهى أنا من حلها ثم ينقلن ذلك الحل منى دون أن يعرفن

عنه شيئاً، وكنت فى العادة أنتهى من حل تلك المسائل فى مساء السبت نفسه لشدة ميلى إليها فكان لديهن من الوقت ما يكفى لنقلها على مهل.

كانت زميلتى السيدة عائشة صبحى قد تركت المدرسة السنية فى نهاية السنة الثانية ونقلنا إلى السنة الثالثة ولم تكن هى معى فضايقنى ذلك لأنى كنت أتنافس معها لذكائها واجتهادها، فلما خرجت لم أعد أجد فى بقية الزميلات من أهتم بمنافستها فشعرت بشىء من الملل والسآمة ونظرت إلى زميلاتى فى شىء من السخرية وأردت أن أنصحهن حتى يمتنعن عن نقل الحساب، فقلت لهن إنى مستعدة أن أشرح لهن تلك المسائل حتى يستطعن حلها فيستفدن بدلاً من أن ينقشنها دون فهم أو معرفة. ساء زميلاتى ذلك القول منى وشعرن بسخريتى بهن، فثرن علىّ وقلن إنهن لا ينقلن منى وإنى مغرورة بنفسى وهذا ما يدفعنى إلى اتهامهن بذلك، قلت حسناً فسأحل هذه المسائل وإنى أحذركن أن تمسها إحداكن وإلا فعلت بكن ما لا تحمد عقباه فقلن ستعلمين أننا لا ننقل منك شيئاً، وعليك إن ضبطت إحدانا متلبسة بجريمتها أن تفعلى بها ما تريدين.

أردت أن أوقعهن فى شرك لا يستطعن التخلص منه وأن أسجل عليهن الغش بطريقة عملية صحيحة فحللت المسائل بشكل غريب مدهش لا يتصوره عقل، إذ كنت أنظر فى المسألة دون أن أقرأها ثم أضرب أى عدد وقع نظرى عليه فى عدد آخر أى أضع بينهما علامة الضرب وأضع حاصل ضرب من خيالى وقد يكون أصغر من أحد العددين أو أقسم عدداً على الآخر فيكون خارج القسمة أكبر من المقسوم نفسه، وهكذا وضعت فى تلك الحلول من التخريف والسخف ما لا يقره عقل وبعد أن انتهيت من ذلك وضعت الكراسة فى قمطر كان معداً لذلك فى نهاية الفصل، وحذرت زميلاتى من أن يمسسن الكراس وتغافلت فى الأيام التالية وكنت أخرج من الفصل كثيراً وقت المذاكرة لأعطيهن فرصة الغش وما جاء يوم الأربعاء إلا وقد نقل جميعهن تلك الحلول الجنونية السخيفة، وفى مساء الأربعاء أخذت الكراسة وانتزعت منها الأوراق التى كتبت فيها تلك الحلول وحللت المسائل حلاً صحيحاً مقبولاً، وحرصت أن لا أترك الكراسة فى الفصل بعد هذا حتى اضطر من لم تكن نقلت فى الماضى أن تنقل من كراسة زميلة

أخرى سبقتها إلى ذلك النقل. وفى يوم الخميس سلمنا الكراسات إلى المعلمة.

دخلت المعلمة الفصل يوم السبت عابسة مضطربة لأنها غضبت من تلك الحلول التى لا يبررها عقل، وعجبت كيف تتفق عليها جميع الطالبات مع بعدها عن المعقول. دخلت عابسة ونظرت إلينا فى حدة وقد وقفنا لتحيتها فلم تحينا بل أشارت إلىّ بالجلوس وأمرت باقى الزميلات بالاستمرار فى الوقوف وأخذت تسألهن عن معنى هذا السخف الذى اتفقن عليه فى كراساتهن ودهشت الزميلات لجلوسى وتعجبن كيف لا تلومنى مثلهن وقد نقلن ذلك السخف الذى تسميه المعلمة من كراستى؟ فكان المنظر مضحكاً غريباً إذ تسألهن المعلمة فلا يجبنها بل ينظرن إلىّ ويقلن لى باللغة العربية ما معنى هذا وقد نقلنا ذلك الحل من كراستك أنت؟ قلت كيف ذلك وقد ادعيتن أنكن لا تنقلن منى؟ زاد غضب المعلمة وعجبت كيف لا يجيبها أحد وكيف ينصرفن عنها إلىّ؟ وكلما سألتهن كلمننى باللغة العربية. كانت هى فى واد والطالبات فى واد آخر فلم ينظرن إليها، ولم يعبأن بغضبها بل كان كل اهتمامهن أن يطلبن منى شرح ذلك اللغز، وأخيراً سألتنى المعلمة عن السبب فى التفاتهن إلىّ وتكلمهن معى، فشرحت لها القصة فعاقبت جميع الزميلات، ولعل القارئ يظن أن كلمة جميع هذه تدل حقيقة على جمع مع أنها لا تفيد إلا ثلاث طالبات لأنه لم يكن بفصلنا إلا أربعة طالبات فقط وأنا رابعتهن (ليس ذلك من سورة الكهف).

كانت معلمة الحساب تعلمنا دروس التربية العلمية والعملية، كان علينا فى ذلك اليوم أن نلقى دروساً فى الحساب على طالبات القسم الابتدائى، وكانت هى تنتقدنا فى إلقاء تلك الدروس كلما تمت دروسنا وجئنا لنسمع الانتقاد قالت من الغريب أن أخلاق المعلمة تؤثر دائماً على طالباتها، وقد مررت عليكن أثناء الدرس اليوم فوجدت أن كل التلميذات يغششن فى الحساب إلا تلميذات نبوية وهى الطالبة الوحيدة التى لم تغش وهكذا تأثرت تلميذاتها بها.

دروس التربية العملية

كنا نتعلم التربية العلمية والعملية على معلمة إنجليزية فكانت تشرف حتى على دروسنا باللغة العربية، وكنا نحضّر تلك الدروس باللغة الإنجليزية نفسها، فكنا إذا أردنا أن نلقى درساً على "كان وأخواتها" مثلاً كتبنا Can & sisters هكذا كنا نترجم الاصطلاحات اللغوية ترجمة حرفية مضحكة، وكانت المعلمة فى الغالب لا تقدّر الدرس إلا بما تراه من نشاط التلميذات وطاعتهن لأوامرنا. ولهذا كانت زميلاتى إذا أردن إلقاء درس فى فصل من الفصول أطلعن تلميذات ذلك الفصل على الدرس المراد القاؤه واتفقن معهن على كيفية الإجابة ورجونهن أن يتظاهرن فى مبدأ الدرس بعدم الفهم حتى إذا شرحته لهن المعلمة تظاهرن بفهمه.

أما أنا فقد كنت أعد ذلك الاتفاق غشاً وتدليساً لا يجوز لطالبة تتدرب على طرق التعليم أى تعد نفسها أن تكون معلمة أن تأتيه، ولهذا لم أكن أطلع تلميذات المدرسة الابتدائية على أى درس أريد القاءه عليهن.

وقد أغضبت تلك الخطة تلميذات المدرسة الابتدائية خصوصاً السنة الرابعة وقد كان الفرق بيننا وبينهن فى العمر لا يتجاوز السنتين أو الثلاث على الأكثر فكن يعتبرن خروجى عن المألوف مع زميلاتى تكبراً عليهن فيقابلنه بكل عناد وعداء. ومع هذا فقد كنت أستطيع حفظ النظام فى التدريس أكثر مما تستطيعه زميلاتى.

كان الضرب ممنوعاً ولهذا كنت إذا تغيظت من تلميذة فى فصلى أضغط على ذراعها ضغطاً يؤلمها، وبينما كنت واقفة فى طابور الساعة العاشرة وكان علىّ فى ذلك الوقت أن ألقى درس حساب على السنة الثالثة الابتدائية......

بينما كنت واقفة فى ذلك الطابور وإذا بى أسمع ضجة فى طابور السنة الثالثة الابتدائية وأراهن يطلبن دبابيس صغيرة من زميلاتهن فى الفصول الأخرى فكانت الواحدة منهن تقول لغيرها أعطنى دبوساً صغيراً أرده إليك بعد درس أبلتى نبوية موسى.

ولفتنى هذا إلى أن هناك مؤامرة بين تلميذات السنة الثالثة تدبر لدرسى، فوجهت عنايتى لأقف على مدى تلك المؤامرة، وأخيراً عرفت أن التلميذات يضعن فى أكمام ملابسهن فوق العضد تلك الدبابيس حتى إذا ضغطت على ذراع إحداهن بيدى فى الدرس دخلت الدبابيس فيها، وتعجبت من ذلك السخف لأن الدبابيس فى تلك الحالة قد تدخل فى العضد لا فى يدى أنا، وعرفت التلميذات اللائى فعلن ذلك بالذات وكن لا يتجاوزن الخمس فلما دخلت الدرس ناديتهن وعرفتهن خطأ ما ذهبن إليه وكيف أن تلك الدبابيس قد تفتك بعضلات عضدهن أكثر مما تفتك بعضلات كفى وهددتهن بالعقاب إذا هن عدن إلى مثل هذا العمل الطائش، فخجلن ونزعن الدبابيس من ملابسهن.

وجاء امتحان آخر السنة وكنت قد اخترت درساً فى اللغة العربية للسنة الرابعة وأرادت التلميذات أن ينتقمن منى فتوصلن إلى سرقة مذكرة درسى بمساعدة إحدى زميلاتى، وكنت قد أعددت الدرس إعداداً طيباً باللغة العربية، فأعددت بعض الأسئلة التى كنت أظن أن تجيب بها التلميذات، ولما دخلت الدرس أمام المفتش الممتحن وكان المرحوم الشيخ شريف كانت التلميذات تجيبنى على أسئلتى بنفس الإجابات المكتوبة فى مذكرة التحضير وعلى حسب ترتيبها فى تلك المذكرة.

وساءنى ذلك لأنه يدل فى ظاهره على أنى أطلعت التلميذات على درسى قبل إلقائه فخجلت وتوقفت عن التدريس برهة فقال لى الشيخ شريف ما الذى يمنعك عن إلقاء الدرس وأنت كما نعلم قوية فى اللغة العربية؟ قلت يلوح لى أن التلميذات يعرفن درسى من قبل قال لا غرابة فى ذلك فنحن فى آخر العام وقد ذاكرت التلميذات جميع الدروس استعداداً للامتحان. قلت ولكنهن يعرفن الأجوبة التى حضرتها فى مذكرة درسى بالذات، قال وهل يضيرك ذلك؟ قلت نعم لأنه يظهر لى أنهن أطلعن على تلك المذكرة بحيلة شيطانية، قال لا بأس فاستمرى فى درسك وأتممت الدرس وأنا فى أشد ما يكون من الألم.

أردت السنة التالية أن أحتاط فلا يعلم بدرسى أحد فأخفيت مذكرة الدرس الذى كنت مكلفة إلقاءه فى امتحان النقل وكان درساً على الفرق بين الحجم والوزن فى السنة الرابعة، وهو درس يحتاج إلى حسن إلقاء وحسن استنتاج وقد علمت أن التلميذات

سيتعنتن معى ويتظاهرن بعدم الفهم مهما شرحت أو يكابرن فيما أريد شرحه وقد حصل ما توقعته، فكلما عرضت شيئاً على الفصل لاستنتج منه أن الحجم يمكن معرفته بالنظر، أما الوزن فلابد من حمل الشيء حتى يستطيع الإنسان معرفة وزنه كن يكابرن ويقلن إنهن يعرفن وزن الشيء بالعين، فإذا عرضت عليهن قطعة من الخشب كبيرة الحجم وأخرى من الحديد تصغر عنها كثيراً وسألتهن عن أيهما أثقل من الأخرى أجبننى أن قطعة الحديد أثقل، وإذا أردت أن أستنتج منهن أنهن عرفن ذلك الثقل أو الوزن لأنهن سبق أن حملن الحديد والخشب وعرفن وزن كل منهما أنكرن ذلك علىّ وقلن إنهن يعرفن وزن الأشياء بمجرد النظر، وهذا ما كنت قد توقعته من قبل، وأخيراً أخرجت لهن بيضتين إحداهما تكبر عن الأخرى قليلاً ولكن العين تستطيع معرفة حجم الكبيرة منهما وسألتهن أى البيضتين أثقل وزناً من الأخرى وظنت التلميذات أنى ظننت أنهن لا يفرقن بين حجم البيضتين فأشرن إلى البيضة التى كانت فى يمينى وقلن إنها أثقل من الأخرى قلت لهن أنتم تعلمن ذلك لأن حجم البيضة التى فى يمينى أكبر من حجم الأخرى التى فى يسارى فأنكرن علىّ ذلك وقلن إن عيونهن تعرف الوزن وبعد أن أكدت عليهن فى أن يقلن صراحة أى البيضتين أثقل وأجمع رأيهن على أ البيضة التى فى اليمين أثقل من البيضة التى فى اليسار وضعت البيضتين فى كفتى ميزان وهنا دهش الجميع حتى المفتش لأن البيضة الكبيرة ارتفعت وهبطت البيضة الصغيرة مما يدل على أنها أثقل منها. واضطرت التلميذات فى تلك الحالة أن تعترفن أن النظر لا يمكن أن يعرف الوزن وأمرت إحداهن بحمل البيضتين وهنا عرفت الخفيفة من الثقيلة بمجرد اليد واتضح للجميع أنى قد أفرغت ما فى قلب البيضة الكبيرة بثقب صغير لم يره أحد. وهكذا استطعت أن آخذ درجة حسنة فى إلقاء ذلك الدرس بالرغم من عناد التلميذات ومكابرتهن. ومن ذلك اليوم استطعت أن أحفظ النظام وأخضع تلميذات السنة الرابعة دون أن أتفق معهن على درسى من قبل إلقائه كما كانت تفعل ذلك زميلاتى.

حبى الشديد للحرية

كنت أحب الحرية والاستقلال فى العمل إلى حد جعلنى أكره أن أقوم بالرياضة البدنية لأنى كنت مضطرة فيها أن أخضع لما يلقى علىّ من الأوامر دون فكر أو مناقشة، ولهذا كنت أسخر من تلك الأوامر ولا انتظم فى اللعب مع باقى زميلاتى، فكنت آتى من الأعمال والأقوال ما يضحك جميع الزميلات، فيضطرب النظام، وتضطر معلمة الرياضة البدنية إلى إخراجى من اللعب وهذا كل ما كنت أتطلبه. وبتلك الحيل استطعت أن أفلت من تلقى دروس الرياضة البدنية حتى إذا اضطرتنى المعلمة يوماً إلى اللعب أجبرتها على إخراجى بشتى الوسائل فإذا قالت الذراع اليمين رفع رفعت يسارى وأنا أقول ليس فى المسألة تكليف ومادام الغرض هو تحريك الأعضاء فلا فرق عندى بين اليمين واليسار، وإذا قالت مسير على أطراف الأصابع قلت كلا لابد من البرطشة وهكذا من الأعمال والألفاظ التى كانت تضحك جميع الطالبات فتضطر المعلمة إلى إخراجى من بينهن.

وكانت المدرسة السنية تصرف لنا الملابس والأحذية ولما كانت قدمى صغيرتين بحيث لا تزيد عن قدمى طفلة فىَ العاشرة من عمرها فلم أكن أجد من الأحذية ما يلائمها، فكنت آخذ حذاء واسعاً لا أستطيع معه المشى على أطراف أصابعى فى الرياضة البدنية، وهو ما كنت أريده، وقد علمت الناظرة بمناوراتى فى دروس الرياضة وتهكمى عليها فحضرت بنفسها درس الرياضة البدنية لترغمنى على اتباع الأوامر ولما رفضت السير على أطراف أصابعى طلبت منى أن أطيع الأوامر، فقلت لها إن حذائى لا يمكننى من ذلك لكبر حجمه، قالت لابد من الطاعة، قلت إذن أنا لست بمسئولة عن نتائج تلك الطاعة ورفعت إحدى قدمى وضربت فردة حذاء بالأخرى فطارت فردة الحذاء من رجلى حتى سقطت على صدر الناظرة تقريباً، وكانت لا تزال مزررة وغضبت الناظرة ولكنها لما شاهدت فردة الحذاء مزررة وإنها مع ذلك خرجت من قدمى علمت أنى كنت على حق فى

عدم إمكانى السير على أطراف أصابعى لسعة ذلك الحذاء، واضطرت الناظرة عندئذ أن تبرح المكان دون أن تقول لى شيئاً ولكنها فكرت بعد ذلك فى الانتقام منى فطلبت أن أقوم أمامها بإعطاء درس الرياضة البدنية لزميلاتى، ولما كنت لا أحضر دروس الرياضة البدنية فقد كان من المستحيل أن أقوم بإعطاء ذلك الدرس ولهذا وقفت متحيرة، وما كاد يقع نظر زميلاتى علىّ وأنا أحتل محل معلمة الرياضة البدنية حتى أرسلن ضحكاتهن العالية من كل جهة بينما وقفت أنا صامتة لا أبدى حراكاً، فطلبت منى الناظرة أن أبدأ الدرس وشددت فى الطلب وكانت كلما طلبت ذلك علت ضحكات زميلاتى، وأخيراً قلت لهن إنهن معاقبات لضحكهن وهنا أمرتهن بالوقوف بدون حركة وقد زاد ذلك فى ضحكهن، ولكن الناظرة شددت علىّ مع ذلك أن ألقى عليهن الدرس وأردت أن أسخر بها وبهن فقلت بصوت ثابت رزين: اليدان والرجلان رفع. واحد اثنين. وهنا لم تتمالك الناظرة ومعلمة الرياضة البدنية من الضحك. وتبعها الطالبات فتركتنى وتركتهن وذهبت وهى تكاد تموت من كثرة الضحك ومن ذلك اليوم تركتنى وشأنى.

وكانت ناظرة المدرسة تمنع الطالبات من شراء الفاكهة وكان يعز علىّ ذلك كثيراً، لأن غذائى كان أكثره من الفاكهة فكنت أجد صعوبة عظيمة فى حرمانى منها لهذا كنت أشتريها رغم الأوامر الصادرة لجميع الخدم بعدم شراء الفاكهة للطالبات، فكنت أرشى الخدم لأحملهم على مخالفة أوامر الناظرة، وفى أحد الأيام بينما كنت أسير بعد الساعة الرابعة وقد وضعت فى حجرى عدداً عظيماً من البرتقال أريد أن أضعه فى دولابى بعد أن أخذته من الخادمة التى اشترته لى وكان اسمها نبوية إذ فاجأتنى الناظرة وصرخت فى وجهى قائلة ما هذا؟ أفزعنى صوتها فسقط البرتقال من حجرى وانتشر على الأرض ووقفت وسطه مندهشة ونظرت إلىّ الناظرة فى غضب وأعادت قولها. ما هذا؟

عدت إلى صوابى واستجمعت قواى وقلت فى ثبات وحزم إنه برتقال كما ترين. قالت وكيف خالفت أوامر المدرسة واشتريت الفاكهة؟ فقلت لأنها أوامر تخالف المعقول بل تخالف الواجب فإن المدرسة يجب أن تحافظ على صحة الطالبات، ولقد سمعتك أمس تقولين إنك تأكلين كل يوم فى الصباح برتقالة، وأنك تجدين فى ذلك صحة، فهل

يجوز لك بعد هذا أن تحرمي الطالبات مما تتمتعين به وتحافظين به على صحتك؟ قالت ولكن هذا البرتقال كثير جداً؟ قلت لو أنك سمحت لنا بشراء الفاكهة دون عقاب لاكتفيت بشراء برتقالة أو برتقالتين في اليوم أما وأنتِ تمنعين الخدم من شراء الفاكهة لنا فإني مضطرة أن أرشيهم بالنقود لشراء ذلك البرتقال، وليس من المعقول أن أكلفهم مخالفة أمرك كل يوم، فأنا أطلب منهم شراء ما يكفيني شهراً أو ما يقارب الشهر.

فكرت الناظرة قليلاً ثم قالت ومن الذي اشترى لك هذا البرتقال؟ قلت إني لا أسمح لنفسي بذكر اسمه، قالت ولكني آمرك. قلت كلا.. لك أن تعاقبينني إن شئت أما غيري فلا سبيل لك عليه ولست أبوح باسمه مهما كانت الظروف، ورأت أنه لا فائدة من الأخذ والرد معي فتركتني، وأحضرت ضابطة المدرسة وكانت سيدة نمساوية وطلبت منها أن تسأل الخدم وتبحث عمن اشترى ذلك البرتقال لتفصله من المدرسة ومازالت الضابطة تسأل وتتجسس حتى عرفت الفرَّاشة المسكينة التي اشترت ذلك البرتقال وأرادت أن تقدمها للناظرة وما كاد يصلني الخبر حتى جن جنوني، وأشفقت أن تفصل تلك المسكينة بسببي فأسرعت إلى الضابطة وكانت تخشاني وتحبني في آن واحد، فقلت لها أرجوك أن لا تخبري الناظرة باسم الفرَّاشة المسكينة وسأذهب أنا إلى حضرة الناظرة وأطلب منها معافاتك من البحث عن شارية البرتقال من الآن. قالت حسناً فسأقبل ذلك إن فعلت. وفي الحال دخلت على الناظرة وأنا متأثرة لا أستطيع حبس دموعي فقلت لها في شيء من الحدة والتأثر إني لا أستطيع أن أمكث في المدرسة ولا ساعة واحدة إلا إذا منعت الضابطة عن البحث عن الخادمة أو الخادم الذي اشترى لي البرتقال لأن الضابطة تضايق الخدم جميعاً وكلهم يدعون عليّ لأنني أنا سبب تلك المضايقة، فإما أن تأمري بالكف عن ذلك البحث وإما أن تسمحي لي الآن بترك المدرسة، ورأتني مصممة على ما أقول فسكتت قليلاً ثم قالت أتعدينني أنك لا تكلفين الخدم مرة أخرى شراء الفاكهة؟ قلت نعم أفعل ذلك. قالت قد اتفقنا. قلت ولكني لا أبرح تلك الغرفة حتى تأمري الضابطة أمامي بعدم البحث عن الخادم الذي اشترى البرتقال فأحضرت الضابطة وأمرتها بما طلبت وخرجت معي من غرفة الناظرة وهي تضحك وتربت على كتفي قائلة: لقد نفعت بجرأتك تلك المسكينة التي كادت تفصل بسببك.

نهاية الدراسة بالمدرسة السنية

كان احتجاج الطالبات على الضابطة التى عاقبت إحداهن سبباً فى أن تحقد علىّ ناظرة المدرسة ظناً منها أننى أنا التى أثرتهن ضد المدرسة ثم زاد الموقف تحرجاً بينى وبينها يوم أرادت عقابى وطلبت منى الاعتذار فرفضت، وشاء سوء الحظ بعد هذا أن تحقد علىّ إحدى زميلاتى لتقدمى فى اللغة العربية، فتدس لىّ، مع أنها لم تكن معى فى فصل واحد.

نعم شاء سوء الحظ أن تتهمنى تلك الزميلة بالوطنية وأن تحقد علىّ ناظرة المدرسة الإنجليزية لهذا الاتهام الباطل لأنى فى ذلك الوقت لم أكن اهتم إلا بالدراسة، وكنت أعتقد أن الإنسان ينفع وطنه بالتقدم فى العلم لا بالمشاكسات.

وترتب على ذلك أن ناظرة المدرسة كانت تكرهنى كراهة شديدة ولولا حسن الحظ فى أنها اصطدمت بالمرحومة السيدة فاطمة عمر وكان ذلك الاصطدام سبباً فى خروج المرحومة وكانت أولى الفرقة التى كانت قبلى بسنة واحدة. لولا ذلك لسعت الناظرة فى الإخراج، ولكن عدد الطالبات فى ذلك الوقت كان قليلاً كما قدمت، وكانت هى سبباً فى إخراج أولى السنة الثانية. وقدلفتت نظرها الوزارة لهذا الأمر فخشيت إن هى فصلتنى أو اضطرتنى إلى الخروج أن لا توافقها الوزارة على ذلك. ولذلك تحملتنى سنتين على مضض وضغينة. فلما نقلت إلى السنة الثالثة بلغ الأمر بيننا أشده فكانت تتعمد إيلامى فى كل صغيرة أو كبيرة، وكان لابد من إخراجى أو تركى المدرسة لشدة تعنتها لولا أن زميلتى السيدة الفاضلة عيشه صبحى تركت المدرسة فى نهاية السنة الثانية وكانت ثانية الفصل ولم يعد فى فصلى بعد ذا إلا ثلاث أنا رابعتهن. وقد خشيت الناظرة إن هى طلبت إخراجى أو اضطهدتنى إلى حد يضطرنى إلى الخروج أن لا توافقها الوزارة على ذلك العمل. فكانت تؤلمنى حتى إذا صممت على ترك المدرسة، عادت تلين وترجو.

وفى ذات يوم قالت لى كلمة جارحة آلمتنى كل الإيلام وكان ذلك عند خروجى من

آخر حصة من حصص الصباح. تألمت إلى حد تدفقت معه دموعى سيولاً، وتأثرت تأثراً جعل حرارتى ترتفع إلى ٣٩ درجة وبدلاً من أن أذهب إلى الفذاء ذهبت إلى مستشفى المدرسة. وكان به فى ذلك الوقت طبيب المدرسة المرحوم الدكتور علوى باشا. وقد أخفيت دموعى أمامه، وتظاهرت أن المسألة مرض فجائى، وذلك لأنى كنت فى شبابى اتعالى عن الشكوى أما فى كهولتى اليوم فقد أصبحت لا أجد فى بث شكواى من الفضاضة ما كنت أجده قبل ذلك. لهذا كتمت شكواى من حضرة الناظرة، وكشف علىّ الطبيب كمريضة فصرح لى بإجازة خمسة عشر يوماً، وما كاد خبر الإجازة يصل إلى حضرة الناظرة وقد ارتديت ملابسى وعولّت أن أذهب إلى منزلى ولا أعود، ما كاد يصلها ذلك الأمر حتى هرعت إلى الطبيب وهى ترغى وتزبد وتقول: كيف تصرح لها بالإجازة وهى ليست بمريضة؟ وقد أدت كل حصص الصباح وهى فى غاية الصحة، وكل الأمر أنها غضبت منى فتصنعت المرض. فقال لها الطبيب إن حرارتها يا سيدتى ٣٩ درجة بل تزيد على ذلك قليلاً، وما علمت بمريض يتصنع المرض فترتفع حرارته. قالت لعل هذا سبب غضبها؟ قال: وإذا كان غضبها منك قد رفع حرارتها إلى درجة ٣٩ فهل يجوز لى أن أبقيها معك لترتفع حرارتها إلى درجة الموت إذا أنت أغضبتها مرة أخرى؟

صمم الطبيب على إعطائى الإجازة وذهبت جهود الناظرة سدى وخشيت إن أنا خرجت فى حالة غضبى هذه أن لا أعود فأتت إلى فى غرفة الانتظار حيث كنت انتظر الإجازة بالخروج وقبلتنى قبلة حارة تدل على شغفها بى إلى حد الغرام، وقالت إنها لا تمانع فى أن أخرج لكن لابد من أن أخرج مسرورة لا غاضبة، وحتمت أن استريح وأن آكل قبل خروجى، وما كاد يتم هذا حتى هبطت حرارتى، الأمر الذى أدهشنى كل الدهشة، وهنا تأكدت أن للغضب أو السرور أثراً عظيماً فى صحتى. ولقد سبق أنى ذكرت أنى لما سررت فى طفولتى شفيت من مرضى.

أحضرت لى الناظرة فى غرفة الانتظار قليلاً من الطعام وشيئاً من الفاكهة وجلست تواسينى وتطلب منى أن لا أتغيب كل تلك المدة التى صرح لى بها وكان ذلك يوم أربعاء فوعدتها بالطاعة وخرجت بعد أن قبلتنى ثانية وثالثة وعدت يوم السبت. ومن ذلك

اليوم جعلت تتحاشى إيلامى لكنها كانت تتمنى لى من صميم قلبها أن لا أنجح. على أنها كانت تعلم حق العلم أن أملها فى عدم نجاحى ضائع لا محالة.

كنت أكن للناظرة ماكانت تكنه لى وفى يوم دخلت علينا فى المذاكرة فحركت حقدى، وكا كادت تخرج حتى ابتدأت أكتب فى كناشة الأعمال الأبيات الآتية:

حلوا فراح الحزم وارتحل الحجـا   وانهد جاه العلـــم والآراء
حملوا على جيش الفضيلة فانثنوا   متسربلين بحلة حمـــــراء
هذا دم الإنصاف فوق ثيابهـــم   يبدى فظائعهم لعين الرائى
نيران حقدى أضمرتها قلوبهــم   فتسربلوا من لونها بـــرداء
ما دام أهل النار تحجب روضنـا   عنا فأين معالم الســــراء
إن يدعوا الإنصاف أو ينسب لهم   فوفاء عرقوب وبخل الطائى

كتبت ذلك فى كناشة الأعمال بالقلم الرصاص وما كنت كما قدمت أهتم بالسياسة ولا أود خروج الإنجليز من مصر ولكن هو الغيظ من الناظرة جعلنى أصب جام غضبى على أبناء جنسها. شاء التجسس أن تُسرق هذه الكناشة بحيلة لا أعرفها إلى الآن وأن تُعطى للناظرة وأن تُرشد إلى مكان الأبيات. وجن جنونها ووجدت دليلاً على اشتغالى بالسياسة التى علم الله أنى ما اشتغلت بها فأرسلت الكناشة إلى وزارة المعارف تطلب عقابى. وجاءنى مفتش يحقق معى فيما كتبت فقلت: هل يعاقب الإنسان عما يجول بباله وخاطره؟ قال كلا ولكن ليس لأى إنسان أن يحرض على الثورة ضد الحكومة القائمة. قلت وكيف حرضت عليها أنا؟ قال: بتلك الأبيات. قلت: إن تلك الأبيات كتبت فى كراسة لا يقرأها غيرى، ولست متغالية إنى أنا شخصياً لم أقرأها منذ كتبتها، فكيف تعد ذلك تحريضاً وهو لم يطلع عليه أحد؟ إنى يا سيدى حرة فى أن أكره أو أحب دون عقاب، فإذا حرضت بطرق علنية كان لكم أن تعملوا معى ما تشاؤون، أما ما يخالج ضميرى وما يجول فى خاطرى فلا سبيل لكم إليه، على أن تلك الناظرة يجب أن تعاقب هى، إذ كانت السبب فى إظهار تلك الأبيات التى لولا عملها هى لما اطلع عليها أحد. وأتم المفتش التحقيق وعرضه على المغفور له سعد باشا زغلول فأعجب برأيى أيما عجب، وقال:

حقيقة ليس لنا على قلوب الناس رقابة، وهى لم تكتب ولم تنشر، ولا تعد هذه الكراسة إلا خيال يجول فى خاطرها وأمر بحفظ الأوراق، وتمت السنة النهائية بحالة يعلمها الله. على أنى لم أهن فيها برغم ماكانت تكنه لى الناظرة من العداء المكين.

ولم يكن المستر دانلوب من رأى الناظرة بل كان يعطف على ويقر وزير المعارف على رأيه فيما فعل.

تمت السنة ونجحت وكنت الأولى بتفوق عظيم طبعاً وشاكر نفسه يقرئنى السلام وأنا أتقبله بكل سرور.

وكان الواجب أن أعين فى المدرسة السنية نفسها ولكن حضرة الناظرة قالت إنها لا تسمح لمكان واحد يضمنى ويضمها اللهم إلا القبر، ولما كانت وزارة المعارف لا تدير القبور فقد عينتنى بمدرسة عباس الأميرية.

سفورى

أردت السفور فلم أكتب فيه مع أنى قرأت كتب المرحوم قاسم بك أمين وأعجبت بها ولكن العادات لا تغيَّر بالقول. وإذا حاول شخص تغيير قومه بأقوال منمقة قام عليه القوم واتهموه بما ليس فيه، وهكذا قام المصريون على المرحوم قاسم بك أمين واتهموه بكل شىء وقالوا إنه إنما يريد السفور إشباعاً لرغبته فى المجون والعربدة.

ولو أنى قمت فناديت بما نادى به لاتهمت بما اتهم بل أمرّ منه لهذا عولت على أن أدعو إلى السفور بالعمل لا بالقول. وقد كان ملبسى لا يجعل محلاً للشك فى استقامتى وتمسكى بالفضيلة الشرقية فكشف وجهى وكفى كان مطابقاً لما جاء فى السنة والكتاب! ولهذا لم يستطع أحد أن يمس سمعتى بسوء.

ومن العجيب أنهم كانوا يسموننى حجابية متطرفة ولا أدرى لم كانت تلك التسمية وأنا سافرة الوجه؟ إنهم يظنون السفور مجوناً وفجوراً ولم يكن ملبسى يساعدهم على أن ينسبوا إلى ذلك بل كانوا يعتقدون أنى أكثر الشرقيات محافظة على الآداب الإسلامية. ولهذا لم يقل أحد عنى شيئاً مع أنى كنت المصرية الوحيدة التى أسفرت.

ألفت كتاب المرأة والعمل وتكلمت فيه عن جميع عادات المصريات ولكنى لم أفرد فيه باباً للسفور والحجاب بل قلت فى مقدمته إنى لا أتناول السفور والحجاب فى كتابى لأنى لا أرى حجاباً فأبحث فيه. فقرويات مصر سافرات أما المدنيات فعلى وجههن نقاب أبيض شفاف لا يستر من وجوههن إلا الحياء، وهو يزيدهن جمالاً وبهجة إذ يزيد الوجه بياضاً على بياضه الصناعى أما الخدود فتظهر تحت النقاب ورديتين يجللهما الندى، لهذا لا معنى للكلام فى شىء غير موجود وسيهتدى الناس فيما بعد إلى حقيقة الأمر. قلت ذلك ليفهمه من يعقل فقط. ومن يعقل من الناس لا ينتقد السفور. أما أغبياء القوم فلم يفهموا من كلامى شيئاً وهذا ما انتظرته، فقد ظلوا يقولون عنى إنى حجابية متطرفة.

ومن غريب ما حدث أنى أقمت عندما فتحت مدرستى «ترقية الفتاة» بالإسكندرية حفلة مدرسية كنت استقبل فيها الزائرين سافرة الوجه وأسلم عليهم وأحييهم وأجلسهم فى اماكنهم، وكان بالحفلة مندوب لجريدة وفدية يقدر ما لقاسم بك من فضل وعبقرية. وقد أعجبه أن يكون فى تلك الحفلة ما يدل على أن غرس قاسم قد أثمر وأن تلك الحفلة كانت أول ثماره. لهذا طلب الرجل أن يلقى كلمة وسمحت له بها فقام يمتدح قاسماً ويثنى على همته وذكائه وعبقريته، وفى الأسبوع التالى لتلك الحفلة قرأت فى إحدى المجلات الأسبوعية انتقاداً مراً على ما قاله ذلك الكاتب فقد قالت إنه خرج عن حدود الأدب واللياقة فى مدرسة بنات هى أولى بالأدب ونشر الفضيلة، ثم قالت المجلة «إنها تعجب كل العجب كيف تصرح السيدة نبوية موسى الحجابية المتطرفة لهذا الكاتب المجونى بالكلام فى حفلتها»

قرأت ذلك ودهشت له. فقد كان مندوب تلك المجلة حاضراً فى الحفلة ورآنى وأنا استقبل الناس سافرة، ومع ذلك يسمينى حجابية متطرفة لأنى فى نظره لم أكن ماجنة ولا متبرجة. عجبت من هذا المنطق فرأيت أنه من العبث أن أناقش عقليات كهذه، إذن لابد أن أخاطب أمثال هؤلاء بما يستطيعون أن يفهموه: فكتبت إليه أقول:

«إنى لست مسئولة إلا عما تقوله إحدى تلميذاتى أو ما أقوله أنا شخصياً، أما كلام غيرى فيسأل عنه قائله. فإن الإنسان لا يسأل إلا عما يقوله هو أو يكتبه، أما أن يأتيه زائر فيطلب الكلمة فيصرخ له بها وهو لا يعلمها فلا شأن له هو بما قال ذلك الزائر»

ومع أن هذا القول لا يدل على أنى أخالف الخطيب فيما قاله فقد اتخذته تلك المجلة دليلاً ساطعاً على تمسكى الشديد بالحجاب.

فقالت فى العدد التالى «لقد صدقت السيدة نبوية موسى حسن ظننا فيها وعابت على الخطيب ما قاله. ونحن نشكر لها تمسكها بالعادات الشرقية ومن أهمها الحجاب».

وهكذا وفرت على نفسى ما كان سينالنى من فحش القول إن أنا كتبت فى الحجاب ودعوت إلى السفور. ولكنى مع ذلك أعطيت تلميذاتى مثالاً صادقاً للسفور الذى أريده، وهو ظهور المرأة سافرة ولكن فى منظر يدل على حشمتها ووقارها. فهى تخرج لعملها

سافرة حتى لا يعوقها الحجاب عن حسن تأدية ذلك العمل، ولكنها تظهر فى ملبسها بمظهر الجد فلا زينة ولا تبرج، والوجه كما خلقه الله لا فتنة فيه. وإذا كان الله قد صنع فيه شيئاً من الفتنة فلا شأن لنا فيما صنع، وكان على البشر أن يعودوا إلى الخالق. على أن القرآن لم يأمرنا بالحجاب بل أمرنا بالابتعاد عن الزينة، فقال سبحانه وتعالى «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين من زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن».

فأمر الله بستر الصدر لا بستر الوجه وهو موضع الحلى فى الجاهلية.

وقد أمر الدين الإسلامى المرأة أمراً صريحاً بكشف وجهها فى ثلاثة أمور: الحج والخطبة والشهادة، ولم يأمرها صراحة بستره مطلقاً فلا معنى إذن لستر الوجه وفيه مضايقة كبيرة لمن يردن هذا العمل.

قابلنى فى إدارة الأهرام يوماً أحدالكتاب الذين كانوا يكثرون الكتابة فى مسألة الحجاب والحض عليه. وجعل يناقشنى فى آرائه وكان يعتقد كل الاعتقاد أنى متفقة معه ولكنه دهش لما قلت له: إنك يا سيدى من القرى وأمك وأختك وبنت عمك يخرجن بزيي هذا أى بخمار لا يغطى إلا الرأس والصدر. فما هو الحجاب الذى تدعو المدنيات إليه؟ أتدعوهن إلى ذلك النقاب الشفاف الذى يزيد صبغة الوجوه ظهوراً وبهاء؟ قال كلا لا أريد ذلك. قلت أنت إذن تدعو إلى حجاب مجهول لم يره أحد؟ قال نعم أريد أن تضع المرأة فوق رأسها غطاء كثيفاً يستر وجهها كله وفيه ثقبان لتنظر منهما قلت يا سبحان الله وماذا تفعل المسكينة إذا اضطرت للعمل؟ قال: يجب أن تضحى بكل شىء فى سبيل منع الفتنة فإن فى وجهها فتنة، قلت إنك يا سيدى تدعى أن الرجال أكثر عقلاً وحكمة من النساء وإذا كانت النساء لا يفتن بوجوهكم أنتم وفيكم الجميل ولا شك فكيف تفتنون أنتم بوجوههن وأنتم أكثر عقلاً وإدراكاً؟ لقد كان الواجب أن تتقنعوا أنتم وأن تسفر النساء، ما دام فيكم من العقل ما يمنعكم من الفتنة. أما هن فلا عقل لهن ولا إدراك.

آلمه هذا القول منى وأراد أن يؤلمنى فقال: إذا كانت النساء فى خلقتك فلا بأس من السفور. وظن بذلك أنه أغاظنى فقلت له ضاحكة: يا شيخ انطق، وهذا ما أريده،

النساء فى شكلى يسفرن والرجال فى جمالك يجب أن يتقنعوا أى أنك من تضع من الغد على وجهك شوالاً فيه ثقبان وسأهنئك بتلك النتيجة.

وحدث أن قابلتنى إحدى السيدات فى الترام فقالت لى فى دهشة: أمسيحية أنت؟ قلت كلا إنى مسلمة. قالت: وكيف تكشفين عن وجهك؟ فنظرت إليها ضاحكة وقلت وهل سترت أنت وجهك بذلك النقاب الشفاف؟.. إنى أرى ملامحك واضحة حتى أنى استطيع أن أعد أسنانك المذهبة. وليت الأمر اقتصر عند هذا الحد فكشفت عن وجهك فقط كما أكشف أنا، بل لقد تجاوزت يا سيدتى الحد وكشفت عن صدرك إلى اخره فأنا أرى فى صدرك ما لا يجوز لى أن أراه كما أرى ذراعيك إلى نهايتهما أما أنت فلا ترين إلا وجهى فما معنى انتقادك إذن؟

عجبت المرأة من جوابى هذا وقالت لقد صدقت فأنا أقرب إلى النصارى منك.

وهكذا أيدت السفور عملياً لا بالقول وكنت أعلم أن فى التعليم ما يفى بالغرض الذى أريده دون نقاش أو مجادلة. ولقد صدق ما كنت أتوهمه وأسفرت نساء مصر الآن. حتى أصبح الرجال يطعنون على عقلية المحجبات. نعم تم ما كنت أرجوه ولكن على شكل لم أكن أريده فقد صحب ذلك السفور تبرج معيب كنت أربأ بفاضلات المصريات عن أن يتدهورن إليه خصوصاً المتعلمات منهن ولكن ما يدرينا فلعلها مرحلة انتقال، ننتقل منها إلى السفور الكامل المحتشم.

دخولى البكالوريا

تعينت كما قدمت معلمة بمدرسة عباس الأميرية بمرتب ست جنيهات بينما كان مرتب خريجى المعلمين العليا من الرجال اثنى عشر جنيهاً شهرياً. فساءنى أن تعاملنا الحكومة ونحن نعمل معاملة الوراثة أى نصف الرجل. لا أنكر أن الوراثة قد تكون على حق لأنها ليست من مجهود أحد، أما أن تعمل الفتاة ما يعمله الرجل ثم تتناول نصف مرتبه فهذا ما لا يعقل. لهذا ثارت ثائرتى.

لقد كنت أدرس كما يدرس الفتى، ولم يكن للحكومة مدارس ثانوية كثيرة. فكنا جميعاً ندرِّس للمدارس الابتدائية، فلماذا تميزه الوزارة عنى لا بجنيه ولا بجنيهين بل بضعف مرتبى؟ لقد كنت أعمل جاهدة فى أن تساوى المرأة بالرجل فى الوظائف وفى كل شىء وكان رايى كما قدمت أن أصل إلى تقرير ما أريده بالعمل لا بالقول. فقد قررت السفور لا بمقالات منمقة وآراء شيقة بل بخروجى سافرة. إذن لم لا أقرر المساواة بين الفتاة والفتى فى التوظف لا بشيق المقالات ولكن بالعمل الذى لا يقبل الجدال ولهذا طلبت من الوزارة أن تسوى بيننا وبين الرجال فى المرتب، فأجابتنى الوزارة بأنى وزميلاتى لم ننل شهادة البكالوريا، وإن كنا قد تعلمنا من فنون التربية والتهذيب ما تعلمه طلبة مدارس المعلمين العليا حرفياً ولكنا مع ذلك تنقصنا الثقافة العامة، ولهذا لا يمكن مساواتنا بهم قلت لقد تعملت من طرق التربية ما لم يتعلمه الرجال، وإذا كان ما ينقصنى عنهم هو مرحلة الثقافة العامة أى نيل شهادة البكالوريا فإنى سأدخلها وسأنجح فيها حتى لا أترك لوزارة المعارف عذراً فى عدم مساواتى بالرجال.

اطلعت من ذلك اليوم على منهج البكالوريا وملأت استمارة دخول امتحان البكالوريا فى الميعاد الذى حددته وزارة المعارف وأرسلتها إلى الوزارة. فضج رجال الوزارة لهذا الحادث، وكان حديثهم فى روحاتهم وغدواتهم. واستعظموا على فتاة لم تتعلم فى

مدرسة ثانوية أن تدخل الامتحان وهى لم تستعد له. فجاءنى المستر دانلوب فى مدرسة عباس وبيده استمارة التحاقى بالامتحان. قدمها إلى وهو يضحك وقال: يبدو لى أنك لم تقرأى منهج البكالوريا ولو أنك قرأت ذلك المنهج لما أقدمت على إرسال طلبك هذا. قلت: كلا لقد قرأته وكدت أنتهى من دراسته. قال إنك واهمة فاستمعى لنصحى واسحبى هذا الطلب ولا ترسليه مرة أخرى، اللهم إلا إذا وعدتنى بأنك ستنجحين ، قلت: وهل وعدك أحد ممن تقدموا لهذا الامتحان بنجاحه فيه قبل دخوله؟ قال: ولكنك تلميذتى ويهمنى أمرك. قلت إن الكل تلاميذك يا سيدى ولابد أن يهمك أمرهم بمقدار ما يهمك أمرى. قال: إذن فاعلمى بأنك إذا رسبت فستنحط منزلتك فى نظرى. قلت: إنى والحمد لله فوق الخادمات مباشرة ولا تستطيع أنت ولا غيرك أن تعتبرنى خادمة أى إنى أقف اليوم على الأرض وليس فى وسعك أن تحفر تحت أقدامى فمكانتى فى التوظف لا تحتمل النقصان.قال: إنك عنيدة ولكنى أكرر لك النصح فى أن تسحبى طلبك هذا وأن لا ترسليه إلى الوزارة. ثم خرج دون أن يترك لى وقتاً للإجابة على ما قال. وما كاد يصل إلى الوزارة حتى كان طلبى فى إثره!!

ضجت الوزارة كلها واعتبروا ذلك حادث العام ولم يعد فى الطلبة المتقدمين إلى البكالوريا حديث إلا أن لهم زميلة من الجنس اللطيف وقد كانوا يجهلون تلك الزميلة طبعاً فأخذوا ينقلون عنها ما يشاؤون. فاعتبروها من أجمل ذلك الجنس وألطفه وأنها ما تقدمت إلى ذلك الامتحان إلا لتظهر دلالها وجمالها. وجاء وقت الامتحان وأعدت لى الوزارة لجنة خاصة فى المدرسة السنية. أما باقى الطلبة فكانوا يمتحنون فى لجان فى بناء الوزارة بدرب الجماميز وهو البناء الذى لا يزال إلى الآن مشغولاً بمخازن الوزارة.

وكنت آخذ ترام السنية من مدرسة عباس فيمر بى على السنية ومنها إلى درب الجماميز فكان الطلبة القاطنون فى السبتية وفيما يجاورها يركبون معى فى نفس الترام ولم يكن فى الترام ديوان خاص بالسيدات. وكان المرحوم شقيقى يصحبنى فى ذهابى وإيابى فكنا نجلس فى آخر عربة حتى لا تتجه أنظار الطلبة إلى. وكانت أحاديثهم تنصب على أم رأسى. فمنهم من أقسم على ضربها عند فشلها وسقوطها فى الامتحان وكانوا يقولون إن سقوطها محتم لا شك فيه وما دخلت الامتحان إلا لتبدى

جمالها وتبرجها. كل ذلك وهم لم يعيرونى أى التفات لأنى لم أكن الشخصية التى كانوا يتخيلونها إذ كانوا يتخيلون فتاة لعوباً متبرجة. أما تلك التى كانت تجلس فى آخر الترام فقد كانت فتاة محتشمة لم يكن يشك أحد فى أنها لا تعرف القراءة. وكان أخى إذا سمع حديثهم عنى تبسم ونظر إلى فكنت أحترس أن لا أجيب على ابتسامته بمثلها وكنت أجتهد فى أن أنزل من الترام قبل المدرسة السنية بمحطة وأدخلها من بابها الخلفى لأنى كنت أعلم أن كثيراً من الطلبة يتجمهرون أمام بابها لرؤيتى. وهذا ما كنت أفعله عند الخروج.

أما اللجنة التى كانت تراقبنى أثناء الامتحان فقد كانت لجنة كاملة أى مكونة من ثلاثة أشخاص فرنسى وإنجليزيتين إحداهما ناظرة مدرسة السنية أى صديقتى المعروفة!.. فكانت كلما دخلت الامتحان وخرجت منه تحيينى بعبارات التأنيب أو السخرية كقولها إنك مغرورة، ولا شك أنك سترسبين أو ما الذى حملك على التقديم وتكليفنا إعداد لجنة خاصة لك؟ وقد كنت أجيبها على تحياتها هذه بابتسامات تشف عما فى قلبى لحضرتها من الحب المكين!.. وكانت الغرفة التى أُمتحن فيها واسعة جداً إذ كانت معدة لامتحان طالبات السنية بأجمعهن وكنت أجلس فى وسطها، وكان هذا يبعدنى عن صديقتى الناظرة بمسافة تجعلنى لا أتمتع برؤية وجهها رؤية دقيقة. وكان المراقب الفرنسى رجل لطيف فكان إذا مرَّ بى أشار بيده إلى تعليمات كانت على رأس ورقة الامتحان وهى «لا تلتفت يميناً ولا شمالاً ولا تشير إلى أحد ممن بجانبك أية إشارة» كان يشير إلى تلك التعليمات قائلاً يجب عليك تنفيذها. وهو بالطبع كان يعلم أنها منفذة بطبيعة الحال لأنه لم يكن بجانبى أحد.

وكانت تعليمات الامتحان تقضى أن لا نحضر معنا من أدوات الكتابة شيئاً فكانت تعطى لى الريشة التى أكتب بها وحدث فى امتحان الهندسة أن كان سن الريشة مكسوراً فلم أستطع الرسم بها وصرت كلما رفعت يدى حضرت إلى صديقتى ناظرة السنية ورفضت رفضاً باتاً أن تعطينى ريشة غير الريشة التى أمامى وضقت ذرعاً بتصرفها هذا. فتظاهرت بالكتابة وبالامتناع عن طلب ريشة جديدة ثم قمت فجأة أسير بسرعة نحو المراقب الفرنسى فما كادت تلحق بى إلا ونحن الاثنتان أمامه فعرضت

عليه الريشة وطلبت منه تغييرها فوافقنى على هذا الطلب ولكنها عارضته وبقيت معه فى جدال ونقاش نحو ربع الساعة وأخيراً انتصر الرجل وأتانى بريشة جديدة.

وآخر أيام الامتحان جاءنى مستر دانلوب فقال لى: أتظنين أنك ناجحة؟ قلت: نعم أظن ذلك. قال: حسناً صدق الله ظنك وخرج. وهنا تناولتنى الناظرة وأخذت تعتب على كيف أجيبه بالإيجاب وماذا يكون موقفى إذا أنا رسبت فقلت لها: إنى لم أدَّع النبوة ولا الإخبار بما فى الغيب، وكل ما قلت له إنى أظن أنى ناجحة ولا عيب على إذا كان ظنى هذا غير صادق، فكثيراً ما يظن الإنسان غير ما يحدث ولا حرج عليه فيما يظن.

ظهرت النتيجة وكنت من بين الناجحين وترتيبى على ما اعتقد ٤٣ من مائتين. وكان لهذاالنبأ وقع حسن بين موظفى وزارة المعارف وبين زملائى الطلبة. وكان ذلك سنة ١٩٠٧ ولم يكن لى بالطبع زميلات ولم تنجح مصرية فى امتحان البكالوريا إلا فى سنة ١٩٢٨. لهذا كان النبأ عظيماً فنشرته الصحف بعناوين ضخمة ببنط كبير مثل «أول ناجحة من المصريات فى البكالوريا» أو «مصرية تفوز بنيل شهادة البكالوريا» أو «تفوق المصريات» ولو أنى إذ ذاك فتحت فرنسا لما كان لاسمى رنة أشد مما كان له على إثر نيل تلك الشهادة العظيمة أى شهادة البكالوريا.

اهتم المصححون بهذا النبأ ويظهر أنهم خشوا أن يظن أحد أن نبوية هذا رجل فأرادوا أن يضعوا على هذا الاسم عنواناً يمنع الشبهة فكتبوا الست نبوية وأرسلوا إلى مدرسة عباس تلغرافاً يهنئون الناظرة بنجاح معلمتها كما أرسلوا إلى صديقتى العتيدة ناظرة المدرسة السنية تلغرافاً يهنئونها بنجاح إحدى طالباتها. وهنا نسيت مس جونسون الحقد القديم ويظهر أنها عطفت على. وكنا فى ذلك الوقت لا ندخل الامتحان الشفوى إلا إذا نجحنا فى التحريرى.

ظهرت نتيجة التحريرى وجئت للامتحان الشفوى فى المدرسة السنية أيضاً وما كاد يقع نظر الناظرة على حتى ضمتنى إلى صدرها وقبلتنى قبلات عديدة وشكرتنى لأنى رفعت رأسها عالياً.

أما المفتشون الذين جاءوا لامتحانى الشفوى فقد أحضروا لى معهم هدية ثمينة من الكتب الفرنسية. وكنت واثقة بالطبع أنى سأنجح فى الامتحان الشفوى إذ ليس من

المعقول أن تتقدم طالبة واحدة فى هذا الامتحان وتنجح فى التحريرى ثم يذهب الذوق بالمتحنين إلى إسقاطها فى الشفوى لهذا كنت واثقة كل الوثوق من نجاحى فى الشفوى.

كنت قد تعلمت اللغة الفرنسية فى المنزل ومن الكتب وكنت أعرف كيف أقرأ ولكنى لم أكن متأكدة أنى أفهم تلك اللغة إذا خوطبت بها، ولهذا دخلت باسمة وقد أعددت هذا الابتسام لأجيب عليه بكلمات قد حفظتها. وكانت اللغة الفرنسية إضافية لا أساسية.

وتم ما أردته وسألنى الممتحن عن سبب ضحكى. فقلت له فى شىء من الدعابة: إنى أضحك لأنى أعلم أنك لا تعلم إلا الفرنسية التى لا أعرف أنا شيئاً منها ولهذا أضحك على كيفية تخاطبنا. قلت ذلك بالفرنسية طبعاً. وقد سر الرجل بهذا. وحادثنى محادثة استطعت فهمها وأعطانى درجة لم أكن أحلم بالحصول عليها.

أما فى اللغة العربية فلم ينس المرحوم الشيخ حمزة فتح الله أن يتحفنى بأسئلته الممتازة إذ ذاك كوزن «أكون» وهو كما لا يخفى على سيدى القارئ «كن» فنقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها فتحرك بالضم وحذفت الواو لالتقاء الساكنين أى النون والواو ثم حذفت همزة الوصل لعدم الحاجة إليها إذ جئ بها للتوصل إلى الساكن فى الأفعال الأخرى كاعلم وانصت، أما هنا فقد تحرك أول الفعل فلا حاجة إلى همزة الوصل.

وعذراً أيها القارئ إذا ألقينا عليك درساً من نماذج دروس العربى الماضية.

أثر حصولي على البكالوريا
ومذهبي في الزواج

قدمت فيما مضى كيف حصلت على البكالوريا مع البنين وكيف كان لهذا النبأ دوى اخترق البلاد من أقصاها إلى أقصاها وقامت له الصحف وقعدت فكنت إذا كتبت مقالة إلى صحيفة نشرتها لى فى الصدر تحت عناوين كبيرة. وما كاد يمضى على ذلك شهر حتى وصلنى خطاب من مأمور فى السودان مرسل إلى نبوية موسى بالمدرسة السنية مع إن نبوية موسى كانت معلمة فى مدرسة عباس للبنات ولكن هذا المأمور لا يعرف عن نبوية موسى شيئاً سوى أنها نجحت فى البكالوريا ولهذا استنتج أن تكون تلميذة فى المدرسة السنية.

وصلنى الخطاب وكان الرجل أديباً لبقاً فى كتابته وقد قال فى خطابه إنه رجل مؤدب وإنه لم يخاطبنى ليخرج عن حدود الآداب الشرقية ولكنه يريد أن يتزوجنى وهو لا يعرف عنوان ولى أمرى ولا من هو، لهذا أضطر أن يكتب إلىّ لأن كتاباتى قريبة جداً من نفسه ورجانى أن أدله على ولى أمرى ليخاطبه فى أمر الزواج.

أعجبنى أدب الرجل واستقامته وراقنى أسلوبه العالى فى الكتابة ولو أنى كنت أميل إلى الزواج لما تأخرت فى قبول ما طلب ولكنى وأنا أكره الزواج واعتبره قذارة وقد صممت أن لا ألوث نفسى بتلك القذارة فلا مندوحة لى عن رفض طلبه.

عرضت الخطاب على المرحوم شقيقى وطلبت منه أن يكتب إليه بالرفض وأن يتلطف فلا يؤلم الرجل وقد اقترحت عليه أن يقول له: إنك لو رأيت أختى لما تقدمت إليها لأنها دميمة الخلقة ولا أظنك تقبلها ولهذا أرجوك أن تقبل تحياتى وأن تعدل عما انتويته وسأكون صديقك إلى الأبد. ومع أن ذلك الكلام لم يكن من رأى أخى فقد كتبه مضطراً.

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة على الأكثر وصل أخى خطاب من الخطيب يقول فيه إنه لا

يعبأ بالشكل وإنه يحب روحى لقربها من روحه وسيحب صاحبة تلك المقالات التى قرأها مهما كان شكلها بل سيحلو له أن يراها. قرأ أخى الخطاب وقال: الآن لا عذر لكِ فالرجل يقبلك على أى شكل أنتِ عليه وأنا بصفتى ولى أمرك أريد أن تتزوجى ذلك الرجل. وطال بيننا الشجار والأخذ والرد إلى حد كاد أن يخاطبنى معه بغير الكلام لولا أن تلك لم تكن عادته. وفى ذلك الوقت دخل قريب والدتى مصطفى افندى عبد الرازق وسأله عن خبر هذا النزاع. قال أخى إنها ترفض الزواج من رجل سبق أن كتبت له أنا شبه وعد. قلت: ولكنك غير محق فى وعدك هذا، والرجل الذى تقترح زواجى به يتناول ٢٤ جنيهاً شهرياً وأنا كما تعلم لا أحب الزواج فإذا قبلت قذاراته كان يجب أن يغرينى المركز الجديد الذى ساكون فيه بعد ذلك الزواج ومرتبى الآن ١٢ جنيهاً فإذا شئت أن تبقى حالتى المالية كما هى وجب أن يكون مرتب ذلك الزوج ٤٨ جنيهاً ١٢ جنيهاً لى و١٢ جنيهاً له و٢٤ جنيهاً للأولاد، فكيف أقبل أنا الزواج على بغضى له ثم أقبل معه انخفاض مستوى معيشتى وهذا ما لا يعقل؟

انتصر لى مصطفى افندى. وقال: لقد صدقت. قال أخى: ومعنى هذا أنها لن تتزوج ومن ذا الذى يقبل زواجها ومرتبه يبلغ ذلك المقدار الذى تطمع هى فيه؟ قلت: وهذا كل ما أريده أن تقف طلباتى هذه حجر عثرة فى سبيل الزواج.

اضطر أخى أن ينزل على إرادتنا أى إرادتى وإرادة مصطفى أفندى ولكنه كان مكرهاً. قال: إذن ساكتب للرجل ويجوز أن الله أراد له الخير بذلك الرفض. أمسك القلم وأخذ يقرأ ما يكتبه بصوت عال. قال: تحية وسلاماً وعذراً أيها الصديق إذا أنا أخبرتك فى خطابى السابق بدمامة خلقة شقيقتى فقط ولكنى نسيت أن أقول لك إنها فوق ذلك قليلة الأدب متكبرة متغطرسة لا يطيق الإنسان أن يعاشرها يوماً واحداً وأنا كصديق انصحك أن لا تعاودنى فى أمرها ولا أخفى عليك أنها تتكبر على أمثالى وأمثالك فلا تذكرها لى مرة أخرى.

أخذ يقرأ ذلك الخطاب بصوت عال ليغيظنى ولكنى كنت أضحك مقهقة وأقول: إن هذا خير ما يكتب فى مثل هذا الموقف وكان الرجل قد أرسل مع الخطاب هدية فرددناها إليه.

وفى سنة ١٩١٤ كنت ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة فجاءنى رجل بخطاب كتبه إلىَّ ذلك المأمور يرجونى فيه أن أقبل ابنة ذلك الرجل بالمدرسة الابتدائية مجاناً وقال فى خطابه إنه تزوج وإنه رزق أولاداً وإنه مسرور جداً بأسرته الجديدة وكأنه يريد أن يقول لى على رأى مثلنا العام (بركة يا جامع اللى جت منك).

عرفت من هذا أن الرجل لا يزال متألماً من الحادثة وكنت أخجل أن أذكر مسألة خطبة أو زواج أمام رجل فنظرت إلى قريبه الذى أتى بذلك الخطاب وقلت له: هل تعلم من أين يعرفنى قريبك هذا؟ قال: نعم إنى أعرف القصة. قلت: أرجوك أن تخبره أنى لم أرفضه احتقاراً لشأنه أو لأى عيب فيه ولو أنى كنت أنتوى الزواج لما تزوجت بأفضل منه ولكنى لاعتبارات شخصية أرفض هذا الزواج، ولكى أشرح لك موقفى أقول إنى لو كنت قد قبلت ما عرضه على لكنت الآن تحت أمره أطلب منه الرضا والعطف أما الآن بعد رفضى فهو الذى يطلب منى أن أعطف عليه وعلى أقاربه وأنا لأجل خاطره سأدخل ابنتك بالمجانية فى مدرستى. ولو أنى كنت أخاطب الرجال لكتبت إليه الرد على خطابه هذا ولكنى آليت أن لا أفعل فأرجوك أن ترد عليه أنت وأن تخبره بما قلته لك.

لقد بنيت رفضى على رأى اعتمدته منذ طفولتى وهو الا اتزوج لأنى على ما اتذكر لم أكن طفلة بالمعنى الصحيح أجهل ما يحيط بى ولكنى كنت أعلم ما بين الرجل والمرأة مع أنه لم يكن فى منزلنا رجل ولكن يظهر لى أن الأمر غريزة طبيعية أو أنى كنت أعلم بالإشارة أو بما أراه من الحيوانات، كنت أعلم ذلك تمام العلم وأرى أنه قذارة خصوصاً نصيب المرأة فيه، فكنت أنفر منه وربما ترجع مسألة خروجى من المنزل فى سن الثالثة عشر والتحاقى بالمدرسة إلى كرهى لهذا الأمر لأنى لو بقيت بلا عمل لما استطعت أن أبقى أيضاً بلا زواج وليس لى من الأملاك ما يقوم بسد حاجتى. لهذا انصرفت عن الزواج بتاتاً ثم شاء الله أن تزداد فكرتى رسوخاً ووضوحاً فسمعت رجلاً يتشاجر مع امرأة على قارعة الطريق ، ويقول لها ما معناه: امرأة مثلك، أقضى فى جوفها حاجتى تتجرأ أن تكلمنى بما تقولين؟ شرحت لى تلك الكلمة ما هناك وكرهت أن يقف منى رجل ذلك الموقف القذر المريع لهذا كنت أكره أن أسمع الزواج فى شبابى، أما بعد أن كبرت فقد أصبح مجرد هذا الاقتراح سبة لا يشتمنى أحد بأقبح منها.

وعلى ذكر تلك الخطوبة أقول إنى خطبت بعد ذلك مرتين سأذكرهما هنا على سبيل ذكر أشياء وقعت لى فى حياتى.

كانت تلك الخطوبة الأولى فى سنة ١٩٠٧ كما قدمت وفى سنة ١٩١٣ كنت ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة وكنت ألقى محاضرات فى الجامعة المصرية كانت تكتب فى جميع الصحف فوصلنى خطاب من أحد المهندسين يقول فيه إنه معجب بمقالاتى وإنه يطلب من الله أن يكثر من أمثالى فى الأمة المصرية.

لم يكن الرجل فى طبقة الخطيب الأول من الكتابة فلم يقع كلامه من قلبى موقعاً حسناً على أنه لم يقل شيئاً صراحاً بل أكثر فى مدحى وقد أرسل لى طى خطابه صورة فوتوغرافية له.

وقد فهمت من تلك الصورة ما كان يرمى إليه فى طيات كلامه وشاء الله أن يكون شقيقى ضيفاً عندى فى ذلك اليوم ففضضت الخطاب وبعد أن قرأته قذفت به شقيقى فى ضحك وقلت له:

لو لم يكن هذا الرجل مؤدباً فى الكلام لعاقبته بإرسال صورتى إليه..! أما وهو مؤدب فلا معنى إذن لذلك العقاب. وقع الخطاب والصورة على أرض الغرفة ولم أعرهما بعد ذلك أية التفاتة حتى أنى نسيت اسم الرجل أو قل إنى لم اقرأ إمضاءه.

وبعد أيام من ذلك الحادث جاءنى البواب يقول لى أن محمد أفندى حافظ يطلب مقابلتى. وكان لى خال بهذا الاسم فظننت أنه خالى أتى من القاهرة ليرانى فى المنصورة فقلت للبواب أن يدخله بسرعة وقمت له ضاحكة لأقابل ذلك الخال وما كدت أراه حتى استولت علىّ الدهشة لأنى عرفت أنه صاحب الصورة التى أرسلت طى الخطاب السابق وعلى كل حال فقد اضطررت أن أحييه وأن أجلس معه.

عرفت بالطبع ما جاء به وما يريد أن يطلبه وأردت أن أمنعه من ذلك فقلت له لقد وصلنى خطابك وليس لى أى انتقاد عليه لأنك كنت فيه مؤدباً وأنى مستعدة أن أساعدك فى كل ما تطلبه منى إذا كنت تريد إدخال بناتك بالمجانية فى مدرستى هذه وسأساعدك بكل ما أستطيع.

احتار الرجل فى أمره وقال متلعثماً: ولكنى لا أسرة لى وقد جئت اليوم من أجل

ذلك فقاطعته قائلة: إسمع يا بنى لقد صممت منذ كنت فى سنك على أن لا اتزوج فإذا كنت أنت اليوم لم تتزوج فأنصحك أن لا تفعل! فدهش الرجل من تلك المفاجاة وقد كان اكبر منى سناً أى كان فى سن المرحوم أخى.

فلم تدخل عليه الحيلة وقال: لست بابنك أولاً وثانياً اسمحى لى أن أسألك: لم صممت على عدم الزواج؟. ضايقتنى تلك الجرأة منه وقلت له: إنك لم ترنى إلا اليوم ومع ذلك تسألنى عن أمر هو من أخص خصائصى وما كان لك ولا لغيرك أن يتدخل فيه .مع هذا فسأشبع حب الاستطلاع فى غريزتك واقول لك انى قد صممت على عدم الزواج لأنى لا أحب الرجال ولا أحب أن انحط فى معيشتى بل لو أنى تزوجت وأنا اليوم أتناول مرتباً قدره ٢٤ جنيهاً كان يجب علىَّ أن لا اقبل إلا رجلاً مرتبه ٩٦ جنيهاً ٢٤ جنيهاً لى و٢٤ جنيهاً له و٤٨ جنيهاً للأطفال ومثل هذا الرجل ما أظنه يطلب الزواج منى. قال الرجل: وما المانع من أن تتزوجى وأنت فى وظيفتك؟ قلت: عفواً يا سيدى فقد قلت لك إنى أكره الرجال فما معنى أن أقبل القرب من رجل وأنا لا أزال أعمل؟ وما فائدة ذلك الرجل وما قيمته فى حياتى؟ قلت ذلك وانتصبت واقفة واعتذرت إليه بأن لدى درساً سألقيه الآن وأن فى استطاعته أن يمكث مع معلمى مدرستى فى غرفتهم إذا شاء.

فخرج الرجل من عندى لا أدرى مودعاً بماذا، ولكنى استدعيت البواب فى الحال وقلت له: إذا جاءك هذا الرجل مرة أخرى قل له إنى غير موجودة وإياك أن تدخله عندى مرة ثانية أو تطلب منى حتى السماح له. وبعد أيام جاءنى خطاب منه يقول لى فيه: بالرغم من أنك تدعين أنك أكبر منى سناً وأنك لا أمل للرجال فيك لدمامتك فإنى شخصياً أرى فيك غير ذلك. قرأت الخطاب ومزقته، وقلت: سبحان الله!.. من أخذ رأيه فى هذه الأمور وما الذى يهمنى من رأيه فىَّ؟ إن رأيى فيه وفى كل رجل أن لا أتزوج. ولا ثانى لهذا الرأى عندى.

هذه هى الخطوبة الثانية: أما الثالثة فقد دلت والحمد لله على أننا نحن السيدات كالعبيد كلما كبرنا رخص ثمننا.

كنت ناظرة مدرسة المعلمات بالإسكندرية فى سنة ١٩١٩ على ما أتذكر أى بعد

الحادثة الثانية بست سنوات فوصلنى خطاب قد كتب فيه كاتبه ما يربو على ٧ صفحات. اخذت اقرأ "ويلت الرجل ويعجن كما يقولون" ويصف لى حاله وعمره ومرتبه وهو والحمد لله ستة جنيهات وهو ايضاً كمسارى على ما أظن فى السكة الحديد. حسبت وهو يشرح لى هذا إنه يشكو لى ضيق حاله وإنه يطلب منى المعونة كما كان الكثيرون يفعلون ذلك، ولكن كم كانت دهشتى شديدة عندما قال فى خطابه "إنى إذا حادثت رجلاً دقيقة أو دقيقتين أتجرأ على الكلام معه وأنا الآن قد كتبت لكِ ما يزيد على ست صفحات وإذن أصارحك برأيى بكل شجاعة وجراة وهو أنى أريد الزواج منك ولا اريد أن أرجع لأهلك فى هذا الموضوع لأنى أسير على تعاليم المدنية الحديثة". عجبت حقيقة من تلك الجراة ومن ذلك المنطق المعتل الخاطىء كيف يجرؤ علىَّ بذلك الكلام لا لسبب سوى أنه كتب لى ست صفحات، هل كنت أنا حاضرة عند كتابة ذلك حتى يعد سكوتى على تلك الكتابة مبرراً لجراته علىَّ؟ حقاً إنه منطق عجيب خصوصاً وقد حدد لى ٢٤ ساعة إبداء رأيى فى الموضوع!

كنت فى ذلك الوقت لا أرفض الزواج فحسب بل أعد طلب الزواج ممن كانت فى سنى جريمة أو إهانة تلحق بى لا يغسلها إلا الدم. غضبت لهذا وأردت أن أنتقم منه، وفكرت فى حيلة لذلك الانتقام. وقلت: أرسل إليه خطاباً مع خادمى أقول فيه أنى قبلت ما عرضه علىَّ وإذا قبل هذا أرسلته إلى منزل أحد أقاربى فاعقد خطبته على امرأة غسالة كانت بالمدرسة واسمها فاطمة ولا بأس فنبوية تكتب فى شهادة الميلاد فاطمة النبوية حتى إذا تمت الحيلة ودخل على صاحبته عرفته مقدار مدنيته الحديثة من طلب الزواج من امرأة لم يرها. وهنأته بالزيجة الخيرة المباركة.

دققت الجرس للساعى فحضر ووقف بعد أن كتبت جواب الرضا وأردت أن أسلمه إليه ولكن عز على نفسى أن يذهب الساعى إليه بذلك الجواب فيفهم منه أنى قبلت الزواج منه وهى سبة لست أرضى أن يظنها خادمى ولو ربع ساعة فترددت فى الأمر ثم نظرت إلى الساعى وقلت له: أخرج!

وقد انتقمت لا منه، بل من خطابه فمزقته إرباً واكتفيت بهذا!!

وهكذا أنا والحمد لله لا أنتقم من ضعيف.

إحلال النساء محل الرجال

(فى الوظائف ونتائجه السيئة على شخصى الضعيف)

كانت كل أمنيتى من دخول امتحان البكالوريا أن أكون كالرجال فى درجات الوظائف. وقد كان. فقد أعطتنى الوزارة مرتباً قدره ١٢ جنيهاً كخريجى مدرسة المعلمين العليا.

ولهذه المناسبة الطريفة أقول أن مرتب خريجى دار العلوم العليا فى ذلك الوقت كان ستة جنيهات فقط وكان مرتبى ضعف مرتب المعلم من دار العلوم. وقد شاء الله أن تنسى وزارة المعارف قراراتها القديمة وأن تعتبرنى الآن من معلمات السنية ويظهر أن للكبر أثراً. وعلى هذا الاعتبار المعكوس الذى لا أفهم معناه كانت تعطينى الوزارة بارك الله فيها إعانة شهرية مقدارها أربعة جنيهات! وسبحان مغير الأحوال. والظاهر أن ما نقصه خريجو دار العلوم من المعلومات فى عصرهم الحالى زادوا به مالاً ولله فى خلقه شئون.

كانت الوزارة فى ذلك الوقت تريد إحلال الآنسات محل الرجال فى وظائف التعليم بمدارس البنات ورفض المرحوم الشيخ حمزة فتح الله أن يسمح لفتاة بتدريس اللغة العربية التى كان هو زعيمها حتى إذا تخرجن سمح لى بذلك.

قام رجال دار العلوم وقعدوا لذلك النبأ الغريب فى نظرهم وساءهم جداً أن تدرس فتاة اللغة العربية للسنة الرابعة وهم أصحاب امتياز تلك اللغة وكانوا فى ذلك الوقت لا يسمحون لأحد أن يسمح لنفسه بما احتكروه لأنفسهم من تدريس اللغة العربية مهما كانت الظروف. ومن هنا أخذ اسم نبوية موسى يظهر لا بالذكرى الحميدة والحمد لله ولكن بالذكرى السيئة فسمونى هادمة بيوت الرجال وقاطعة أرزاقهم وغير ذلك من الألقاب التى أسبغوها علىَّ وكانوا يتحينون الفرص للإيقاع بى. فكنت إذا درست أخذوا يسترقون السمع ويدونون ما أقوله وما أعطيه لتلميذاتى فينتقدونه ويذهبون إلى الناظرة فيبالغون فى ذلك الانتقاد ولكنها كانت تعرض عنهم فى السنة الأولى من

مباشرتى العمل.

كنت فى ذلك الوقت أكتب فى صحيفة يومية اسمها "مصر الفتاة" تحت اسم مستعار اتخذته لنفسى وهو "ضمير حر فى جسم رقيق" وقد أردت بكلمة رقيق المعنيين رقيق، أى نحيف دقيق وقد كان هذا من صفاتى، ورقيق أى مستعبد وقد كان هذا ولا شك من صفة كل مصرى يباشر التعليم.

ذهب معلمو اللغة العربية إلى الناظرة وأحضروا لها عدداً وافراً من نسخ "مصر الفتاة" وأطلعوها على المقالات وادَّعوا أنى إنما أنتقد فيها السياسة الإنجليزية. وبذا استطاعوا أن يصلوا إلى قلبها بعد أن كان مغلقاً فى وجوههم.

أصغت الناظرة إليهم أخيراً فقلبت لى ظهر المحن. فأرادت فى أول الأمر أن تنتقم منى بتوصيل انتقاداتهم إلى الوزارة فدعتنى إلى مكتبها. وكان إلى جانبها أحد معلمى اللغة العربية بالمدرسة أى مدرسة عباس الأميرية، وقالت لى إن الأستاذ غير راض عن طريقة تدريسك فأرجو أن تستمعى إلى نصائحه وأن تعملى بها. قالت لى ذلك باللغة الإنجليزية. وكأنه كان بينها وبين الأستاذ اتفاق من قبل فاندفع هو يسمعنى نصائحه الغالية فقلت لها بالإنجليزية أيضاً غير عابئة بما كان يقوله الأستاذ: إنى لا أعمل برأى أحد هنا إلا برأيك أنت ناظرة المدرسة، وأنت لا تستطيعين أن تعطينى آراءك فى تدريس اللغة العربية، لأنك والحمد لله تلميذتى فى تلك اللغة فأنا أدرسها لكِ. وقد كانت الحكومة انتدبتنى لتدريس اللغة العربية للمعلمات الإنجليزيات لأنى أستطيع تفهيمهن اللغة العربية أكثر من الشيوخ إذ أشرح لهن ما يصعب عليهن من العبارات باللغة الإنجليزية. أما الشيوخ فكانوا لجهلهم اللغة الإنجليزية يستعملون الأيدى والأرجل فى تفسير العبارات الغامضة وهم والحمد لله لا يحسنون الإشارة.

قلت لها ذلك والأستاذ لا يزال مندفعاً فى إرشاداته دون أن أستمع إليه. وأخيراً عز علىَّ أن أتركه يكلم نفسه فالتفت إليه وقلت له: لا تتعب نفسك لأننى أنا غير راضية عن طرق تعليمك للغة العربية بمقدار عدم رضائك عن طرقى وقد أكون على حق وقد تكون أنت على باطل ولابد أن يكون بينى وبينك حكم يفهم تلك اللغة. أما هذه الناظرة فلا يمكن أن تكون ذلك الحكم وهى تجهلها تماماً.

قلت ذلك ثم ترجمته للناظرة فساءها ذلك وقالت: إذن ماذا أصنع فى إرشادك؟ قلت: لهؤلاء المعلمين أن يكتبوا تقريراً بالإرشادات التى يريدونها وسأرد عليهم أنا ويرفع تقريرهم وتقريرى إلى الوزارة فتتخذ الوزارة ما ترى بشأن التقريرين.

طلبت الناظرة من المعلمين ذلك فرفضوا كتابة التقرير لأنهم فى ذلك الوقت لا يحسنون فن الإنشاء وكل معلوماتهم فى اللغة العربية كانت تنحصر فى نبوغهم فى الإبدال والإعلال، فهم يعرفون أن سار أصلها "سير" ولكنهم لا يعرفون الفرق بين سار وصار وثار، ولهذا لم يستطع أحد منهم أن يتقدم بكتابة ذلك التقرير. وأرادت الناظرة إحراجى، والحق مع القوة لا مع المعول. فطلبت منى أن أكتب أنا التقرير فقلت: يا سيدتى إنى لم أنتقد طرق هؤلاء الرجال، ولا يهمنى ذلك الانتقاد، فكيف أكتب تقريراً فى حالة لم أنتقدها، ولم أطلب تغييرها وهى طريقة تدريسهم وإن كانت فى نظرى عقيمة؟ قالت: دعك من تلك الفلسفة وأمامك أمران لا ثالث لهما: فإما أن تكتبى التقرير وإما أن تتبعى إرشادات المعلمين.

اضطررت أن أكتب التقرير وأمرى لله، وكان تقريراً موفقاً فقد شرحت فيه تلك الطريقة التى كان يستعملها أساتذة اللغة العربيةفلا يهتمون بالإنشاء ولا بفهم العبارات بل يهتمون بأمور لا قيمة لها من أبواب الصرف التى لم أشعر إلى الآن أن لها فائدة فيما كتبته وما سأكتبه أى أنها لا تفيد التلميذ أية فائدة فى فن الإنشاء بل هى علل خلو من كل شىء حتى من المنطق الصحيح فقد كان التلميذ يجهل معانى الكلمات فلا يعرف معانيها ولكن الأستاذ يعلمه أصولها أى أجدادها القدماء فيقول له إن كاد أصلها كيد وهو نفسه لا يفهم الفرق بين كاد وقاد ولا كيف تستعمل الكلمتان، وهو يعرف أصلهما قبل أن يعرفهما.

هذا فضلاً عن أن المنطق الذى يذكر فى تلك العلل منطق سخيف لا يستقيم له معنى - فيشرح الأستاذ أن اض استثقلت فيها الضمة على الياء فحذفت الضمة والتقى ساكنان التنوين والياء فحذفت الياء للتخلص من التقاء الساكنين، على أن نبى لم تستثقل فيها الضمة على الياء وبقيت كما هى، وفى هذا الكلام خطأ منطقى إذ يفهم منه أن كل ياء تستثقل عليها الضمة مع أن الضمة هنا لم تستثقل إلا لانتقال النطق من

كسر إلى ضم، وقد لا يكون ذلك السبب، فكثيراً ما تجدنا قد انتقلنا فى نطقنا من كسر إلى ضم ولا ضير فى ذلك كيوجد وغير ذلك.

فتلك العلل النحوية لم تكن تستقيم مع المنطق حتى يتعلم منها التلميذ حسن التعليل ولم تكن تفيده كثيراً فى الكتابة. وكان يكفى أن يشرح المعلم الأسماء الناقصة ثم يقول للتلاميذ فى بساطة إن ياءها تحذف فى حالتى الرفع والجر، وتبقى فى حالة النصب ولا داعى إلى ذلك الخطأ المنطقى المرذول فى تعليل ما ليس له تعليل.

ومن تلك العلل قولهم نظرت إلى كتابى. كتاب مجرور بإلى وعلامة جره كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة. سلسلة من أخطاء منطقية لا يفهمها والحمد لله إلا أولئك الشيوخ فحركة المناسبة التى يقولون أنها منعت ظهور الحركة الأصلية هى الكسرة، وهى ليست حركة مناسبة فى الواقع فكثيراً ما تسبق الياء بحرف مفتوح كهيئة. فلا معنى إذن لحركة المناسبة هذه أى مناسبة الياء على أننا نقول كتابى محمد بفتح الباء ونترك المناسبة وأمرها لله.

هذا الخطأ الأول أما الخطأ الثانى فكيف بربك تنوب الكسرة عن الكسرة لأن حركة هذا الاسم هى الكسرة إذ هو مجرور بإلى وحركة المناسبة هى الكسرة فهل يستطيع إنسان يعقل أن يقول إن الكسرة تمنع الكسرة عن الظهور لتظهر هى؟

ومن هذا نعلم أن قولهم منع من ظهورها أى الكسرة اشتغال المحل بحركة المناسبة غير معقول بالمرة. وما قال أحد إن إنساناً يشتغل بالصلاة عن الصلاة فكيف اشتغل ذلك المحل بالكسرة عن الكسرة؟!

إنهم لو أصابوا لقالوا إن ياء المتكلم المضافة إلى الأسماء تسبق دائماً بالكسر هكذا نطقت العرب تلك اللغة ولا معنى لإيراد علل غير منطقية.

كذلك شرحت فى ذلك التقرير قولهم نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها فتحركت الواو بحسب الأصل وانفتح ما قبلها بحسب الآن فقلبت ألفاً كاستطال. وتعجبت فى تقريرى هذا كيف تكون الحركة الواحدة على الواو حركتين تتحرك بها الواو بحسب الأصل كما يتحرك الساكن قبلها بحسب الآن. وهل إذا كان مع الإنسان ألف جنيه وسرقها لص، يجوز له أن يشترى منزلاً بحسب الأصل كما يشترى اللص بها منزلاً

بحسب الآن؟ أليس ذلك هو السخف كله؟

هكذا انتقدت طرق مدرسى اللغة العربية وطلبت أن يعنى المدرسون بالمعانى والأساليب واستعمال الكلمات فى مواضعها بدلاً من صرف الوقت فى شرح تلك العلل السخيفة. وكان ناظر المعارف فى ذلك الوقت المغفور له سعد باشا زغلول، وما كاد يطلع على التقرير حتى سر به سروراً عظيماً وطبعه ووزعه على مدارس البنات ومعه خطاب دورى يقول فيه:

"جاء هذا التقرير من السيدة نبوية موسى (وقد كنا فى ذلك الوقت لا نقول آنسة) فنرسله إليكم رجاء اتباعه فى مدرستكم" وزع هذا التقرير على جميع مدارس البنات ومن ضمنها مدرسة عباس التى كنت موظفة بها. وقد دهشت الناظرة وجن جنونها عند اطلاعها عليه. فأحضرتنى وقالت: ما هذا؟ لقد كان هؤلاء يدرسون قبل أن تولدى أنت. فكيف تصححين لهم طرقهم؟ قلت: لا غرابة فى ذلك يا سيدتى فقد درست أنا بهذه المدرسة فى العام الماضى وكانت نتائجى فى التدريس محمودة وكنت أنتِ راضية عنى. وها هو رضاؤكِ فى هذا العام قد انقلب سخطاً. أى أننى لما درست عاماً جهلت ما كنت أدرسه فى العام الأول فلم أستطع إرضاءك بقدر ما أرضيتك فى أول تدريسى، إذا قست ذلك علمت أنهم الآن لا يعرفون شيئاً مادام الإنسان فى عام واحد ينقص كل هذا النقص أى يرجع إلى الوراء. فما بالك بهم وقد درسوا ما يزيد عن عشرين عاماً؟! قالت: هكذا أنتِ لا تصلحين إلا فى الفلسفة.

اضطرت الناظرة أن تؤجل الحرب التى بينى وبينها مؤقتاً وتتظاهر بالرضاء عنى ولكنها كانت تسر لى ضد ما كانت تظهر.

صاحبة الجلالة الصحافة
وأثرها عليَّ سابقاً

اضطرت ناظرة مدرسة عباس الأميرية أن تجعل بينى وبينها هدنة وفى النفس ما فيها ولكنها ما لبثت أن ثارت إذ ذكر لها المعلمون أنى لا أزال أكتب فى "مصر الفتاة" وأن كتابتى ضد الإنجليز. وعلم الله ما كان فى كتابتى شىء من ذلك وما كانت إلا نقداً بريئاً على أساليب التعليم فى المدارس. طلبت منهم إحضار نسخ عديدة من "مصر الفتاة" التى تحتوى على تلك المقالات ولا أدرى كيف استطاعوا أن يحضروا لها ما يربو على الثلاثين مقالاً وقد أشَّروا بالمداد الأحمر على كل مقال. واستدعتنى حضرة الناظرة فدخلت عليها وإذا أمامها تلك الأعداد من مجلة "مصر الفتاة" وقد طويت طياً يظهر موضع مقالاتى ثم قالت لى وقد أشارت إلى تلك الأعداد: هل تكتبين فى هذه الصحيفة؟ قلت: لا حق لكِ يا سيدتى فى سؤالى عن هذا، وكل ما لكِ هو أن تفتشى عن عملى المدرسى وأن تنتقديه، وقد علمت مما سبق أنك أنتِ شخصياً لا تستطيعين ذلك وإن إخواننا المشايخ لا حق لهم فيه. قالت: ولكن الوزارة تحرم على الموظفين الكتابة فى الصحف. قلت: الوزارة هى إذن التى تسألنى عن ذلك أما أنتِ فلا شأن لكِ فيه.

قالت إذن سأذهب إلى الوزارة وسأريك نتيجة أعمالك. قلت: لا بأس.

اختطفت نسخة من النسخ التى كانت أمامها وذهبت بها إلى الوزارة. ثم عادت من الوزارة وقد هدأت ثائرتها وأصبحت صديقة من جديد. فاستدعتنى وقالت لى فى ابتسامة: ما الذى كتبته فى تلك المقالة التى ذهبت بها أنا اليوم إلى الوزارة؟ قلت: وهل أعرف أنا شيئاً مما تقولين؟ قالت: لقد أخذت نسخة من هذه النسخ - أى من نسخ الصحيفة التى كانت لا تزال مكدسة على مكتبها - وذهبت بها إلى سعد باشا زغلول وما كاد يقرأها حتى أشرقت أسارير وجهه وسر بها سروراً عظيماً وقال: إنه يتمنى لو أنك أرسلت إليه بتلك المقالات قبل إرسالها إلى الصحف ليصححها لكِ. قلت: إذا جننت فى

القريب العاجل فسأفعل ذلك يا سيدتى. فقالت: ما وجه الجنون؟ قلت: وهل يكون جنون أكثر من أن معلمة فى إحدى المدارس تنتظر من وزير المعارف أن يصحح لها ما تكتبه قبل إرساله إلى الصحف؟ قالت: لو كنت مكانك لفعلت ذلك. قلت: ولو كنت أنا مكانك لما طلبت من معلمتى هذا. قالت: إنك لا تتركين فلسفتك.

مضى على ذلك يومان وفى اليوم الثالث حضر سكرتير المغفور له محمد باشا سعيد فى عربة الباشا ومعه خطاب من وزارة المعارف يصرح لى فيه بالتدريس لبنات محمد باشا سعيد. فعجبت من التصريح وكيف عرفنى محمد باشا سعيد؟ ومن أين؟ أردت أن أتوقف عن الذهاب فى تلك العربة. ولكن الناظرة أصرت على أن أذهب لأن الوزارة خاطبتها بالتليفون وأمرتها بإرسالى. فخرجت وأنا مندهشة فحيانى سكرتير محمد باشا سعيد وكان فى ذلك الوقت رئيساً للوزراء وطلب منى أن أركب إلى جانبه لنذهب إلى منزل الباشا للتدريس لبناته.

قلت: وما السبب فى وقوع اختيار الباشا علىّ؟ قال: وقد أشار إلى نسخة من صحيفة "مصر الفتاة" كانت فى يده: إن الباشا اطلع على هذا المقال، وقال لسعد باشا إنه مادام فى مصر معلمات يجدن اللغة العربية إلى هذا الحد فهو لا يرضى أن يعلم بناته رجال. وكان فى ذلك ولا شك قطع رزق لرجال دار العلوم أيضاً. فقلت له: ولكنى لست أنا بكاتبة ذلك المقال، فإذا كان قد وقع الاختيار علىّ على زعم أنى كاتبته فأرجوك أن تعيدنى إلى المدرسة. قال: لسنا بصدد التحقيق معك يا سيدة وقد جئت بأمر من وزير المعارف لتدرسى لبنات رئيس الوزراء. قلت: على شرط أنى لست كاتبة هذا المقال. قال: لا بأس فقد قبلنا هذا الشرط.

ثم أخذ يسرد لى الأسباب التى كنت أجهلها فيما وقع بين الناظرة ووزير المعارف. وتصفحت المقال فرأيت لدهشتى أنه كان مدحاً لسعد باشا زغلول فقد اختارت الناظرة نسخة وكان المقال الذى بها لحسن الحظ مدحاً لسعد باشا زغلول قلت فيه إنه مع نبوغ وزير المعارف وعلو كعبه فى العلوم وإنه خير مصرى لذلك المركز فهو مع ذلك لا يستطيع إصلاح المدارس لأن المدارس لا تصلح إلا بمن فيها. وهكذا كان فى المقال مدح مستطاب للوزير ونقد مر على نظم التعليم خصوصاً تعليم اللغة العربية.

أعجب المغفور له سعد باشا زغلول بالمقال طبعاً لأنه مدح فيه وقال للناظرة بعد أن قرأه: هل انتِ واثقة أن هذا من كتابتها؟ قالت: نعم تمام الثقة. قال: بشرك الله بالخير إذا كان فى مدارسنا الآن مثل هذه الكاتبة. قالت: ولكن الكتابة فى الصحف محرمة على الموظفين. قال: نعم ولكنى لا آخذها بالشك ولا أعاقبها على الكتابة فى الصحف إلا إذا جاءنى منها إمضاء صريح بأنها هى التى تكتب تلك المقالات. ولهذا جاءت الناظرة تطلب منى أن أكتب بامضائى للوزير ليصححه وكنت على حق إذ رفضت ذلك. وقد أعجب سعد باشا زغلول بالمقال فأخذه وذهب به إلى سعيد باشا وأخبره أن كاتبة ذلك المقال هى نبوية موسى إحدى خريجات المدرسة السنية. وسر سعيد باشا لهذا النبأ وطلب أن تدرِّس تلك الكاتبة لبناته اللغة العربية.

ذهبت إلى منزل المغفور له محمد باشا سعيد فقابلنى فى غرفة الاستقبال وكان واقفاً يتأهب للخروج. وبعد أن حيانى قال لى أعجبتنى آراؤك فى المقال الذى أطلعنى عليه سعد زغلول باشا. قلت: ولكنه ليس من كتابتى. قال: لقد وقع اختيارى عليك مدرس لبناتى فلا معنى للتنحى وقد أخبرنى سعد باشا أيضاً أنك أول معلمة عينت لتدريس اللغة العربية. قلت: ولكن الرجال غير راضين عن تدريسى. قال: لا بأس أما أنا فإنى راض. وقد كنت فى ذلك أحاول أن لا أدرِّس فى المنازل لأنى كنت أعدها سبة. ثم قال: ستعطين بناتى هنا أربعة دروس فى الأسبوع وقد جعلت مرتبك عن هذا سبع جنيهات. قال ذلك وتركنى وخرج دون أن ينتظر منى جواباً. وجاءتنى بعد ذلك السيدة حرمه وهى من فضليات نساء مصر كمالاً واستقامة مع جمال طبيعى فتان. فقدمت لى بناتها وكن ثلاثاً: حضرة صاحبة العصمة زينب هانم والدة حضرة صاحبة الجلالة الملكة فريال وحضرة صاحبة العصمة ناهد هانم حرم معالى حسين سرى باشا وشقيقتهما الثالثة بديعة هانم وقد توفيت إلى رحمة الله.

كنت غير راضية عن هذا الدرس لأنى كنت أعده سبة وكنت أخشى أن التلميذة التى أدرس لها فى المنزل قد لا تمنحنى من الاحترام ما يجب لمعلمة تدرس فى المدارس خصوصاً وهؤلاء الثلاث بنات أعلى رأس فى مصر إذ ذاك وقد خشيت أن يعتبرننى من بعض الحاشية ولكنى وجدت من أدبهن وحسن معاملتهن ما غيرَّ رأيى وحببنى فى

التدريس لهن. أدب رائع، ووجوه بريئة مشرقة سطع فيها دم الحياة الطبيعية لا الدم الصناعى فكان النظر إليهن والبقاء معهن متعة. كان يجب أن أدفع أنا عنها عشرين جنيهاً شهرياً على أقل تقدير لا أن آخذ سبع جنيهات فالصفقة إذن كانت رابحة وقد أرادت الناظرة أن تضر بى فنقمتنى وهكذا كنت بحسب ما تلوكه الألسن من الإشاعات كالعفريت الذى إذا ضرب ولم تصبه أصبح مارداً (كما يقول عامة الناس خصوصاً الفلاحين منهم).

كانت المدرسة والناظرة نفسها تخشانى بعد هذا لأنى اتصلت بوزير المعارف على زعمهم بل وبمن هو أعلى منه.

أما معلمو اللغة العربية فقد زاد سخطهم إذ علموا أنى لم أحل محلهم فى المدارس فحسب بل حللت محلهم فى منازل العظماء من رجال مصر فلا بدع أن سميت فى نظرهم قاطعة الأرزاق. ومن هنا أصبحت أكره البقاء فى وزارة المعارف وقد كنت بفريزتى الطبيعية ميالة إلى العمل الحر فكنت تجد بين أوراقى وأنا لا أزال طالبة فى معلمات السنية رسماً بديعاً للمدرسة التى كنت أنوى فتحها على حسابى يوم أتخرج ولهذا كنت حسب تعبير على ماهر باشا الأخير أحفظ استقالتى فى جيبى وأرحب بالظروف التى تدفعنى إليها.

نفعنى الصدق
مرة واحدة فى حياتى

تعينت كما قدمت يوم تخرجت من المدرسة السنية معلمة المدرسة عباس بمرتب ٦ جنيهات شهرياً وكنت فى ذلك الوقت أتقاضى معاشاً عن المرحوم والدى ولم يكن يشترط فينا نحن البنات التوظف أو عدمه بل كانت الشهادة التى تصدر إلى الرزنامة كل ٣ شهور يقول فيها كاتبوها إنها لم تتزوج ولم تمت ولم تخرج عن دائرة الحكومة المصرية. ومع أنى توظفت فقد كانت شروط الشهادة كلها متوفرة فى. ولكنى ظننت أنه لا يجوز لى أن استولى على مرتبين من الحكومة فى وقت واحد فأخذت سركى معاشى وذهبت إلى الكاتب الذى كنت أستلم منه المعاش وسألته عما إذا كان يجوز لى أخذ هذا المعاش بعد تعيينى معلمة فى وزارة المعارف واستيلائى على مرتبها؟ فقال لى: لا يجوز لكِ هذا، ولكنه أظهر العطف علىّ ورأى أنى لو أخفيت هذا لاستطعت أن أتمتع بالمرتبين فقال لى فى شىء من الرأفة والعطف: قدمى إلىّ خطاباً بانك ستتزوجين وأنا أعطيك مكافأة هى مقدار معاشك مدة ٣ سنوات. قلت: ولكنى لا أريد الزواج. قال: لست آمرك بالزواج ولكنى أقول لك أكتبى لى خطاباً ولدينا أوامر من الحكومة نفسها تحتم أن لا نتحرى عن هذا فإذا جاءتنى فتاة تسكن بجوارى وأخبرتنى أنها ستتزوج وأنا أعلم حقيقة العلم كذب ما تقول فإنى أصرف لها المكافأة لأنها تصبح بعد ذلك لا حق لها فى المعاش فاكتبى هذا الخطاب اليوم وبعد أسبوعين أسلم لكِ المبلغ. قلت: ولكنى لا أستطيع أن أكتب أنى سأتزوج لأنى لن أتزوج فاحتد الرجل وأخذ منى السركى وهو يقول (هى الكلمة حتقرصك؟ إن شاء الله ما اتزوجتى).

ضاع منى إذن بهذا الصدق الحنبلى مبلغ معاشى لمدة ٣ سنوات ولكنى لم آسف عليه.

خرجت بعد ذلك من وزارة المعارف كما يشهد التاريخ وأرادوا نكاية بى أن يحرمونى

حتى من المعاش فبقيت بلا معاش ثمانى سنوات وبعد أن خرجت بثلاث سنوات جئت الرزنامة استلم معاش والدتى. وفى دعابة قصصت على كاتب المعاشات هناك حكايتى مع ذلك الكاتب القديم أى زميله السابق يوم سلمته سركى معاشى وعجب الرجل من تلك الحكاية المدهشة وظن أن بها رتوشاً أو أنها بعيدة عن الحقيقة فقال لى: إذا كان هذا صحيحاً فإنى أستطيع أن أرد لك معاشك بعد ما لا يزيد عن غمضة عين فاكتبى الطلب الآن. وكان وزير المالية فى ذلك الوقت صاحب الرفعة على باشا ماهر وخشيت أن يقف فى الموضوع فقلت: وهل يعرض هذا على معالى الوزير؟ قال: لا. إن هذا روتين فأنت لم تتزوجى إلى الآن ولست بموظفة ولا من أرباب المعاشات فلابد من رد معاشك. فأطعته وكتبت له الطلب وأنا واقفة أمامه ورجوته أن يتتبع سيره وبعد أسبوع جئت أسأل عن طلبى فقيل لى إنه فى مكتب الوكيل وكان الوكيل فى ذلك الوقت المرحوم أحمد باشا عبد الوهاب. وكان يعرف ما بينى وبين رفعة ماهر باشا ويظهر أنه خشى أن يوافق عليه فيلومه الوزير فكتب على الطلب "موافق ويعرض على معالى الوزير" ولما ذهبت إلى المكتب استعلم عن سير طلبى قيل لى أن اسأل عنه فى مكتب معالى الوزير قلت: إذن أرسل إلى هناك؟ قالوا: نعم..

قلت: لا أخرجه الله من ذلك المكتب بتاتاً ثم ذهبت إلى صاحبى الكاتب الذى أمرنى بتقديم الطلب وقلت له: إن الطلب قد أرسل إلى مكتب معالى الوزير ولا أظنه خارجاً إلى يوم الحشر فارجوك إن بلغك شىء عنه أن تخبرنى بما يتم فيه. وبعد أسبوع واحد خاطبنى ذلك الرجل تليفونياً وقال لى أن أحضر إلى الرزنامة لاستلام السركى فذهبت لاستلام السركى معاشى عن والدى بعد أن خدمت الحكومة عشرين عاماً وقضى الظلم أن أخرج منها بلا معاش وكان فى ذلك الوقت قد مضى على خروجى من وزارة المعارف ٣ سنوات وكانت الوزارة تناوئنى فلم تسمح لى بمكافأتى ولا بأجرة منزلى الذى كان هو كل ما أمتلك فى هذه الدنيا ولهذا كنت فى أشد حالات الضيق المالى وإن كان الناس والحمد لله يعلمون عنى فى ذلك الوقت غير الحقيقة.

صرف لى فى ذلك الأسبوع نفسه جملة المتجمد من معاشى عن والدى من يوم أن خرجت من الحكومة أى منذ ٣ سنوات فاستلمت المبلغ الذى كان الرجل قد عرض علىّ

استلامه بالكذب... استلمته بالحق وفى وقت كنت فى أشد الحاجة إليه وهكذا نفعنى الصدق فى حياتى مرة بعد أن أذاقنى المر مراراً.

وعلى ذكر المعاش أقول إنه بعد استلامى المعاش بشهور أرسلت إلىّ وزارة المالية إذناً بمبلغ المكافأة على اعتبار أن لا حق لى فى المعاش فأخذت المبلغ وكتبت إلى المالية خطاباً أقول لها فيه إنى استلمت الإذن الذى أرسلته إلىّ على اعتبار أنه من معاشى تحت الحساب إذ مضى علىّ الآن أكثر من ٣ سنوات لم أستلم معاشى الشهرى وكان ذلك المبلغ الذى استلمته يساوى معاشى لمدة ٨ سنوات وقد أخذته وصرفته على التعليم الذى ابتلانى الله بحبه. وكنت أخشى بعد هذا إذا سوى معاشى أن يطلب إلىّ رد المكافأة ولم يكن معى منها شىء وكنت أرسل إلى المالية كل عام خطاباً أطالبها فيه بصرف معاشى حتى لا يضيع حقى فى المعاش ولكنى لم أكن اسعى وراء ذلك الخطاب لانفذه خشية أن يطلب منى رد المكافأة إذا سوى المعاش وظلت المسألة معلقة إلى أن تولى وزارة المالية حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا وكان بينى وبين ذلك الرجل العظيم صداقة إذ كنت أدرس لبناته فكنت مطمئنة على معاشى مادام تحت يده ولشد ما كانت دهشتى إذ علمت أن لجنة المالية قد تشكلت برياسته وقضت بحرمانى من المعاش لأن المحكمة حكمت لى بتعويض مالى مقداره ٥٥٠٠ جنيه وهو منطق غريب من لجنة المالية لأن المحكمة التى حكمت بذلك المبلغ قالت فى حيثيات الحكم إنى ظلمت بإحالتى على المعاش ولهذا قضت بتعويضى بذلك المبلغ عن ذلك الظلم وإذا كانت المحكمة تعتبر أنى ظلمت مع بقاء معاشى فلست أدرى وأيم الحق كيف تحكم اللجنة بحرمانى حتى من المعاش لكى يصبح الظلم ظلمين. ولكن هل يستطيع أحد أن يقول للقوى إنك على خطأ أو أن ما فعلته ظلم؟ وقد ذهبت إلى دولة صدقى باشا أكلمه فى الأمر فى منزله فأظهر شيئاً من الأسف ولكنه لم يفعل شيئاً. وأخيراً ذهبت إليه فى مكتبه فلم استطع مقابلته وقال لى سكرتيره الخاص: لا تيأسى فقد يرجع دولة الباشا عن رأيه إذا استعنت بمن يفهمه الحقيقة. قلت: إنه يعرف من أمرى ما لم يعلمه غيره فمن الذى ألجأ إليه ليفهمه ما هو فاهم؟

نعم إن صدقى باشا قد حدد عمر وزارته بعشر سنوات ولكن من يعلم ماذا يأتى به

الغيب؟ وإذا ظل فى الحكم عشر سنوات كما يظن فسأتحملها وسأطالب بحقى بعد ذلك.

وشاء الله أن يخرج صدقى باشا من الحكم مباشرة وأن يتولى وزارة المالية بعده حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا والرجل كما يعلم الناس جميعاً شديد صلب فى الحق فقابلت حضرة صاحبة العصمة حرمه وكنت أعرفها من المدرسة السنية فلم تشأ عصمتها أن تسمع منى شكايتى بل قالت لى فى جرأتها المعروفة: لقد علمت من زيارتك لى أنك تطلبين شيئاً من زوجى فحددت لكِ موعداً لمقابلته غداً قبل ان أراكِ وقلت له: إنك على حق فيما تطلبين لما أعرفه من صفاتك أثناء التلمذة وطلبت منه أن يساعدك بكل ما يستطيع وهو على استعداد فاذهبى إليه ولا داعى لشرح شكواك.

أكبرت فيها تلك الهمة وذهبت إلى دولته فى اليوم التالى فأنهى المسألة فى أسبوع واحد وكان ذلك فى آخر عام ١٩٣٣ أى بعد خروجى من الوزارة بثمانى سنوات تقريباً وقبل أن يسلم إلىّ السركى حصل ما كنت أتوقعه فطلب منى رئيس الرزنامة رد المكافأة وقال لى بهذا التعبير "إيدك على المكافأة التى أخذتها" قلت "لا يا سيدى إيدك أنت على صرف معاشى عن هذا الشهر لأنه لم يبق من المكافأة شيء إذا حسبت حقى فى المعاش عن كل تلك المدة" وكان قولى هذا صحيحاً فقد اتضح أن لى عندهم بضعة قروش. فكان إذن من صالحى أن أتأخر كل تلك المدة عن صرف المعاش وإلا اضطررت إلى رد المكافأة التى لم يكن فى الإمكان ردها بحال من الأحوال.

استلمت سركى معاشى واضطررت أن أسلم سركى معاشى عن والدى وقد كان أثراً طيباً أحب الاحتفاظ به ولكنى سلمته مرغمة.

عزة النفس تقضى علىّ دائماً

كنت من صغر سنى ضعيفة النظر ولولا قلة المتعلمات فى ذلك الوقت لما تمكنت من دخول المدرسة السنية ولا صرح لى بأن أكون معلمة لأن كتب التربية تقضى بأن يكون المعلم حسب وصفهم ملء المسامع والأفواه والمقل. أى أن يكون عظيماً فى شكله، حاد الحواس، حتى يستطيع أن يضبط نظام التلاميذ. وقد كنت أنا على العكس من ذلك قصيرة القامة، نحيلة الجسم، ضعيفة البصر وإن كان منظر عينى لم يكن يدل على شيء من ذلك الضعف، بل كان من يراهما يحسبهما من أحسن العيون.

على إن التجارب العملية أثبتت كذب ما يذهب إليه علماء التربية. فقد كنت على صغر حجمى، وضعف بصرى، أستطيع حفظ النظام إلى حد بعيد، لا ينافسنى فيه معلم آخر. وهكذا نحمد الله على قلة المتعلمين والمتعلمات فى ذلك العهد. ولولا تلك القلة لما استطعت أنا أن أعمل فى معاهد التعليم شيئاً.

نجحت فى دبلوم معلمات السنية وعملت كما قدمت معلمة، وبعد مضى سنتين أرادت الوزارة تثبيتى، فأحالتنى على الكشف الطبى، وكان القائم بذلك الدكتور فيشر فدهش عندما رأى ضعف نظرى، وحتم علىَّ أن ألبس النظارات، وكانت بالطبع النظارات ثقيلة جداً، وقد تألمت فى أول لبسها لثقلها، وكان قد أمرنى أن أعود إليه بعد أن ألبسها أسبوعاً. فعدت وقلت له: إنى لا أستطيع الاستمرار على لبس تلك النظارات الثقيلة. فنظر إلىَّ وكأنه أنف أن يرد علىَّ الجواب. ثم التفت إلى مساعده وقال له: فهم هذه أنه يجب عليها لبس تلك النظارة. وساءنى احتقاره، فتألمت ونظرت إلى مساعده قائلة: دع صاحبك هذا يفهم أنى لن ألبسها. وكان المساعد لم يبدأ كلامه ثم ألقيت بالنظارات أمامهما وخرجت مسرعة.

وكتب الدكتور فيشر بعد ذلك تقريره فقال فيه إنى سأفقد الإبصار بعد سنتين على الأكثر وأن عيونى لا تتحمل قراءة ثلاثة كتب وأنه لا يوصى مطلقاً بتثبيتى. وبلغنى هذا

فكتبت للوزارة أقول إنى لا أستطيع العمل فى الحكومة إلا مثبتة وإنهم إذا لم يثبتونى وجب عليهم أن يعتبروا خطابى هذا استقالة. وقامت الوزارة وقعدت لذلك النبأ إذ لم يكن قد توظف فى خدمة الحكومة من معلمات السنية إلا خمس معلمات قبل تخرجى وثلاث زميلاتى. وكانت الوزارة فى حاجة شديدة إلى معلمات لكثرة المعلمين وقلة المعلمات.

فأكثرت الوزارة من إرسال المفتشين للتفتيش علىَّ والتبين من كفاءتى العلمية ومقدرتى على حسن النظام. وقد أثبتت تقاريرهم أننى أحسن المعلمات نظاماً وتدريساً وقد مللت من كثرة المفتشين، وقضت علىَّ عزة النفس أن أباشر التدريس واقفة، لا اجلس مطلقاً حتى لا أضطر إلى القيام إجلالاً لدخول مفتش على كثرة هؤلاء المفتشين. واخيراً زارنى مستر دانلوب مستشار وزارة المعارف بنفسه ولم أكن أعرفه شخصياً وكنت قد تضايقت من كثرة المفتشين وعوَّلت على أن لا أعبأ بأحد منهم.

فلما دخل علىَّ مستر دانلوب وناظرة المدرسة وكنت بالطبع واقفة أدرس أمرت التلميذات بالوقوف ثم بالجلوس وسرت فى درسى دون أن التفت إليه. وتناول هو كراسة التحضير وكان بها جملة من الأوراق الصغيرة إذ كنت أؤلف كتاباً للمطالعة. وقد تركت أصول ذلك الكتاب فى دفتر التحضير فتناثرت الأوراق على الأرض تحت أقدام الطالبات. ومال هو لالتقاطها وأرادت بعض التلميذات أن تساعده فى ذلك فامرتهن بالكف عن هذا والالتفات إلى الدرس وتركته يلتقط الأوراق بنفسه وسرت فى درسى دون أن تلتفت إليه التلميذات فاعجبته قوة روحى فى حفظ النظام والتقط جميع الأوراق بنفسه ووضعها فى الكراسة كما كانت ثم وضعها على منضدة المدرس.

كل ذلك وأنا لم ألتفت إليه ولم احسب حساباً لوجوده. وكانت السنة التى أدرس فيها الرابعة الابتدائية وكنت أقرأ معهن قطعة إملاء أمليتها عليهن أمس، وأخذت منها موضوعاً للمطالعة وكانت إحدى التلميذات متغيبة فى درس الإملاء أمس ولم يكن أمامها كراسة بل كانت تستمع لما يقال. وظن مسر دانلوب أنى لم أرها فقال لى: ألا ترين فى فصلك هذا مخالفة لنظم التدريس. فقلت: أتقصد هذه التلميذة الجالسة فى آخر الحجرة التى ليس أمامها كراسة؟ وكان الرجل يظن أنى لضعف نظرى لا أرى ذلك. فدهش وقال: نعم.

قلت: إننا نطالع فى كراسة الإملاء التى أمليتها أمس عليهن وقد كانت تلك التلميذة متغيبة فالإملاء ليست مكتوبة فى كراستها ولهذا لم آمرها باخراجها. قال: أو ليس من حسن النظام الظاهرى أن تخرج تلك التلميذة كراستها وإن لم يكن الإملاء مكتوباً فيها؟

قلت: كلا أنا لا يهمنى الظاهر وإنما يهمنى النظام الحقيقى وفائدة التلميذات فإن تلك التلميذة لو أخرجت كراسة ليس فيها الإملاء ونظرت إليها لشغلها ذلك عن تفهم درسنا اليوم إذ هى تنظر إلى غير ما نقرأ نحن فيه. أما إذا جلست بدون كراسة فإنها مضطرة أن تصغى إلى ما يقرأ. قال: صدقت. ثم قال: وما درسك اليوم؟ قلت: مطالعة. قال: إن الوزارة قررت أن تطالعى فى كتاب الفوائد الفكرية من صفحة كذا إلى صفحة كذا وأنت اليوم تخالفين هذا وتطالعين مع تلميذاتك فى شىء لم تقرره الوزارة. قلت: لقد فهمت من هذا القرار الذى قررته الوزارة أنها تريد أن تحدد لى كمية ما يجب أن تقرأه التلميذات لا أن تضطرنى إلى قراءة كتاب لا يفسد ذوق التلميذات فى اللغة العربية فحسب بل يفسد ذوقى أنا الأخرى. فنظر إلىَّ وقال: ومن أين أتيت بتلك الإملاء؟ قلت: لقد وضعتها أنا خصيصاً لأنى فى صدد تأليف كتاب مطالعة لهن. فأنا أملى عليهن أصول كتابى. قال: وهل أنت واثقة من أنك لم تخطئى فى تلك الأصول؟ قلت: لقد عينتنى الوزارة هنا لأدرس اللغة العربية ومعنى هذا أنى أعلم الطالبات المطالعة والإنشاء فإن كنت أنا نفسى لا أحسن ذلك كان الخطأ واقعاً على الوزارة التى عينتنى لأنها عينت معلمة تجهل اللغة لتدرس تلك اللغة. أما أنا فإنى أقوم بواجبى كمعلمة تعرف تلك اللغة فإذا اتضح للوزارة غير ذلك كان لها أن تفصلنى.

قال: ترجمى لى تلك القطعة. فترجمتها وسر منها ثم قال: ومن أين جئت بتلك الأفكار؟ قلت: لقد قرأت كثيراً ولكنى لا أذكر بالذات أنى نقلتها من كتاب خاص. قال: إذن كل ما تملينه على الطالبات وكل ما تطالعينه معهن من إنشائك؟ قلت: نعم. قال: ولم لا تقرأين فى كتاب الفوائد الفكرية؟ قلت: لأنه لا يعجبنى. قال: وهل أنت أفضل من عبد الله باشا فكرى؟

قلت: كلا ولكنه مات ولو بقى إلى الآن لغير كتابه حسب تغير الزمان فأنا أفضل

منه من تلك الوجهة إذ أنا لا أزال باقية أعرف تغيرات الدهر وقد مضى هو، هذا فضلاً عن أنه رجل قد لا يعرف ما تحتاج إليه السيدات، أما أنا ففتاة أعرف ما تحتاج إليه الفتيات، خصوصاً وأنى أعاصرهن الآن. قال: الا تجدين صعوبة فى التدريس لضعف بصرك؟ قلت: لا أجد من ذلك شيئاً لأنى كما ترى أستطيع أن أطالع كما أستطيع أن أرى آخر تلميذة فى الفصل ولا يطلب من المعلمة إصابة المرمى الدقيق كما يطلب من الضباط والعساكر. قال: صدقت ولكنك تجيدين حفظ النظام إلى درجة بعيدة. فكيف تجيدين هذا مع ضعف نظرك؟ قلت: إنى أحفظ النظام بمخى لا ببصرى. ويكفى أن ترى منى الطالبات عينين سليمتين إذا رفعتهما فى طالبة ارتعدت وظنت أنى لا أرى وجهها فقط بل أرى دخيلة نفسها وهذا على ما أظن كاف فى حفظ النظام. قال: صدقت.

ثم التفت إلى الناظرة وقال: الحق أنى لم أناقش معلمة ولا معلماً فى منطق هذه المعلمة. قالت: صدقت يا مستر دانلوب فهى دائماً قوية المحاورة. وهنا عرفت أنا أن مخاطبى الذى كلمته بجفاء هو القابض على زمام الأمور فى وزارة المعارف وكدت ارتجف لولا رباطة جأش ربيت عليها، وذهب مستر دانلوب بعد ذلك إلى وزارة المعارف وقال: لو قيل لى أن نبوية موسى عمياء لا ترى ضوءاً لثبتها. ثم أراد بعد هذا أن يغير من تقرير الدكتور فيشر الذى تركت له نظاراتى بعد أن دفعت فيها ثلاث جنيهات فطلب من مسز الجود أن تكون الوسيطة بينى وبين الدكتور فيشر لتعديل تقريره وجاءتنى مسز الجود وقالت أريد أن تذهبى مرة أخرى إلى الدكتور فيشر. فقلت: لست بفاعلة ولو أدى ذلك إلى فصلى. قالت: ولكنى لم أسىء إليك وأنا صديقتك وسأذهب معك وأمنعه من أن يكلمك. قلت: إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.

ذهبنا إلى الدكتور فيشر فأخذ يلاطفنى ويقول لى يظهر أن الوزارة ليس عندها غيرك وما دام الأمر كذلك فنحن نقبل نظرك على العين والرأس ثم أصلح من تقريره وكتب تقريراً مناسباً. وثبتت بقرار من مجلس الوزراء.

وعلى ذكر الدكتور فيشر أقول إنى فى سنة ١٩١٤ أى بعد أن مضى على تلك الحادثة خمس سنوات أردت أن آخذ رأيه فى مسألة بصرى فذهبت إليه فى عيادته

كإحدى المريضات فلما نظر إلى وكان هو الذى يكتب فى دفتره أسماء المرضى رأيته يكتب اسمى دون أن يسألنى فعرفت أنه لا يزال يذكرنى فقلت له: ما رأيك؟ هل سأفقد البصر قريباً؟ فضحك وقد تذكر تقريره الذى قال فيه إنى سأفقد بصرى بعد سنتين وكان قد مضى على ذلك التقرير خمس سنوات ثم قال: لا خوف على بصرك الآن فإنه على ما يظهر لى يتحسن. وهكذا الفيظ يغير حتى التقارير الطبية التى يجب أن تكون ثابتة.

تدريسى اللغة العربية للمعلمات الانجليزيات

سمح لى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله بتدريس اللغة العربية فانتهز المعلمات الإنجليزيات هذه الفرصة وطلبن من الوزارة أن تكلفنى تدريس اللغة العربية لهن لأنهن بالطبع يستطعن التفاهم معى لمعرفتى اللغة الإنجليزية أما المشايخ فقد كان تخاطبهن معهم بالإشارة وربما أدت تلك الإشارات إلى عكس المعنى المطلوب وكان هذا سبباً فى أن أعرف من عادات الإنجليزيات الشىء الكثير. والإنجليز يعملون لأمتهم الدعاية الكافية التى تجعل الأمم الأخرى تثق بهم ثقة عظيمة.

عرفت ذلك من ميول تلميذاتى الإنجليزيات وإن كن فيما مضى معلماتى، فلم أشأ أن أجاريهن فيه فكن أثناء درس المحادثة إذا طلبن منى أن أروى لهن خرافة مصرية طلبت منهن أن يسردن لى خرافة إنجليزية لأشرح لهن أنا خرافة مصرية على طرازها فكن فى أول الأمر يرفضن ذكر خرافات إنجليزية مدعيات أن إنجلترا لا خرافة فيها. ولكنهن اضطررن أمام إصرارى على أن كل بلد لا تخلو من الخرافات، واستشهادى ببعض ما كنت اقرأه من الكتب الإنجليزية.... اضطررن أن يروين لى خرافات إنجليزية وأروى لهن خرافات مصرية مثلها.

عرّفت الإنجليزيات أنى أدافع عن عادات بلادى ولا أرمى أهلها بسوأ فاقلعن عن تجريح المصريين أمامى ووافقننى على رأيى من أن كل الشعوب لا تخلو من أخيار، كما لا تخلو من أشرار، وأن الله لم يخلق أمة من ملائكة وأخرى من شياطين وفى ذلك تقرير لحقيقة أومن بها كل الإيمان.

أقامت المعلمات الإنجليزيات حفلة شاى دعت إليها بعض المصريات وكنت بالطبع من بين هؤلاء المصريات وأخذنا نتحدث أثناء تناول الشاى فى مختلف الشؤون وفجأة عرضت إحدى المصريات إلى ذكر بعض المومسات وسألت إنجليزية عن مرادف كلمة مومس باللغة الإنجليزية فدهشت الإنجليزية لذلك وقالت إن تلك المرأة غير موجودة فى

إنجلترا ومادام المسمى لا وجود له فليس له بالطبع اسم فى قواميس اللغة. ودهشت المصريات لذلك وأخذن يسألن أسئلة مختلفة عن الحالة فى إنجلترا وانبرت إنجليزية غيورة على بلادها تصف لهن إنجلترا بأنها بلاد الخير والعلم ولا أثر للشر فيها واندفعت فى ذلك اندفاعاً نسيت معه الحقيقة فأخذت تزعم أنه ليس فى إنجلترا كذوب ولا غشاش ولا لص ولا محتال. وأخذت المصريات تقول إن مصر ليس فيها من يصدق أو من يفى بوعده وإن كل المصريين خونة لا أثر للفضيلة فيهم وساءتنى تلك الدعاية الكاذبة التى تقوم بها زميلاتى ضد بلادهن ولكنى سكت إلى أن هدأت العاصفة ثم التفت إلى تلك الإنجليزية المتحمسة وسألتها ببساطة: هل فى إنجلترا محاكم وسجون؟ فدهشت وقالت: إنه لسؤال عجيب ويظهر أنها ظنت فىّ الغباء فقلت لها: لا عجب يا سيدتى من سؤالى هذا فإنى لم أتشرف بزيارة إنجلترا قالت: لا بأس وأخذت تصف لى سجون لندن واتساعها وتنسيق غرفها وهنا أظهرت الدهشة وقلت فى شىء من السخرية: وهل بنيت هذه السجون يا سيدتى لتكون مأوى المصريين عند ذهابهم لتمضية الصيف فى إنجلترا مادام ليس فى الإنجليز كذاب ولا غشاش ولا قاتل ولا شرير؟

ارتج على السيدة الإنجليزية فلم تحر جواباً وكانت غريبة لا تعرفنى أما المعلمات الإنجليزيات اللائى خبرننى وعرفن حوارى فقد نظرت كل منهن إلى فنجان الشاى الذى تشربه واشتغلت به عن الرد علىّ. وقوى ذلك من عزيمتى فقلت للسيدة التى كانت تناقشنى: لا شك يا سيدتى أن هذه السجون مملوءة بالإنجليز أنفسهم. وهنا لا يخرج كلامك عن أحد أمرين، فإما أن يكون كلامك لا صحة فيه ولا حقيقة له، وإما أن تكونى صادقة وليس فى إنجلترا لا لص ولا شرير. وهنا تكون النكبة الكبرى لأن قضاة الإنجليز يكونون بسجنهم هؤلاء الناس الأبرياء ظالمين. ومصر إذا كان فيها من الدهماء اللص أو الكذوب فإن قضاتها قد اشتهروا بالعدل والنزاهة فلا ظلم فى قضاء مصر ولا إحراج. أفلا ترين بعد هذا أن مصر أفضل من إنجلترا؟

فسكتت ولم تستطع الإجابة وتشاغل عنى باقى الإنجليزيات ثم التفت إلى المصريات وقلت لهن: لقد علمتن من ذلك النقاش أن تلك السيدة الإنجليزية كانت

تكذب لصالح بلادها وهى تشكر على ذلك أما أنتن فيسوءنى جداً أن أقول إنكن كذبتن كذباً واضحاً فى إدعائكن أن مصر ليس فيها وفي أو صادق وليتكن اقترفتن جريمة الكذب هذه لصالحكن أو لصالح بلادكن بل لسوء حظ مصر أنكن تقترفن جريمة الكذب للدعاية ضد بلادكن، تلك البلاد المسكينة التى أنجبت ناراً تحترق بها على أنكن فى ذلك الإدعاء قد أسأتن إلى أنفسكن لأنكن وأنتن تعترفن صراحة وأمام زميلاتنا الإنجليزيات أنه ليس فى مصر صادق ولا أمين قد سجلتن على أنفسكن وصمة عار الكذب والخيانة لأنكن لسوء الحظ مصريات ينطبق عليكن ما ينطبق على جميع المصريين.

الحرية وهل لها مسمى؟

كنت شغوفة بلفظ الحرية وكنت أحسب أن لها مسمى حتى علمنى الدهر أن الحرية والعدل اسمان وهميان لا حقيقة لهما. دفعنى حبى لتلك الحرية الموهومة أن أطلب الخروج من خدمة الحكومة لأكون ناظرة للمدرسة المحمدية فى الفيوم التى انشأها مجلس المديرية فى ذلك الوقت. وكنت أعتقد كل الاعتقاد أن العمل فى تلك المدرسة عمل حر لا تدخل لأحد فيه.

وكان أن ذكر المغفور له سعد باشا اسمى أمام حضرة صاحب الرفعة محمد باشا محمود وروى له رواية المقالة وكيف اختارنى محمد باشا سعيد معلمة لبناته.

كان محمد باشا محمود فى ذلك الوقت قد أنشأ المدرسة المحمدية فى الفيوم وعين لها ناظرة إنجليزية ولكنه اختلف معها فتركت المدرسة لخلافٍ اعتبرت فيه أن المصريين لا يفهمون النظافة. لأنها طلبت من مجلس المديرية أن يرصف فناء المدرسة بالاسفلت على اتساعه فلم يجد المجلس فى ماليته ما يقوم بذلك. وتضايقت الناظرة لعدم تنفيذ هذا المشروع لأن الفناء كان أثناء المطر يملأ بالوحول فتحمله أرجل الطالبات إلى فصول الدراسة فلما رفض المجلس طلبها تركته وأخذ المدير أى محمد باشا محمود يبحث عن ناظرة أخرى وما كاد يسمع باسمى حتى أخذ عنوانى من وزارة المعارف وكتب إلىّ لأقابله فى منزله بشارع الفلكى وهناك اتفقنا على أن أذهب معه إلى الفيوم لكتابة عقد التوظف مع المجلس ذاته.

وراقنى طلبه هذا وسررت له كل السرور لأنى شعرت أنى سأنال الحرية المرغوبة بعيداً عن الحكومة. وقد فاتنى فى ذلك الوقت أن أعرف أن مجالس المديريات هى أيضاً جزء من الحكومة وفى اليوم التالى سافرت معه فى قطار واحد، وكنا فى عطلة الصيف وما كاد القطار يصل إلى الفيوم وينزل منه حضرة المدير أى رفعة محمد باشا محمود حتى أخذ العساكر يدفعون الناس ليفسحوا له الطريق وكانت ضجة، وكان

زحام، اصطدم فيه كل الناس حتى أنا التى حضرت مع سعادة المدير نفسه.

هالنى ذلك السلطان العظيم للمدير، الشىء الذى لم أعهده فى عاصمة البلاد: القاهرة، فمحافظها يسير دون ضجة ولا جلبة. أما المدير فى المديريات فكأنه ملك وذكرتنى تلك الحادثة بحكاية رويت لى عن فلاحة رأت زحاماً على محطة السكة الحديد فى بلدها فسألت: علام ذلك الزحام؟ فقيل لها أنه الخديوى يشرف البلد قالت: "يا سلام والزيطة دى كلها علشان الخديوى، والله أنا باحسبه المدير". وهكذا عرفت فى ذلك اليوم من هو ذلك المدير العظيم.

استقل عربته وتبعته فى عربة أجرة إلى المديرية وهناك فى ساحة المديرية ما كدنا نصل حتى قابله العساكر بتلك التحية العسكرية المعروفة وقد صرخ فيهم رئيسهم "كركون سلاح" وتبع تلك الصرخة ضجة عظيمة من بنادق العسكر أفزعتنى ولم أكن رأيتها قبل ذلك. وتبعت المدير إلى غرفته وأنا أكاد أرتعد خوفاً فطلب أحد الكتبة وأمره بإعداد العقد فنظرت إليه وقلت له مع من؟ قال معك! قلت: أتعاقد أنا معك؟ أعوذ بالله! لقد اعتدت أن لا أخشى رئيساً وقد شتمت رئيستى قبل أن أحضر معك وإذا أنا ناقشتك فماذا يكون حالى وأنت هنا ملك يخشاك كل الناس، وتحت أمرك عسكر أزعجتنى تحيتهم لك؟ فأنا لا أقبل العمل معك ولن أستطيعه قال: ولكنى سأعاملك بالحسنى. قلت: إنك إن قلت لى كلمة فى المستقبل فسأقول لك عشراً. قال: ولكن هل تستطيعين إدارة المدرسة بنجاح؟ قلت: نعم. قال: لا بأس فلن أقول لك تلك الكلمة.

وعلى ذلك اتفقنا وأمضيت العقد وعدت إلى القاهرة، فقدمت استقالتى من وزارة المعارف وكان المغفور له سعد باشا زغلول وزير المعارف فى ذلك الوقت قد سافر إلى أوربا لتمضية الصيف وحل محله صاحب الدولة رئيس الوزراء محمد باشا سعيد الذى كنت أدرس لبناته فى ذلك الوقت فلما عرضت عليه الاستقالة رفض قبولها. وقابلنى فى منزله فقال لى: لابد من أن تسحبى استقالتك. قلت: لن أفعل قال: هذا أمرى. قلت: لقد أعطيت كلمة شرف، قال: سآمر المدير بتمزيق العقد "لأنه كان فى ذلك الوقت وزيراً للداخلية" قلت: ولكنى أعطيت كلمة شرف ولا قيمة للعقد بجانبها. قال: فهل تقدرين كلمتك أكثر من تقديرك لكلمتى؟ قلت: كلمتى تنفذ علىّ لأنى قلتها. قال:ولكنى

سأكون ضدك إن فعلت. قلت: لا بأس فلن نتقابل بعد اليوم. قال: سبحان الله إنك لعنيدة، وهلا تزالين على تصميمك بعد أن علمت أن هذا يغضبنى؟ قلت: نعم لأنه يرضينى. قال: إذن أحمد الله إذ لم تطل مدتك فى تعليم بناتى لأنك عنيدة وأخشى أن تسرى تلك الخلة منك إليهن. قلت: إذن قد عملت ما يرضيك فى تعاقدى بالفيوم فألقى بسبع جنيهات مرتب الشهر الآتى وقال: هذا مرتبك وشاورى نفسك لعلك تهتدين. قلت: لقد صممت. فخرج من باب وخرجت من الثانى.

وهكذا بدأت عملى فى الفيوم مغضوباً علىّ من رئيس الوزراء ووزير الداخلية الذى هو ولا شك رئيس المدير وإن كان لا يؤبه به فى المديرية بمقدار ما يؤبه بالمدير مرؤوسه.

حنبليتى فى البعد عن الرجال

رفض وزير الداخلية بالنيابة قبول الاستقالة وتركته كما قدمت وذهبت إلى رفعة محمد باشا محمود فوجدته متمسكاً كل التمسك بتنفيذ العقد الذى كتبته معه وهنا احترت فى أمرى ماذا أفعل؟ وقال لى محمد باشا إنه سيتوسط لدى الوزارة فى قبول استقالتى وطالت مدة انتظارى خطاب قبول الاستقالة من وزارة المعارف وكنت لذلك فى أشد الحرج والضيق هذا يطالبنى بتنفيذ العقد والوزارة تصر على عدم قبول الاستقالة وكنت أزور المرحومة باحثة فى البادية وكان حضرة الشيخ المحترم زوجها يقرأ ما أكتبه فى "الجريدة" ويقارنه بما تكتبه هى وكان يفضل كتابتى ولو على سبيل إحراج زوجته ومعاندتها. ويظهر أنها تضايقت من ذلك وأرادت أن يقابلنى هو بالذات ولعلها قصدت بذلك أن تريه أنى وإن كنت أساويها فى الكتابة إلا أنى لا أساويها فى الجمال فعرضت علىّ أن أقابل عبد الستار بك الباسل ولكنى لعلمى بشدة غيرة النساء على أزواجهن رفضت رفضاً باتاً أن أقابله ولهذا كنت إذا ذهبت إليها احتطت أن لا يرانى حتى ولا من ثقب الباب فكنت أجلس دائماً بجانب الباب المغلق فى الحجرة حتى إذا نظر أحد منه فلا يرانى.

وكان ذلك يضايقها وربما كان يضايق أيضاً عبد الستار بك وذهبت إليها وأنا فى حيرتى هذه فسألتنى عن كيفية خروجى من ذلك المأزق قلت: لقد فكرت فلم أجد لى مخرجاً من هذا إلا أن أتزوج وهذا العذر الشرعى يمنع الطرفين من التمسك بى ولكنى كما تعلمين لا أحب الزواج ولهذا عولت أن أتزوج بشخص أكون واثقة من أنه سيطلقنى فى ليلة العرس قالت: وكيف يتم لكِ ذلك؟ قلت: نعم لقد سمعت إحدى سمسارات الزواج تقول: إن رجلاً طلب منها أن تبحث له عن زوجة لا يشترط فيها إلا الجمال فقط فهو لا يشترط علماً ولا مالاً ولا يهمه إلا أن تكون زوجته ملكة الجمال فى الدنيا فإذا تم لى الأمر ورضيت تلك السمسارة أن تخدع الزوج فإنى لا أقابله إلا ليلة الزواج

بالطبع وهناك أرتدى ملابسى هذه التى ترينها أنت ويدخل الرجل وهو ينتظر أن يرى ملكة الجمال فى العالم وإذا به يرانى كما ترينني الآن. فهل تظنين أنه يتمالك نفسه من أن يضربنى أو ينتحر وهنا نقضى ليلة العرس فى القسم ويكون قد تم لى ما أردت فاتخلص من الوظيفة والزواج معاً.

كنت أقول ذلك وكان عبد الستار بك الباسل يسمعه من الغرفة المجاورة ومن هنا ثبتت فى رأسه فكرة أنى بشعة الخلقة إلى حد يجعل ذلك الزوج ينتحر فى ليلة العرس فلما ذهبت إلى الفيوم وكان عضواً فى مجلس المديرية كان أول ما فعله هو زيارة المدرسة ليرانى وعاد إلى زوجته فقال:

إنها ليست من الدمامة بالمقدار الذى كنت أتصوره وبديهياً إن هذا لا يدل على المدح ولكنه يدل على أنه كان قد أخذ عن صورتى فكرة غير واقعية فظننى غولاً أو ما شاكل ذلك من الحيوانات فلما رآنى لا أزال من الجنس البشرى الذى لا غرابة فى خلقته قال ذلك لزوجته ولكن الزوجة وخصوصاً الزوجة الفاضلة المستقيمة المتعلمة كالمرحومة ملكة شديدة الغيرة على زوجها الذى لا تعرف من الرجال غيره ولهذا حركتها تلك الكلمة وصممت عندما ذهبت إلى الفيوم إلا أن تضيفنى فى قصر الباسل واضطررت إلى إجابة طلبها لما بيننا من صداقة ولكنى ذهبت محتاطة فأخذت والدتى معى حتى لا أترك لعبد الستار بك سبيلاً إلى مجالستنا فى منزله وجاء طبعاً ليحيينى ورأى والدتى وقد سترت وجهها ولكنه جلس وهى عادة العرب فى إكرام الضيوف والمبالغة فى ذلك الإكرام ولكنى تضايقت لأنى عندما دخلت المنزل قالت لى المرحومة إنك أجمل من ذى قبل وهى تريد أن تقول: أقل دمامة من ذى قبل. قلت وما الذى تغير فىّ؟ أترين أنى غيرت شيئاً من خلقتى الطبيعية؟ قالت: كلا ولكنك تبدين فى نظرى مقبولة. تبين لى من تلك الكلمة أنها توجس منى خيفة ولهذا أردت أن لا يمكث زوجها معنا فتوضأت وصليت وإن كانت تلك ليست بعادتى فى كل الأيام فلما دخل وأراد أن يسلم علىّ باليد اعتذرت حتى لا ينقض وضوئى فجلس وقد شعر بشىء من الجفاء وهذا كل ما أردته. وأخذت المرحومة وكانت على ما يظهر لى مغرمة به.. أخذت تحادثه وتقول له: ألست فى حبى على رأى امرئ القيس حيث يقول:

أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

قال: فلتسأل نبوية عن رأيها فى معنى ذلك البيت. فقلت محتدة: أنا لا أسأل فى معنى الأبيات الغرامية وفى شكلى ولبسى وكلامى ما يمنع أى رجل من أن يسألنى ذلك السؤال فإن هو تجاهل كل ذلك فليس له إلا الضرب. ودهش الباسل وقال: لا شك أنكما من النساء وخرج وكان هذا كل ما أريد. وقد ساءنى أن يظهر على المرحومة شىء من الغيرة من فتاة لا تعرف الرجال فأقسمت أن لا أبيت فى ذلك المنزل إلا إذا دخلت أنا وهى فى غرفة وأغلقناها من الداخل وأخذت تستعطف فأرفض وأقول إن كلامك شككنى فى طهارة هذا البيت.

أليس للرجال بعد هذا أيها القارئ أن يكرهونى أو يصفونى بالجنون؟ وهل يلامون إذا فعلوا ذلك؟

انتهت الليلة على خير مايرام أو على أسوئه وفى الصباح استقليت أول قطار يترك قصر الباسل إلى الفيوم وظللت صديقة للمرحومة لأنى كنت أحبها كثيراً ولكنى لم أدخل منزلها بعد هذا لا لأنى كنت أشك فى طهارة زوجها ولكن لأنى لم أكن أريد أن يكون اسمى بأية حال موضعاً للشبهة.

وتصادف أن دخلت منزل المرحوم أحمد باشا الباسل لأزور زوجته فرأتنى المرحومة هناك. وقالت: إن عبد الستار بك مع الرجال وأريد أن أدعوه لمقابلتك. قلت: ولكنى يا سيدتى لا أريد مقابلته. قالت: اسمعى يا نبوية إنى أنا أريد أن أراه ولعلى اتخذتك حجة. فضحكت وقلت: لا أدرى لم تريدين ذلك وليس فى وجهه ما يعجب، وكانت شقيقة الباسل موجودة وقد نفذت المرحومة غرضها قبل أن تقوله لى وإذا به قد حضر وبادرته شقيقته بقولها إنها تقول عنك إنك دميم. قلت: لا بأس وهذا لا يعيبه يكفى أنه نبيل كريم. وحييت الجميع وخرجت فى الحال بالرغم من إلحاح المرحومة باحثة البادية فى استبقائى.

أعود إلى حيرتى قبل الوظيفة فأقول إنى كنت فى أشد الحيرة حقاً. كنت أفكر كثيراً فى كيف أتخلص من طرفى النزاع وكان لى صديقة فقالت لى إنها تعرف منجماً ماهراً يخبرنى عن المستقبل ولم أكن أعتقد فى المنجمين إلا أنى وجدت من التسلية أن

اذهب إليه ولو على سبيل تمضية الوقت والخروج من الحيرة ولو دقائق ويظهر أن صديقتى تلك كانت سمسارة لذلك المنجم فأخبرته عن حالتى قبل ذهابى إليه فلما ذهبت رأيت شاباً يظهر عليه أنه تلميذ صغير وقد التفت حوله عدد عظيم من السيدات وقيل لى أنه إنما يبحث مستقبلهن بالدور على حسب مجيئهن وكنت بالطبع الأخيرة وجلست وإذا به ينتهى من سيدتين فيما لا يقل عن ثلث ساعة وعلى هذا حسبت انتهاء من جميع من كن قبلى فرأيت أنه لا يقل عن ست ساعات فقمت واقفة وقلت بصوت مسموع لقد جئت لأسرى عن نفسى لا أن أتضايق وبقائى هنا ست ساعات أنتظر ذلك الشاب الصغير ليروى لى مستقبلاً هو أجهل الناس به مضيعة لوقتى فإلى اللقاء.

وسمع الشيخ الصغير ذلك فقال: سأقدم النظر فى مستقبلك على جميع الحاضرات فادن منى واضطرتنى صديقتى إلى الدنو منه لأكشف عن مستقبلى. وإذا به يقول إنك فى وظيفة حكومية وتريدين الخروج منها إلى عمل آخر وستخسرين كثيراً فى ذلك العمل. ودهشت كيف عرف هذه الحقيقة وكادت عقيدتى أن تتزعزع واسترسل هو فى كلامه وكأنه أراد أن ينتقم منى فقال لى: إنك ستمرضين وستفقدين بصرك. وكأنه كان ينافس الدكتور فيشر فى ذلك، وكان يريد أن ينبئنى بما يسوءنى من جميع الوجوه وأخيراً قال لى: إنك ستتزوجين من رجل يأخذ جميع مالك وهنا تنبهت إلى كذبه وقد كنت مصممة على أن لا أتزوج فكيف إذن يتغير ذلك التصميم إلى الزواج لا من رجل ثرى أطمع أنا فى ماله بل من رجل يأخذ هو مالى وهذا بالطبع يستحيل علىّ مادمت فى عقلى وهنا قلت له: أرجو أن تكشف لى عن أمر واحد، هل سأبقى صحيحة العقل أم أجن فى يوم من الأيام؟ قال: لا سيظل عقلك سليماً. قلت: انت إذن كاذب كل الكذب لأنه من غير المعقول أن أحتفظ بعقلى الذى يرشدنى الآن وأتزوج برجل يأخذ مالى، إنك يا هذا كاذب. وقمت وتركت المكان.

قبلت استقالتى بعد ذلك.

وابتدأت عملى فى المدرسة المحمدية بالفيوم وكنت مسرورة بذلك العمل الجديد فغيرت فيها تقريباً كل شىء، ويوم استلامها حضر معى المدير نفسه فدخل معى الفصول وأخذ يقول لى هذا هو فصل السنة الأولى وهذا هو فصل السنة الثانية وغير

ذلك، لأنه كان مهتماً بالمدرسة أشد الاهتمام ويعلم عنها كل شيء. وزارني بعد ذلك بثلاثة أيام فاقترح أن أضع يافطة باسم كل فصل على بابه، ولم أكن أنا اهتم بمثل تلك الصغائر لأن المدرسة لم تكن من الاتساع وتشابه النواحي بحيث يخطئ الإنسان غرفاتها، بل كانت مدرسة صغيرة لا يدخلها بالطبع إلا المعلمون الذين يعرفون مكان كل فصل. أما الزائرون فكانوا يذهبون معي إن شاءوا زيارتها فأدلهم على كل فصل. ولهذا تهاونت فلم أنفذ أمر المدير. وبعد أسبوع جاءني وطلب زيارة الفصول فلما وصلنا إلى باب الفصل الأول وكان السنة الأولى أخذ ينظر إلى أعلا الباب ليقرأ اليافطة التي وضعت فلما لم يجدها قال لي: ما هذا الفصل؟ قلت له: السنة الأولى. ثم ذهبنا إلى السنة الثانية وأراد أن يفعل نفس ما فعله في السنة الأولى فقلت له: لا تنظر إلى أعلا فإني لم أضع يفطاً. أما السؤال الثاني، وهو ما هذا الفصل فأنت تعلم أنه السنة الثانية وأنت الذي عرفتني تلك الفصول منذ أسبوعين. وأظن أنك لم تنس بعد فضحك ولم يقل شيئاً.

قوة الشباب وغروره

وهكذا كنت فى مدرسة الفيوم أعمل بجد ونشاط ولا أخشى رئيساً لأنى اشترطت عليه قبل تعيينى أن لا يتدخل فى شئونى أى فى شئون المدرسة التى يرأسها هو. وقد عمل الرجل بما تعهد لى به وكان المدير كما قدمت الحاكم المطلق الذى يخشاه جميع الأعيان والموظفين.

وحدث أنه بينما كان يتحدث فى أحد مجالسه مع مفتش صحة المديرية أن قال له فى سياق الحديث إنه يود أن تعرف ناظرة المدرسة المحمدية أنى أنشأت فى المدينة منتزهاً تعزف فيه موسيقى البلدية عصر كل يوم فلعلها تتريض هى وتلميذاتها فيه.

رأى مفتش الصحة أن ينفذ رغبة المدير فى ذلك حباً فى إرضائه والتقرب منه فجاءنى وقال لى إن سعادة المدير يأمرك أن تذهبى مع بعض تلميذاتك إلى منتزه بلدية الفيوم لسماع الموسيقى هناك. جرحنى هذا الأمر أو بعبارة أخرى حرك غرور الشباب فى نفسى. فقلت له: قل لسعادة المدير إنى لست بمربية أبنائه الخاصة ولا هؤلاء التليمذات ببناته حتى يكون له حق إرسالنا إلى المنتزه متى شاء وإن هؤلاء التلميذات لهن آباء ولآبائهن الحق فى إرسالهن إلى المنتزه أو منعهن من ذلك حسب ما يقدر هؤلاء الآباء.

دهش مفتش الصحة لهذا القول وقال: كيف أبلغ ذلك لسعادة المدير؟ قلت: يا سيدى إنك إنما تبلغه الحق الذى لا شك فيه وما أنت فى ذلك إلا رسول. وذهب الرجل إلى المدير يقص عليه القصة فاستاء المدير لتصرفه وقال له: إنى لم أطلب منك أن تأمرها بالذهاب إلى ذلك المنتزه ولكنى قلت لك أن تخبرها به علها تريد هى ذلك فأرجوك أن تذهب إليها فى الحال وأن تشرح لها ما أخطأت أنت فى شرحه. فدهش مفتش الصحة لاستسلام المدير لتصرفى الشاذ ثم جاءنى وهو يبتسم فقال: عذراً يا سيدتى فقد أخطأت فيما أبلغتك إياه فالمدير لا يأمرك ولكنه أراد أن يخبرك أن فى

مدينة الفيوم منتزهاً تعزف فيه الموسيقى عصر كل يوم فإن رأيت من المستحسن الذهاب إليه فلكِ هذا. قلت: حسناً سأستشير آباء التلميذات فى ذلك.

كان أهل الفيوم ينفرون من تعليم البنات ويعتقدون أن المتعلمة لا أخلاق لها وإنها تخرج على العادات الشرقية وعلى أخلاق الدين الإسلامى. فلما رأونى أشد تمسكاً بالعادات الشرقية من نسائهم الجاهلات ظنوا فى الجهل ولهذا اضطررت أن أزين غرفة مكتبى بشهاداتى ليعلموا أنى قد بلغت من التعليم قسطاً وتعمدت أن أناقش كل من زارنى منهم ليعلم من مناقشتى مقدار ثقافتى. وهكذا انتقلت فى تلك الفترة من حالة إلى ضدها فبعد أن كنت لا أتكلم فى المجالس إلا قليلاً أخذت أكثر من الكلام والمناقشة كلما قابلت أولياء أمور التلميذات.

وكان يدير المدرسة قبل تعيينى فيها ناظرات سوريات ثم ناظرة إنجليزية وكان بالمدرسة معلم قديم يقوم بمقابلة أولياء أمور التلميذات بدلاً من الناظرة وكان لهذا يسوئ سمعة الناظرة كما يريد طمعاً فى أن يحل هو محلها وكان أهل الفيوم يصدقونه فى ذلك لأنهم لم يروا الناظرة. ولما تعينت عرض علىّ خدمته فى مقابلة أولياء أمور التلميذات بدلاً عنى فقلت له: كلا لست أقبل أن يقوم بعملى غيرى فإما أن أكون ناظرة بالمعنى الصحيح أعمل كل ما يعمله الناظر أو أن أتخلى عن ذلك المركز لمن يستطيع القيام به.

قابلت أهالى الفيوم فأعجبهم زيى واستقامتى ووضعوا ثقتهم فى المدرسة. وكانوا قبل ذلك لا يريدون إدخال بناتهم فيها فكان المدير يزورهم ويرجوهم أن يرسلوا بناتهم إليها وكان الرجل منهم إذا أراد أن يرضى المدير أرسل إلى المدرسة طفلة قد لا تتجاوز السادسة من عمرها حتى إذا بلغت السابعة أو الثامنة حجبها بالمنزل خشية على أخلاقها، ولهذا قلت لسعادة المدير: أرجوك أن لا تطلب من أحد من الأعيان إدخال كريمته فإن كل مبتذل ممقوت مكروه قال: وكيف نستطيع جمع التلميذات؟ قلت: اترك هذا لى وسأعمل ما أستطيع. فكان الرجل من أهل الفيوم إذا جاءنى ليدخل طفلته الصغيرة أناقشه وأحبب إليه تعليم البنات وأظهر له أن التعليم يزيد الفتاة عفة واستقامة وأن العلم خير أينما حل فكان يضطر إلى تصديقى لما كان يعاينه من زيى

الكامل مع صغر سنى ومن كلامى الذى كان يشبهه بكلام الرجال فكان يأتينى فى اليوم الثانى بثلاث كريمات كان قد قرر حجزهن بالمنزل.

وهكذا دخلت المدرسة وعدد تلميذاتها لا يزيد عن الثمانين فما كدت أمكث فيها اربعة شهور حتى زاد عددهن على المائتين وقد سر المدير بذلك سروراً عظيماً وأخذ يحسن معاملتى وينفذ لى كل ما أريد.

وكنت فى كل فرصة أجتهد أن أظهر لآباء التلميذات شدة حرصى على الأخلاق ليزدادوا ثقة بالمدرسة. وحدث أن أساءت تلميذة أدبها فطردتها وجاءنى والدها يسألنى أن أعفو عنها وأن أقبلها وأنا أرفض وأتعزز ودخل فى تلك اللحظة سعادة المدير فدهش لهذا التغير العظيم فى أخلاق أهالى الفيوم وطلب منه الرجل أن يساعده فى رد كريمته إلى المدرسة فقال المدير مبتسماً: لقد أخذت علىّ عهداً أن لا أتدخل فى شئونها فأنا لا أستطيع شيئاً غير أن أضم صوتى إلى صوتك علها تقبل ذلك. وهنا قبلت رجاء المدير وأعدت التلميذة إلى المدرسة بعد أن أخذت على أبيها عهداً بشدة الرقابة عليها فشكر الرجل المدير وحياه وانصرف. وما كاد يخرج حتى نظر إلىّ المدير قائلاً: إنى لا أكاد أصدق ما أرى الآن من ذلك التغير العظيم فمن زهد الآباء فى المدرسة إلى رغبة فيها رغبة ملحة ينفذونها بالتوسل والرجاء!! قلت: نعم فإنه كلما ازداد عرض الشىء على الناس كلما ازدادوا زهداً فيه (وأحب شىء إلى الإنسان ما منع) قال: صدقت.

كيف كنت فى أول عملى بالفيوم؟

كنت حديثة عهد بالحياة وأحوالها ولم أكن أعرف من أعيان المصريين إلا أسماءهم وكنت أتصور أن كلمة باشا إنما تعطى لأكثر الناس تعليماً وذكاء.

وأخذ المدير يتحدث بالمدرسة وما صارت إليه من الرقى فى مدة قيامى بأعمالها. وإذا قال المدير أنصت جميع الأعيان. ولهذا اهتم الأعيان بالمدرسة وأرادوا أن يشاهدوا ناظرتها وأبلغنى سعادة المدير أن فلاناً باشا عين أعيان الفيوم سيزور مدرستى فى يوم كذا الساعة كذا أيضاً. واهتممت بالأمر وكنت أعد نفسى للجمل التى سأقولها أمام سعادته أو لأجوبة الأسئلة التى سيلقيها علىّ!

وجاء هذا العين وإذا به يتكلم لا بلهجة والدتى فحسب بل بأحط من آرائها. وهنا احترمت والدتى على عدم تعليمها وقلت لقد وضعها ذكاؤها فى مكانة من اللباقة تفوق أمثال هؤلاء الأعيان. وضايقنى ما عرفته من جمود ذلك العين وكان مما ناقشنى فيه أنه بصفته عضواً فى مجلس المديرية ومن الأعضاء البارزين، لا الفائرين فى الجدار، بهذه الصفة لا يريد سعادته أن يعين المجلس معلماً للغة العربية من الشبان المتعلمين بل يريد أن يعين لى مقرئ مدافن المرحوم والده لا لسبب سوى أنه رجل كبير السن موثوق فى أمانته. فقلت له إذا كان كل ما نبغيه هو سن ذلك المعلم وشدة ثقتنا من أنه لا يخشى منه على أخلاق الطالبات، وإذا كان هذا هو كل ما نطلبه من معلم يعلم اللغة العربية التى هى أهم فروع التعليم فحسبنا أن نكتفى ببواب المدرسة لأن فيه تلك الشروط متوفرة جداً، فهو رجل مسن ومتزوج وكامل فى أخلاقه.

واحتار الباشا فى الإجابة على ما قلت له ثم قاسنى بنظره من أعلا إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلا وفكر فى الموضوع ملياً ثم قال لى: إنك عنيدة لأن أمله فى تعيين المقرئ قد تبخر وطار. وقد كان واثقاً من تعيينه بعد أن قدر كبر سنه واستقامته. أما العلم فلا ضرورة إليه مادام هذا سيكون معلماً للبنات.

كان ذلك الباشا قد قدم اقتراحاً إلى مجلس المديرية بتعيين ذلك المقرئ ولكن حديثى معه خيب الأمل فى نجاح ذلك الاقتراح ثم قابلت المدير بعد ذلك وحادثته فى المسألة وطلبت منه سرعة تعيين شاب صالح من المتعلمين الجدد وشرحت له بجلاء أن الشاب الصالح أفضل من شيخ لا صلاح فيه وأن الصفات السيئة فى الإنسان تزداد وضوحاً كلما كبر وهذا بديهى، فالإنسان كلما كبر ضعف عقله فلا بأس بعد ذلك أن تقوى شهواته والرجل الذى يولع بالنساء شاباً يولع بهن أضعاف ذلك وهو شيخ لأنه أصبح ضعيف الإرادة، ضعيف العقل، تتغلب عليه شهواته. وربما دفعه اعتقاد الناس فى شيخوخته إلى الاسترسال فى غوايته، وهو فى مأمن من أن يتعقب خطواته أحد وختمت محاضرتى هذه بطلب السرعة فى تعيين ذلك المعلم. وفعلاً عين للمدرسة معلم كامل من الشبان المتخرجين فى ذلك الوقت.

وأخذ سعادة الباشا مكانه فى الصف الأول من أعدائى المحترمين وما عسى أن يقول عن تلك التى عارضته فيما أراد من التعيين فى مجلس المديرية. وهو يعتبره من ضمن عزبه الطويلة العريضة؟ إنه لا يستطيع أن يقول عن أخلاقها بالنسبة للكمال شيئاً، لأن هذا كان مشاهداً معروفاً فى أنحاء الفيوم إذن فليسلك طريقاً آخر إلى ذم تلك التى خيبت آماله فيما أراد فيقول أنها عنيدة وإنها تكاد تقابل من يزورها لا بكلمة الترحاب بل بالضرب دون ما سبب، فهى تضرب هذا وتشتم ذاك ولا تأبه بكرامة أحد ولا تحترم الأعيان لما لهم من الحول والطول فى المديرية وغير ذلك.

ولقد بارك الله فى مجهود ذلك الباشا من تلك الناحية ووجد من يساعده ويفهم الناس شدة أخلاق تلك الناظرة فإنها تحاسب الرجل الذى يزورها على أية كلمة يظهر فيها لين أو مجاملة وهى كما كانوا يقولون كالأسد المفترس لا تسمح لأحد أن يرفع رأسه فى مجلسها.

ولو أن هؤلاء رأونى اليوم لعرفوا أنى جبنت كما أراده السن فلم أعد أنا ذلك الأسد بل أصبحت أجبن من أرنب ولا أدرى هل هم بعد ذلك راضون عنى؟ وإذا كانت شجاعتى هى التى كانت تغضبهم فى الماضى، فهل يروقهم الآن جبنى؟

سؤال أريد أن يجيبنى عليه كل من عاملنى الآن وفى الماضى.

حياتى العملية

عرفت مما علمته عن أخبار غيرى من ناظرات المدارس بالفيوم أن فكرة الناس سيئة فى كل متعلمة وأنهم يعتقدون أن العلم والكمال لا يتفقان فبذلت كل همى لاخرج من رؤوسهم ذلك الزعم الفاسد فكنت أحاسب من يقابلنى من الرجال على كل حركة من حركاتهم وعلى كل لفظ أسمعه منهم. كنت أنا نفسى أحتقر الشهوات وأصحابها وأقول إن الرجل الذى يتغلب هواه على عقله حيوان لا قيمة له وإن المرء ومستقبله مرهون بمقدار ما يستطيعه من تجنب الشهوات والميل إلى الكمال الأخلاقى.

لهذا كنت لا أسمح لرجل بكلمة تنبو عن موضعها وتصادف أنى كتبت إلى المجلس بإصلاح مبانى المدرسة فأرسل إلىّ مهندسه فقمت لأريه التلف فى أثاثات المدرسة وأطلب منه إصلاحها وما كاد يرى يدى وهى تشير إلى ذلك الأثاث المتهدم حتى قال فى دهشة: يا سلام إيدك صغيرة قوى! وكنت فى ذلك الوقت ألبس جلباباً واسعاً بكم واسع طويل فكانت تظهر راحتى منه صغيرة جداً بالطبع. هالتنى تلك الجرأة منه وأنكرت عليه أن يخرج عن الكلام فى العمل إلى الكلام فى أوصاف من تكلمه. ونظرت إليه فى شىء من الحدة وقلت له: شىء بايخ! فخجل الرجل وقال: هل خرجت عن الأدب؟ وهل فى كلمتى هذه ما يريب؟! قلت: إنها على الأقل لا محل لها لأنى أنا أعرف مقدار حجم يدى قبل أن أراك فلا معنى أن تخبرنى بأنها صغيرة وقد تكون أنت على غير حق فى تقدير صغرها لأنى أنا أعرفها اكثر مما تعرفها أنت. وهل تجد من الحكمة أو من اللياقة أن أقول لك الآن إن الشمس طالعة وأنت ترى ذلك بعينيك؟ لقد كنت أود أن كلامنا لا يخرج عن العمل ولا يمس الشخصيات فأنت فى نظرى مخطئ. قال: إنى أعتذر وإن كنت أعترف أنى لم أخطئ. على أنه لم يكن يقدر الظروف فإنى لو سمحت له بتلك الكلمة لما ضمنت فى المستقبل أن يطرى جزءاً من أجزاء جسمى فيقول لى مثلاً إن عينيك جميلتان وإن يدك لطيفة وغير ذلك من الأوصاف التى لم أكن أسمح لأحد أن يذكرها.

على أنه استطرد بعد ذلك فقال: إنى إلى الآن لا أعرف ما الذى أغضبك من كلمة بريئة كهذه؟ قلت: لم أغضب من الكلمة بالذات ولكن ساءنى أنكم أى الرجال لا تعرفون كيف تخاطبون النساء ولا بدع فى ذلك فإنكم لم تخاطبوا قبل اليوم إلا نساءكم. وعلىّ إذن أن أعلمكم مخاطبة النساء أثناء العمل فإنها يجب أن تتصرف كلها إلى ذلك العمل، وأن لا تخرج عن مواضعه وإلا كانت عرضة لسوء الظن.

خرج الرجل من عندى وهو فى غاية الخجل. وفى اليوم التالى زارتنى امرأته فأكدت لى أن زوجها رجل شريف لا يعرف مداعبة النساء وأنى قد أسأت الظن فيه بلا مبرر. وكان الرجل قد خشى أن أشكوه فأرسل من يشفع له عندى. فقلت لها: لم أتهمه بشىء من هذا يا سيدتى ولم يكن أمامه امرأة حتى أظن أنه داعبها المسألة مسألة أن هؤلاء الرجال لا يعرفون بعد معاملة النساء وقد أردت أن أرشده إلى كيفية تلك المعاملة أما أنا فلا أخشى على نفسى من رجل وليس فى منظرى ما يدعو إلى ريبة. واطمأنت المرأة على زوجها وعلمت أنى لن أشكوه إلى سعادة المدير فقبلتنى بالإكراه وشكرتنى وانصرفت.

كنت كما قدمت أريد أن أفهم الرجال ثقافة المرأة الجديدة وكمالها مع تلك الثقافة فكنت أتحدث إليهم طويلاً فى المواضيع العلمية عسى أن أستمليهم إلى إرسال بناتهم إلى المدرسة وتصادف أن زارنى فاضل من فضلاء هؤلاء الرجال فاعجب بحديثى إيما إعجاب وذهب يرويه لزوجته ويمتدحنى أمامها وسارت الغيرة فى نفس الزوجة المسكينة وظنت أن زوجها قابل فتاة لعوباً لعبت برشده فأرادت أن ترى تلك الفتاة بنفسها ولم يغمض لها جفن تلك الليلة وفى الصباح زارتنى مع صديقة لها يظهر عليها الذكاء والفطنة فلما رأت لبسى وما يبدو عليه من حشمة واستقامة سرت بذلك سروراً عظيماً وعلمت أن زوجها إنما أعجب بالحديث لا بالغرام ثم أظهرت شدة اغتباطها لملاقاتى وقالت إنها هى الأخرى قد أحبتنى وإنها ترى فىّ خير مثال للفتاة المتعلمة ومالت على زميلتها فهمست فى أذنى قائلة لقد أسهرتها الغيرة ليلة أمس فلم تنم وستنام الليلة ملء جفنيها.

وكان آباء التلميذات فى ذلك الوقت يزورون المدرسة كثيراً لرؤية تلك الناظرة الجديدة

التى خالفت مبدأ الناظرات فأخذت تقابل بنفسها الرجال ومنْ مِنَ الناس لا يحب أن يرى فتاة نالت البكالوريا فى زمن لم تنل فيه معظم النساء شهادات البتة؟ كنت إذن حديث القوم فى سمرهم خصوصاً وأن من سبقننى من الناظرات كن كلهن أجنبيات ولم تر الفيوم قبل ذلك العهد ناظرة مصرية غيرى فلا بدع إذن أن أصبحت أعجوبة. وكان بجوار المدرسة مدرسة للراهبات كانت آهلة بالفتيات لشدة إقبال الأهالى على الأجانب كما هى عادتنا ولا فخرا.. ولم يمض علىّ فى تلك المدرسة أربعة شهور حتى كادت مدرسة الراهبات تغلق أبوابها لكثرة إقبال الأهالى على مدرستى ولا عجب فقد كنت فاكهة جديدة. أما الآن وقد كثر عدد المتعلمات وأصبحت نبوية موسى كغيرها من المصريين لا تستطيع أن تؤثر فى أفكار المصريين أو تحملهم على احترام الأعمال المصرية والإعجاب بها.

ورحمة الله على الماضى.

المعلمة الإنجليزية

أردت إصلاح المدرسة المحمدية بالفيوم إصلاحاً عملياً صحيحاً لأنى وجدتها فى حاجة شديدة إلى ذلك الإصلاح ومما يضحك أنى يوم توليت إدارتها ومررت على الفصول وجدت شيخاً من إخواننا سادة دار العلوم يدرس التدبير المنزلى وقد وقع فى (حيص بيص) كما يقال فى كيف يكسر البيض الذى لم يعتد الرجل تكسيره ولم تعتد التلميذات أيضاً ذلك. فكن يعجزن عن ان يكسرن بيضة دون أن يتلفن صفارها.

اضطررت هنا أن أعالج الحالة وأن أكسر البيض للتلميذات لأعلمهن كيفية كسرها وأن أقضى على تلك الفوضى بإخراج ذلك المعلم من تدريس التدبير المنزلى وإعطائه دروساً فى اللغة العربية بدل ذلك. وأعطيت دروس التدبير المنزلى لمعلمة لأنها أليق به مهما كان جهلها بتلك المادة ولو فى ظاهر الحالة. وساء المعلم ذلك لأنه كان يتمتع ولو بتذوق الأطعمة وكان هذا القرار قد حرمه من ذلك التمتع. ساءه ذلك ولكنى لم اصطدم به ولم يصطدم بى لأنى أخذت أحسن معاملته وأتجنبه.

انتهيت من ذلك الإصلاح وفكرت فى تعليم اللغة الإنجليزية وكانت تقوم بتدريسها معلمة سورية لا تكاد تعرف منها إلا بضع كلمات، وأردت أن أبحث عن معلمة أخرى من السوريات تستطيع أن تفهم اللغة التى تدرسها فأعلنت فى الصحف ووصلنى رسائل شتى من سوريات مختلفات ولم تكتب لى إحداهن من سوء الحظ باللغة الإنجليزية بل كانت جميعهن يكتبن باللغة العربية إذا صح أن يقال إن لغتهن تلك كانت عربية. رأيت إذن أن أقابل هؤلاء المعلمات قبل أن أختار من بينهن واحدة خشية أن تكون كالمعلمة التى بالمدرسة لا تستطيع التفاهم بتلك اللغة التى تدرسها. فزرت أغلبهن فى منازلهن وعلمت أنهن لا يفضلن معلمتى فى شىء ويظهر لى أن كل سورية فى ذلك الوقت كانت تدعى العلم بأية لغة مادامت تعرف ألف باء تلك اللغة. ومما أذكره أنى زرت إحداهن وسألتها هل تعرف اللغة الإنجليزية جيداً؟ قالت أعرف سبع لغات قلت: أسأل فقط عن

اللغة الإنجليزية. قالت: أعرفها تماماً. ورأيت أن أختبرها فأخذت أتحدث معها بالإنجليزية وأخذت تجيبني بنعم. أشكرك. وضايقتني تلك الإجابة لأني لم أفهم منها إذا كانت واثقة تفهم ما تقول أم هي تحفظ هاتين الكلمتين فتنطق بهما عندما أخاطبها دون أي فهم.

وأردت أن أختبر ذلك بنفسي فقلت لها: إن كل شيء بالمدرسة جميل إلا أني أنا شخصياً اعتدت أن أضرب المعلمات أمام الصفوف بعصاتي. وكنت أظن أنها ستدهش لهذا الكلام إذا هي فهمته. ولكنها وهي لا تفهم شيئاً في اللغة الإنجليزية التي تريد تدريسها لم تظهر أية دهشة لهذا الخبر المضحك بل أجابتني: نعم أشكرك! لقد صدق ظني إذن في أنها لا تفهم شيئاً وهنا قلت لها: وأنا أيضاً أشكرك. وتركت المكان.

عولت بعد ذلك أن أعيّن إنجليزية لتدريس اللغة الإنجليزية فذهبت إلى كونوت هاوس لأبحث عن معلمة إنجليزية هناك فلم تقبل إحداهن السفر إلى الفيوم واعتذرت إليّ رئيسة المنزل ولكني عند خروجي تبعتني سيدة إنجليزية كانت تجلس منفردة في ناحية من الصالة وقالت لي: إني أنا أقبل ذلك العرض ولكني لا أريد أن يعرض كلامي هذا على الرئيسة لأنها تكرهني بعض الشيء وكل عيبي في نظرها أن في أذني شيئاً بسيطاً من الصمم. قلت ولكنك تسمعين. قالت: نعم ولكني لست حادة السمع كباقي الإنجليزيات. قلت: لا بأس فليس هذا بالعيب العظيم. قالت: أعطني إذن عنوان المدرسة وسأكون عندك بعد يومين. وفي الميعاد المحدد وصلتني منها برقية فانتظرتها في محطة الفيوم وحضرت بها إلى المدرسة وأنا في أشد ما يكون من الغبطة والسرور حيث نجحت في إصلاح تعليم اللغة الإنجليزية بعد أن كان مهملاً. أكلت معها طعام العشاء وجهزت لها غرفة. وبعد شيء من السمر قامت كل منا إلى غرفة نومها.

ومن المدهشات أني في تلك الليلة حلمت أن تلك السيدة قد جنت ووقفت وبيدها سكين تتهدد ابنة أخي وقد كانت تلميذة داخلية بالمدرسة فاستيقظت من النوم مرعوبة أرتجف من هول ما رأيت ولكني لم أعر ذلك أي التفات بل ظننته أضغاث أحلام وقصصت لها الحلم ونحن على مائدة الإفطار فظهر عليها الغضب والامتعاض وقالت ليس ذلك بحلم ولكنك إنما اتصلت ببعض أعدائي وهنا جاءني شيء من الشك لأني

كنت أظنها ستضحك من ذلك الحلم وتعتبره نوعاً من التسلية أما وقد أغضبها فقد ترك ذلك فى نفسى أثراً ولكنى كظمت غيظى وأكدت لها أن المسألة لا تعدو حلماً. وبعد أربعة أيام من تاريخ وصولها إلى المدرسة وقفت على باب غرفتها فى الساعة السابعة مساء وهى ترغى وتزبد وتريد أن تضرب ابنة أخى بسكين أخذتها من المطبخ مدعية أنها قد أساءت الأدب. وهنا ظهرت عليها علامات الجنون الحقيقى وأخذت أهدئ من غضبها فى غير جدوى. وفى الصباح أخذت تذهب وتجئ دون أن تدرس ثم دخلت غرفتى مراراً لتقول لى بصريح العبارة أنها لا تستطيع التدريس وأنها تريد أن أعطيها مرتب ستة شهور لتذهب إلى حالها وإلا ارتكبت فى المدرسة جناية أكون أنا المسئولة عنها ولم يكن فى استطاعتى إعطاؤها ذلك المبلغ ولم أشأ أن أعرض الأمر على المدير خشية أن يسفهنى فيما فعلت فأخذت أسير وراءها إينما سارت حتى لا ترتكب ما تهدد به من تلك الجناية. ولم يكن فى الإمكان أن يقبض البوليس على سيدة إنجليزية والإنجليز فى ذلك الوقت هم أسياد البلاد. إذن كان علىّ أن أتحمل تصرفاتها وأن أعالجها بما أستطيع من صبر وحيلة.

وفى صباح يوم دخلت إلى مكتبى وأنا أكتب شيئاً ولعله جدول الدراسة فقالت لى ماذا تكتبين؟ قلت أكتب خطاباً. قالت: لمن؟ قالت ذلك بخوف وارتباك ولاحظت ذلك عليها فقلت لقنصل إنجلترا. قالت: لماذا؟ قلت: لأشكوك إليه. قالت: أو أنت فاعلة؟ قلت: نعم لا شك فى ذلك. فخرجت من مكتبى مسرعة وعادت ومعها حمال حمل حقائبها وخرجت ولكنها لم تترك غرفة نومها مفتوحة بل أغلقتها وأخذت مفتاحها معها.

وصارحت المدير فى ذلك الوقت بالحقيقة فقال إنه لا يرى أن نتقدم لفتح تلك الغرفة من غير استئذان السفارة البريطانية وهنا ذهبت إلى السفارة البريطانية وشرحت لهم الحقيقة فقال لى موظف السفارة الذى قابلنى بعد أن قابل السفير لا حرج عليك فى فتح الباب والسفير جاد فى البحث عنها وظهر لى أنها معروفة لدى السفارة وبعد أربعة أيام وصلنى خطاب من بورسعيد فيه مفتاح الغرفة ويظهر أنها خشيت مغبة بحث السفير عنها فسافرت من بورسعيد إلى إنجلترا.

وهكذا فوجئت بالصعب العسير فى أول عمل توليته.

نقل المدير

كان قيام الفتيات بالأعمال العلمية كإدارة المدارس أمراً جديداً وغريباً خصوصاً فى نظر الفيوميين ولهذا كانوا يسيئون سمعة كل من تولت رئاسة مدرسة البنات. وكنت أنا على تمام العلم بذلك فكنت أخاف كل الخوف على سمعتى. خصوصاً وفى المدرسة كما قدمت معلم كان يقوم بأعمال الناظرة قبل تعيينى وكان يعتبر نفسه أحق بتلك الوظيفة من أية فتاة وأن أية ناظرة تأتى إنما اغتصبت منه تلك الوظيفة اغتصاباً لا بعلمها ولا بكفايتها وإنما بجنسيتهاوهو لا يؤمن بذلك بل يعتقد أن الرجال أولى من النساء بتلك الوظائف. وجئت أنا فحرمته من القيام بعمل الناظرة فأصبح لديه لبغضى سببان لا سبب واحد.

كذلك كان كما قدمت بالمدرسة معلم من دار العلوم يدرس التدبير المنزلى وقد منعته من ذلك التدريس من يوم تعيينى ولا شك أنه كان يتذوق ما يطبخ وإخواننا من دار العلوم وأمثالهم من الأزهريين يقدرون الأطعمة تقديراً لا يفوقه شيء. وإذن فقد أصبح هو الآخر ضدى. ولكنى كنت ألاين الاثنين وأعطف عليهما وأحترس منهما وكنت لا أقبل على سمعتى أية ريبة. حتى لا أجعل لهما ولا لغيرهما سبيلاً إلى الخوض فى عرضى. ولهذا كتبت على باب المدرسة "لا تقابل الناظرة أحداً من الرجال قبل الساعة الثامنة صباحاً ولا بعد الرابعة بعد الظهر" أى أنى لا أقابل الرجال إلا فى أوقات العمل المعينة للدراسة. والمدرسة فى ذلك الوقت تكون مكتظة بالمعلمين والمعلمات والتلميذات أيضاً فلا شبهة علىّ فى أن أقابل أحداً. وكان حضرة صاحب الرفعة محمد باشا محمود يقرنى على كل ما أفعله ولا يتدخل فى أعمالى.

وفجأة انقضى عهده ونقل محافظاً لبورسعيد وخلفه غيره وعز على المدير الجديد أن يكون للناظرة وهى مرؤوسة له أوامر ونواهى فكان أول ما فعله أن أرسل إلىّ سكرتير مجلس المديرية الساعة السابعة مساء فرفضت طبعاً مقابلته وقلت للبواب

يخبره أنى لا أقابل الرجال إلا فى وقت العمل وأنى الآن منفردة فى المدرسة فلا يجوز أن يدخل عندى رجل مهما كانت الأسباب وقال السكرتير إنه مرسل من قبل سعادة المدير. قلت: ولو!

فى صباح اليوم التالى ذهبت إلى المدير لأعتذر إليه عن رفضى وأشرح له الأسباب. فقلت له: إنى لا أزال فتاة صغيرة وأقيم فى المدرسة وحدى ودخول الرجال علىّ وأنا منفردة يعرض شرفى للقيل والقال. قال: ولكنه مرسل من قبلى. قلت: إن الناس لا يعلمون تلك الرسالة وهم فقط يرون رجلاً يدخل فى منزل تقيم فيه فتاة وحدها. على أنك أنت شخصياً لا تستطيع أن تضمن سلوك مرؤوسيك فهبنى فتاة فاسدة الأخلاق وأفرض أن ذلك السكرتير على شاكلتى فمن الذى يضمن لك حسن مسلكنا ونحن على انفراد بعيدين عن كل العيون؟ أليس من الأفضل أن ترسله أثناء النهار حتى لا نكون نحن الاثنين فى خلوة؟ قال: ولكنه يعمل النهار فى المجلس. قلت: إن عمله معى قليل لا فائدة فيه وقد قمت بأعمالى فى المدرسة الآن سبعة شهور دون أن يعمل معى سكرتير من المجلس، والأعمال على ما يرام. وإذا كان ولابد من حضوره إلىّ فلا بأس من أن يخلى من عمله ولو نصف ساعة. قال: ولكن هذا أمرى. قلت: إنك تأمر فى كل شىء اللهم إلا فيما يتعلق بشرفى شخصياً فلا أقبل فيه أمراً ولا نهياً. إنى إنما جئت لأعمل فى الدراسة وأثناء الدراسة لا أن أعمل الليل والنهار.

وخرجت من عنده وقد تأثر هو بعض الشىء وأراد أن ينفذ طلبه بالقوة فأرسل إلى السكرتير بعد بضعة أيام لا فى الساعة السابعة فحسب بل فى التاسعة مساء ورفضت طبعاً دخوله إلى المدرسة. وتشبث هو وقال: إن هذا أمر المدير وإنه لابد داخل. فقلت للبواب أن يخبره أنه إن دخل فسأستدعى النيابة العمومية، فخاف وانصرف.

وبعد أيام من تلك الحادثة زارنى المدير فى مكتبى وكان يضع فى عروة سترته وردة حمراء وجلس جلسة لم أستحسنها منه. جلس تلك الجلسة على مكتبى بحيث التصق بى فاضطررت أن أقف وأن أقول له فى شىء من الحدة: إنى لو أعلم أن المديرين يتغيرون بتلك السرعة لما أقدمت على قبول تلك الوظيفة. قال: وهل يعين فى وظيفة المدير جندى؟ قلت: إنى يا سيدى لا أخاف الشدة ولكنى إنما أشكو اللين. قال فى شىء

من الفكاهة: لم أسمع بأحد يشكو اللين غيرك ثم طلب أن يرى المدرسة فخرجت معه وكلانا مغضباً. وتصادف أن صادفنا فراش يحمل على رأسه سبورة وفي يده جردل وكاد يصدمني بسبورته فقلت في شيء من الغضب "أوعى كده أنت راخر.. أنت حتاخد وشي" فقال المدير: إن هنا من هو أولى منه بذلك. فلم أتمالك نفسي وقلت له: نعم لا أشك في أنك أولى منه بحمل تلك السبورة والجردل أيضاً. وتراشقنا بعد هذا بالألفاظ. ثم خرج مغضباً يهدد بقوته وسلطانه.

ويظهر أن المدير شكا أمره إلى ناظر المدرسة الأميرية وكان عضواً في اللجنة التي تدير المدرسة المحمدية التابعة لمجلس المديرية وهي التي أديرها أنا وأوحى إليه أن يقوم هو بدلاً عنه بالمناورة وكان بالمدرسة معلمة تقطن في بيت ذلك الناظر وكان حول اسمها واسمه إشاعة متداولة فقلت لها يوماً: إني أعلم يا سيدتي أنك فتاة فاضلة وأن الناظر لا يقل عنك في الفضل ولكن مادام الناس يتكلمون في حقكما أفليس من صالح التعليم أن تبتعدي عن منزله حفظاً لسمعتك وكرامتك؟.. ويظهر أنها أخبرت الناظر بذلك.

وبعد يوم جاءني الناظر نفسه فجلس في مكتبي وأخذ يقول لي: إنه يعتبر تلك المعلمة كقريبة له وإنه يتولى أمرها بنفسه وإن زوجته تغار منها وهو لا يدري ماذا يفعل قلت: إن الزوجة يجب أن تكون لها الحرية في المنزل وإذا كانت زوجتك لا تريد تلك المعلمة وجب أن تخرج هذه من المنزل. قال: وأين تلبث؟ قلت: حيث تريد هي. قال: ولكني أغار عليها أيضاً ولا أتركها تبيت في أي منزل كان. قلت: هل يرضيك أن تبيت في منزل أخي؟ وكان أخي في ذلك الوقت وكيل نيابة في الفيوم. قال: إن ما بيني وبين زوجتي من النزاع يصير بين أخيك وزوجته. قلت: إنه يتحمل من أجلي. قال: ولكني لا أقبل ذلك. قلت: وماذا تريد إذن؟ قال: ما المانع في أن تبيت معك هنا في المدرسة؟ وأن تتنازلي عن أوامرك فأزوركما في المساء في أي وقت أردت وأن تعتبريني قريبك كما تعتبرني هي كوالدها. قلت: إن والدي يا سيدي قد مات وليس لي من الأقارب إلا أخ واحد يقيم معنا في الفيوم ولست أستطيع أن أختلق لي أقارب جدد ولا أسمح لرجل أن يدخل تلك المدرسة مساء مهما كانت الظروف فإن أردت أن تقيم تلك المعلمة معي فلا بأس على شرط أن لا يزورها أحد. قال: إنني عضو في مجلس المديرية وإن المدير يضع

سلطة تلك المدرسة فى يدى وستندمين على استبدادك هذا. قلت: لا أندم على شىء فإذا خرجت من ذلك المكان بشرفى كان هذا كل ما أرجوه.

عز علىّ أن يكون اشتغالى بالتعليم سبباً فى أن يفسد الرجال أخلاقى وأنكرت على رجال التعليم كناظر تلك المدرسة أن يقوموا بمثل تلك الأعمال الدنيئة فلم أتمالك من أن اقول له: إنك سافل وضيع لا شرف لك ولا كرامة. وفى أثناء ذلك دخل أخى علينا وسمع تلك الألفاظ ورآنى فى حدة وقد اغرورقت عيناى بالدموع وما كدت أرى أخى حتى ذهلت وخشيت أن يعلم الأمر فلا يبقينى فى الوظيفة بعد أن يقتل ذلك الوغد وكان أخى اقوى منه جسماً فسكت وخاف الآخر مغبة ذلك فسكت هو ايضاً وجعل أخى يردد سؤاله: ماذا جرى؟ ولا يجيبه أحد منا: أنا لأنى فى حيرة أرجو أن أخفى الأمر عليه، والآخر لأنه خائف من أن اقول أنا الحقيقة فيكيل أخى له الضرب كيلاً وقد لا يخرج من عندى سالماً.

وأخيراً تداركت الأمر وقلت له: لا شىء.. إن هذا الرجل يتدخل فى أعمالى المدرسية. قال: أو لهذا التدخل يجوز لك أن تقولى له "إنك سافل منحط لا شرف لك ولا كرامة". قلت: قد أكون مخطئة ولكن هكذا دفعنى الغيظ لأنه قال لى افرضينى قريبك وأنت تعلم انى لا أحب قرابة الرجال. وأنقذت تلك الجملة ناظر المدرسة فقال: هذا كل ما قلته لها. ولم يعلم أخى أن عرض القرابة كان عرضاً أراد به أن تكون علاقتى معه كعلاقة المعلمة الأخرى أى علاقة الريبة والشك. فقال: لا تغضب يا أخى وسأكون أنا قريبك. قلت: إذا كنت تريد أن تكون قريبه فلتكن تلك القرابة بعيدة عنى.

وأخذ أخى الرجل من يده وأراد أن يخرج به ولم يخجل صاحبنا من موقفه بل قال لى أمام أخى مرة أخرى: اعلمى أن سلطة المدرسة فى يدى وستندمين. قلت: لقد قلت لك أنى لا اندم وسأخرج من هذه المدرسة شريفة أضع قدمى على رأس كل سافل منكم، وعجب أخى من هذا التعبير وساورته الشكوك. فخرج به ثم عاد إلىّ وقال: أصدقينى ما الخبر؟ قلت: الخبر كما أخبرتك. قال: ولكن كلامكما الأخير يدل على أن المسألة تتعلق بالشرف. قلت: أو تظن أن هناك رجلاً ينظر إلىّ نظرة الريبة؟ ليس فىّ من الجمال يا أخى ما يغرى. وهل عندك شك أنى كنت ضده. قال: لا شك عندى فى

ذلك. قلت: إذن فلم أخفى أمره؟ فانصرف أخى.

ولقد فكرت إذ ذاك فى الأمر فعلمت أن أخى لو عرف الحقيقة لانهال عليه ضرباً ووصل الأمر إلى القضاء وهناك يقول الناس: دخل عليها أخوها ومعها ناظر المدرسة فضربه ضرباً مبرحاً. ولا شك أن هذا يعطى الناس فكرة أن ذلك الناظر كان يداعبنى برضى منى. لهذا اخفيت الأمر عن أخى كل الإخفاء.

وفى اليوم التالى جاءنى الناظر فدخل مكتبى دون أن يحيينى وبعد أن جلس قال: أتعلمين لم جئت؟ قلت: لا أعلم الغيب. قال: إنما جئت لأعلم هل لاتزالين مصرة على رأيك بالأمس؟ وكأن إخفاء الأمر عن أخى جعله يظن أنى رضيت بما عرض أو أنى على الأقل أتردد فى قبوله، قلت: أو تعلم أنت لم أذنت لك اليوم بالدخول؟ قال: إنى أدخل بالرغم منك؟ قلت: كلا إنك من اليوم لن تدخل هذا المكتب وإنى أمنعك بكل قوة، وما أذنت لك اليوم إلا لأنى ظننت أنك كنت سكراناً البارحة وأنك جئت لتعتذر عن خطئك. أما وأنت مصر عليه فلا أسمح لك بدخول المدرسة مرة أخرى ولا يهمنى ما يترتب على ذلك فإن شرفى فوق كل شىء. قال: إذن سترين.

وخرج مسرعاً.

ابتداء المتاعب

إنى أروى الآن مسائل مضت منذ نيف وثلاثين سنة على حسب ما أتذكر ولست أدعى انى كنت على حق فى كل ما فعلته ولست انكر أنى كنت على جانب عظيم من الشدة فى تقدير الرجال وربما كان ذلك ناشئاً من أنى قرأت روايات غرامية كثيرة كان فيها الرجال أبطال الخيانة والغدر بالنسبة للنساء فنظرت إليهم جميعاً بتلك العين ولهذا كنت أحاسبهم على أية كلمة تبدر من أفواههم فى غير رحمة ولا شفقة وقد مر بنا انى حاسبت المهندس على كلمة بدرت منه لا تدل على سوء نية أو شىء ولكنى كنت أود أن أعلِّم الرجال مخاطبة النساء بعد أن ظهرت النساء فى ميدان العمل فجأة وأمام رجال لم يعتادوا معاملتهن لهذا قسوت على المهندس إذ قال إن يدى صغيرة كما قسوت على المدير يوم استعمل نكتة قد يكون الغرض منها استعمال النكتة فحسْب وهو ما ينبغ فيه المصريون. وكما قسوت أيضاً على ناظر المدرسة يوم عطف على المعلمة ولقد خلقت لى تلك الشدة فى المعاملة أعداء أقوياء أولهما المدير وثانيهما ناظر المدرسة الأميرية وبيدهما كل الأمر فى إدارة مدرسة البنات.

واشتهرت فى مدينة الفيوم إذ ذلك بالشدة ولا فخر وكان لسوء حظى أن زارنى المرحوم حافظ بك إبراهيم فقال لى إنه لا يوافق على ظهور النساء فى العمل سافرات وكنت إذ ذاك أكشف وجهى فقلت له: إن المرأة إذا عملت وجب أن تظهر بطبيعتها كما خلقها الله وليس فى ذلك شىء. قال: إن فيه إغراء. قلت: إنك متغال يا سيدى. فنحن المصريات ليس فى خلقتنا الطبيعية إذا ظهرت كما هى ما يغرى الرجال. ومادامت الفتاة منا تظهر أمام الرجال دون تبرج أو تغيير فى خلقتها الطبيعية فلا خوف من إغرائهم بها. قال: أو تظنين أنه ليس فى وجهك الطبيعى ما يغرى؟ إن فيه شيئاً من علامات الجمال. أراد المرحوم بذلك أن يعلم مدى أفكارى وأن يجرب فىَّ قول شوقى: "خدعوها بقولهم حسناء" وقصد بما أراده علامة سوداء فى وجهى فقلت له فى شدة:

والله لولا مكانتك الأدبية لطردتك الآن. قال: ولم؟ هل أسأت أدبى فى شىء؟ قلت: كلا ولكنك فى نظرى اخطأت لأنك دققت فى وجهى حتى رأيت ما أسميه انا تشويهاً فادعيت أنه من محاسن الجمال. قال: هل فى رؤيتى لوجهك خطأ؟ ألم ترى انت وجهى أيضاً؟ قلت: نعم رأيت رجلاً لا أقل ولا أكثر ولم أدقق فى تقاطيع وجهك مثل ما دققت أنت. قال: إذن السلام عليك وأشهد أنه يجوز لفتاة فقط فى مصر أن تكشف وجهها أما باقى الفتيات فلا. ثم تركنى ومضى ولم ير من المدرسة إلا وجهى مع انه كان يقصد زيارتها.

ولم أعبأ بكل تلك الشهرة التى زادها المرحوم حافظ بك بل كتبت إلى المجلس أطلب فصل تلك المعلمة من مدرسة البنات فازداد حقد سعادة المدير والناظر علىَّ وعمدا إلى مضايقتى بشتى الطرق وأخيراً ثبت لدى أنى لا أستطيع العمل معهما فأردت أن أستقيل بطريقة تحفظ لى كرامتى بعض الشىء وقد كنت متعاقدة مع مجلس المديرية لمدة ٣ سنوات لم أعمل منها إلا سبعة شهور ونصف وكان فى العقد شرط ينص على أنى إذا أردت ترك المدرسة وجب علىَّ أن أخطر المجلس فى شهر مايو أى قبل انتهاء الدراسة ليستعد لتعيين ناظرة غيرى عند ابتداء الدراسة وأردت أن أعامل المجلس بالذمة والشرف وأن أستقيل فى الميعاد المحدد لاستقالتى فكتبت أقول إذا لم تفصل تلك المعلمة من العمل فإنى لا أستطيع البقاء فى المدرسة ولهذا أخطر المجلس باستقالتى وإخلاء طرفى من المدرسة ابتداء من آخر سبتمبر المقبل. وقد أردت بذلك أن أنهى سنتى المدرسية وأقوم بامتحانات النقل وأسلم المجلس المدرسة فى حالة مُرضية فى آخر سبتمبر ولا شك أن شهور الإجازة من حق الناظرة التى عملت ابتداء من أول أكتوبر إلى آخر مايو وكنا فى ذلك الوقت فى يوم ٢٠ مايو.

وما كادت تلك الاستقالة تصل إلى سعادة المدير حتى حركه الحقد للانتقام منى فعقد جلسة لمجلس المديرية بصفة مستعجلة عرض عليهم فيها استقالتى ولما كان الأعضاء جميعهم يعلمون الإشاعات التى تدور حول تلك المعلمة فقد صمموا على فصلها وقرروا ذلك فى جدول الأعمال قبل النظر فى استقالتى وبعد فصلها نظروا فى استقالتى وكان المنطق يقضى أن لا يكون هناك استقالة لأنى طلبت فصل المعلمة وقلت

إنى إذا لم ينفذ هذا الشرط أعتبر مستقيلة. ومادامت المعلمة قد فصلت فقد أجبت إلى طلبى ولا معنى إذن للاستقالة ولكنها الضغائن تفعل فى النفوس ما تشاء ولهذا تشدد الأعضاء فى فصل المعلمة ونفذ أمرهم ثم تشدد المدير بعد هذا فى قبول استقالتى كما كان يسميها.

ولقد كانت الحالة طبيعية بعض الشىء حتى فى قبول الاستقالة لو لم يُتَوجَها سعادة المدير باعمال استبدادية بحتة فقد حضر إلى المدرسة بنفسه فى يوم تلك الجلسة الساعة الثالثة بعد الظهر وأمر التلميذات بالخروج من المدرسة وأنهى السنة الدراسية بدون امتحان وسلمنى بيده قبول الاستقالة فشق علىَّ الأمر إذ إن المسألة اصبحت طرداً فظيعاً فقد طردت التلميذات طرداً تحمل كل منهن كتبها فى حجر ميدعتها وخرجن باكيات. وكان على حسب أمر المدير أن أخرج فى الحال ومعنى هذا انى طردت طرداً ولهذا رفعت أمرى إلى القضاء.

وكان أخذ ورد وإشاعات تتداولها الناس ورأى المدير أنه أخطأ فى هذا وأن عمله هذا يعد فسخاً للعقد لا قبولاً للاستقالة وأراد أن يصالحنى وكنت قدْ تركت المدرسة ومكثت فى منزل أخى بالفيوم ومن غريب الأحلام أيضاً أنى حلمت أن سعادة المدير دخل علىَّ يحاول أن يصلحنى وأن يعتذر إلىَّ وقمت أروى ذلك الحلم فى الصباح لأخى فقال: لعلك تريدين ذلك. ولكن كم كانت دهشته عظيمة ساعة تحقق هذا الحلم إذ حضر إلينا فى الساعة الرابعة بعد الظهر مأمور مركز سنورس وطلب مقابلتى فقابلته مع أخى فقال لى إنه يهتم بأمرى كثيراً لأنى خدمت الفيوم بإخلاص وعلَّمت بناته هو شخصياً وانه لذلك جاء من سنورس ليعرض على سعادة المدير الصلح على شرط أن يعطينى ثلثمائة جنيه وعلمت من ذلك طبعاً أن المدير قد طلب منه تلك الوساطة فقلت له: إنى أعلم أن سعادة المدير شديد فى عمله فكيف تجرأت أن تترك مركز عملك فى سنورس لتطلب منه هذا الطلب الذى لا يقبله؟ ومـاذا يكون حالك إذا هو لم يرفض طلبك فحسب بل عاقبك وانبك على تركك عملك؟ قال: ولكنى واثق أنه لن يفعل ذلك وأنه سيقبل عرضى وكان مع المأمور عمدة سنورس أيضاً فأخذ ينظر إلىَّ مندهشاً وقال المأمور: أؤكد لكِ أنه سيقبل هذا العرض وسيضمن حضرة العمدة قبوله هذا. قلت:

أعوذ بالله إنى أعرف من سعادة المدير ما لا تعرفان وأؤكد لكما أنه لن يقبل هذا العرض وقلق العمدة فى جلسته وقال محتداً "يعنى لازم نقول لكِ إنه هو بمثنا"؟ قلت: نعم أريد ذلك وأريد أن أقول لك إنى لا أقبله. وهنا حيا الاثنان وخرجا.

ويظهر أن سعادة المدير عرض الأمر على سعادة أحمد باشا لطفى السيد وكان على ما أظن من معارفه. وكان لطفى باشا يعرفنى لأنى كنت أول فتاة ذهبت إلى سعادته وهو مديراً للجريدة تعرض عليه نشر مقالاتها فقابلنى بأدبه المعروف وأعجب بمقالاتى ونشر لى كثيراًمنها فى جريدته ومن ثم نشأت بيننا معرفة وكنت أرى فيه رجلاً لا كالرجال فى أخلاقهم بل رجلاً كامل الآداب موفور الكمال، محترساً فى كل لفظة يقولها أمام أية فتاة، فلم أستطع أن أطبق عليه ما قرأته فى الروايات والكتب من آداب غيره من الرجال ولهذا كنت أعتبره رجلاً فذاً لا مثيل له فى الرجال. وكنت لهذا أحترمه احتراماً عظيماً.

عرض الأمر على سعادته وطلب سعادة المدير منه المساعدة فاستلم المبلغ وأمضى عليه ثم حضر إلىَّ وقال لى لقد ادعيت أنى وكيلك الشرعى فاستلمت لكِ هذا المبلغ وتم بينى وبين المدير الصلح على أنى وكيلك الذى لا مرد لكلامى فإذا كذبتنى فى ذلك فعليك إذن رفع الدعوى علىَّ لا على المدير. وكان رفعى الدعوى عليه من رابع المستحيلات وهكذا انتهت المسألة.

تعييني ناظرة
لمدرسة معلمات المنصورة

تركت الفيوم بعد انتهاء مشكلتي وبعد أن أصبحت أكره العمل الحر الذى ذقت ثمرته وعلمت منه أن مجالس المديريات قسم من الأعمال الحكومية لكنه قسم تعمه الفوضى أكثر من غيره. فالمدير فيه الحاكم بأمره يعمل ما يشاء ويتبع أعضاء مجلس المديرية إشارته فهو لا يأمر فيطاع بل هو يوحى من بعيد فيطاع إيحاؤه ويشير الإشارة المبهمة فتتفذ إشارته والرجل الذى يأمر مسئول عن أمره قد يخشى الخروج فيه عن حد الصواب. أما الرجل الذى يوحى من بعيد فهو فى مأمن من عاقبة ما يوحى به والمسئولية واقعة لا محالة على عاتق أعضاء مجلس المديرية وهم الموحى إليهم الذين يتنافسون فى تنفيذ هذا الإيحاء دون أن يفكروا فى عواقبه فالمدير فى مجلس المديرية مستبد أو ديكتاتور ولكنه مع ذلك غير مسؤول عن أعماله كباقى الديكتاتوريين فهو إذن أشد الديكتاتوريين تعسفاً ولا غرابة بعد هذا أن عمت أعماله وساءت عواقبها لهذا أصبحت أكره الأعمال الحكومية وفى مقدمتها مجالس المديريات.

وشاء الحظ أو سوءه أن يفتح مجلس مديرية الدقهلية مدرسة معلمات المنصورة وأن يطلب لها ناظرة من حاملات دبلوم السنية اللائى كن فى ذلك الوقت أندر وجوداً من العنقاء والخل الوفى وكان حضرة صاحب السعادة لطفى باشا السيد عضواً فى ذلك المجلس ولم يكن بالطبع من الأعضاء الذين يوحى إليهم بل كان هو العضو الوحيد الذى يصح أن يوحى إلى غيره لا أن يتلقى الإيحاء وعرض سعادته على المجلس تعييني ناظرة لتلك المدرسة وكان مدير المديرية فى ذلك الوقت المرحوم محمد باشا شكرى وكان صديقاً حميماً لحضرة صاحب السعادة لطفى باشا السيد كما كان فاضلاً متضلعاً فى العلوم ولهذا قبل ذلك العرض من سعادة لطفى باشا السيد واتفق معه على تعييني ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة وأخبرنى حضرة صاحب السعادة لطفى باشا

السيد بذلك وحدد لى يوماً للسفر إلى المنصورة واقترح أن أبيت فى منزل سعادته فى برقين وفى الصباح أذهب إلى المنصورة حتى لا اضطر إلى المبيت فى أحد الفنادق وهى عادة لم تكن مألوفة بين المصريات فرحبت بفكرة سعادته وشكرت له ذلك وذهبت إلى برقين وإذا بعربة المغفور له والده تنتظرنى عند المحطة فأخذتنى إلى منزلهم العامر فى برقين.

دخلت المنزل مغتبطة فقابلتنى شقيقتاه وزوجة والده بالترحيب كما هى عادة ذلك المنزل لكل طارق. جلست مع الشقيقتين وكان المنزل ينفذ الحجاب بالدقة فلا يدخل أحد من الرجال إلى محل الحريم وعلمت أن هؤلاء الفضليات من نساء برقين لم يقابلن رجلاً غريباً ولم يتحدثن إلى رجل أجنبى عنهن. وهنا هالنى الأمر وتساءلت فى نفسى ماذا يكون رأيهن فى مبيتى فى منزلهن وتحدثى مع شقيقهن؟ الا يبدو ذلك غريباً شاذاً فى نظر هؤلاء الفضليات؟ ولا يبعد بعد ذلك أن يحتقرننى لخروجى عن الفضائل التى اعتدنها. فكرت فى ذلك فمادت بى الأرض وخشيت على سمعتى السوء ولم أدر ماذا أصنع وأردت أن أتجنب مقابلة حضرة صاحب السعادة لطفى باشا السيد حتى لا أظهر أمامهن بالخروج على فضائلهن المتبعة فطلبت ماء لاتوضأ وتوضيت وصليت وجلست تائهة أفكر فيما عسى أن يقال عنى. وحضر صاحب السعادة لطفى باشا السيد ليرحب بى قياماً بواجب الضيافة وهو المعروف بكرمه وسخائه المتناهى. فقمت له ولما أراد أن يسلم علىَّ باليد اعتذرت إليه خشية أن ينقض وضوئى فجلس بعيداً عنى وكنت أجلس على ديوان كبير وضع بجانب نافذة تطل على جرن البلد واندهش لطفى باشا إذ رآنى على غير عادتى صامتة لا أتكلم ويبدو على محياى أنى سابحة فى بحر من الأفكار والهواجس فقال: هل أنتِ خائفة من تلك النافذة؟ وأشار إلى النافذة التى كانت خلفى؟ قلت: كلا. ولكنى أفكر فى كيفية مبيتى فى هذه الليلة وهل سأبيت مع شقيقتيك فى هذه الغرفة وهل لها مفتاح لنغلق الباب علينا؟ ونظر الفيلسوف إلىَّ فى شىء من الدهشة والسخرية وقال: إذن أنتِ تخافين من الباب لا من النافذة؟ فقلت: نعم. فضحك وقال السلام عليك. سأقابلك غداً فى المنصورة فى غرفة سعادة المدير وتركنى وانصرف. أما أنا فقد فرحت بالنتيجة التى وصلت إليها وإن كان قد ساءنى أن أظهر

أمام ذلك الفيلسوف الفاضل النزيه بمظهر الارتياب. ولكن هى الظروف فإن الفتاة يجب أن تصون سمعتها من أن يتسرب إليها أى شك أو تظهر أمام غيرها من فضليات الفتيات بمظهر لم يألفنه من قبل فتكون مضغة فى الأفواه. والناس لا يعلمون إلا المشاهد والملموس أمامهم.

وفى اعتقادى أن المعلمة على الخصوص يجب أن تكون مثال الأدب والنزاهة والشرف إلى أبعد حد من حدود الكمال مهما كلفها ذلك لتكون قدوة صالحة أمام تلميذاتها فإن أضافت إلى نزاهتها الظاهرية البادية نزاهة السريرة وما وراء الغيب فقد برهنت على أنها جديرة بمهنة التعليم والتهذيب وإلا فلا كان تعليم ولا تتوجه القدوة الحسنة من جانب المعلمات.

خرجت فى الصباح دون أن أقابل صاحب السعادة لطفى باشا السيد كما أراد هو ذلك وتقابلنا فى غرفة المغفور له محمد باشا شكرى وبعد كتابة العقد بينى وبين المجلس لمدة خمس سنوات دعانى المغفور له لتناول الطعام مع حضرة صاحبة العصمة حرمه وكان المغفور له وقوراً قليل الكلام يميل إلى الجد أكثر منه إلى الهزل حتى فى أحاديثه.

ذهبت إلى المنزل فقابلتنى السيدة الجليلة حرمه بالترحيب وجلسنا نتسامر وإذا بى أقابل سيدة لا كسيدات ذلك العصر بل سيدة متعلمة سامية الأفكار تدير منزلها بالحكمة والروية وكان المغفور له على تضلعه فى العلم يخشى جانبها ويجلها كل الإجلال.

جلسنا نتحادث فقامت بيننا من اللحظة الأولى صداقة متينة فأخذنا نتسامر ونضحك وقد أنِستْ كل منا بالأخرى. وحضر المغفور له فى وقاره وسكينته وكان قلبى قد اطمأن إلى حرمه المصون فعدت لا أخفى شيئاً إذا أنا تبسطت أو ضحكت. وهنا نظرت إلى سعادته فى شىء من الدعابة وقلت لا تؤاخذنى إذا أنا نسيت فى خطابك الآن أن أذكر كلمة سعادتك لأنى لم أعتد خطاب العظماء فأنا "أكره «سعادتك» من كل قلبى" أريد بذلك الكلمة لا شخص المدير.

واضطر سعادة المدير أن يضحك وأن يقول "أرجو أن لا تذكرى تلك الكلمة مادامت

تعلمك كراهتى". وهكذا توطدت بينى وبين صاحبة العصمة حرمه أواصر الصداقة من أول مقابلة وقد حرصت كل منا على تلك الصداقة إلى اليوم.

وابتدأت عملى فى مدرسة معلمات المنصورة بإعداد المدرسة وشراء أثاثها وترتيب كل ما يصلح لها قبل أن تفتح وكان المغفور له شكرى باشا لا يرد لى كلمة وإذا فعل أو أراد أن يفعل كان فى منزله من يرغمه على تنفيذ ما أريد خصوصاً وقد رأت صاحبة العصمة حرمه أنى لا أطلب إلا الصالح لتلك المدرسة التى يراد افتتاحها وفتحت المدرسة أبوابها وقد اقترحت أن تفتح إلى جانبها مدرسة ابتدائية ففتحت المدرستان فى وقت واحد وأقبل أعيان المنصورة على المدرسة الابتدائية إقبالاً مدهشاً حتى كان فيها جميع بنات أعيان البلاد المجاورة ومن بينهن شقيقة صاحب السعادة لطفى باشا السيد نفسه.

فى المنصورة

لم أستفد من حوادث الفيوم شيئاً ولعل طيش الشباب قد غطى على كل ما يجب أن أستفيده من تلك الحوادث فخرجت من الفيوم كما دخلتها وقد صممت عزمى على أن أكون المثال الكامل لتلميذاتى فى العصمة والكمال. لا أقول كما يقول غيرى إنى أكتفى بما أعلمه عن نفسى من الكمال بل أقول لابد أن يعلم الناس كل هذا. كتبت على باب المدرسة أوامرى السابقة ومن أهمها "ممنوع دخول الرجال إلا ابتداء من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الرابعة بعد الظهر" أى أثناء العمل فقط.

وكنت لا أضع كفيرى فى مدخل مكتبى "برافان" بل كنت أشدد على خادمى الخصوصى أن يكون على مقربة منى إذا دخل مكتبى ضيف أى رجل وأن يدخل أى الخادم علىَّ بلا استئذان. كنت أقول له ذلك لا لأنى خائفة من الضيُوف ولكنى كنت أعلم أن الخدم هم الذين يذيعون أسرار المنازل وأن الخادم وهو يرى ناظرته تخالف العادة المتبعة عند سيدات الشرق من عدم مقابلة الرجال قد يسىء الظن فيها إلى حد بعيد فأردت أن أغلق أمامه باب سوء الظن وأجعله يشعر أنى لا أخلو برجل لأنى قد أمرته أن يكون على مقربة منى بحيث يرانى ويسمعنى أى يسمع ما يدور بينى وبين ضيفى من الحوار.

وكنت إذا أردت أن أكتب إلى ناظر المدرسة الأميرية أو أحد موظفى مجلس المديرية خطاباً أستفهم فيه عن شىء أو أطلب شيئاً أرسلت الخطاب مع خادمى مفتوحاً حتى لا أترك له سبيلاً إلى الظن والتخمين فيقول: هؤلاء المتعلمات يكاتبن الرجال لغايات أخرى. بل كنت أريه الخطاب وأخبره مضمونه وأضعه أمامه فى المظروف وأتركه مفتوحاً وأسلمه إليه ليكون مطمئناً إلى أن المسألة لا تتعدى العمل ولعل الزمن نفسه كان يتطلب منى ذلك الحرص فقد كان اللوم موجهاً إلى المتعلمات وكثيراً ما كانت الصحف تحمل عليهن وكان الجهلاء من الناس لا حديث لهم إلا الطعن فى التعليم وتشويه سمعة المتعلمات.

فكان عليَّ والحالة هذه أن أبرهن لجميع هؤلاء أنهم مخطئون وأن التعليم لا يفسد صالحاً كما أنه لا يصلح فاسداً اللهم إلا قليلاً.

وكان لحسن حظى أن وثق الناس بى وتحدثوا عنى بالخير ودفع هذا بعض أعيان المنصورة إلى زيارة المدرسة ليروا تلك التى سمعوا عنها كثيراً ولكن شاء سوء الحظ أن تكون زيارتهم بعد الساعة الرابعة وأن لا يسمح لهم البواب بذلك لأن الناظرة تقيم وحدها فى المنزل ولا تسمح لأحد من الرجال بزيارتها إلا أثناء العمل.

عز عليهم الأمر وقد كان بعضهم من أعضاء مجلس المديرية وهم لذلك يعتبرون أنفسهم أصحاب تلك المدرسة لا يجوز لأحد أن يرد لهم رأياً أو يناقشهم الحساب فيها.

عادوا من المدرسة غاضبين وشكوا أمرهم إلى سعادة المدير، وكان كما قدمت فاضلاً محباً للعلم، وكان يود أن تنجح المدرسة التى أسسها هو وأن يثق الناس بالناظرة التى عينها، وكان يسره أن يسمع دائماً فيها مدحاً لا قدحاً. فهدأ من ثائرتهم وأفهمهم أنى على حق فيما فعلت لأنى على كل حال فتاة صغيرة السن ولا يجوز لى أن أختلط بالرجال فى غير أوقات العمل.

فعل ذلك ثم أرسل إلىَّ وقص علىَّ القصة وقال: لقد صممت أن أصدر أمرى بأن لا يزورك أحد إلا بعد أن يأخذ إذنى فى زيارتك. قلت: أنا لا أعطيك هذا الحق ولست انت بقريبى ولا بولى أمرى حتى تسمح بزيارتى أو تمنعها ولقد صممت أن لا يكون لرجل علىَّ سلطان ولو أردت ذلك لاتبعت الطريقة المشروعة. ومكانتك منى كمكانة كل فرد فى المنصورة. فأنت رجل أجنبى عنى وإذا كان يعيب المرأة أن ترى الرجل الأجنبى كانت رؤيتى لك عاراً لا اقبله أما إذا كان كما أعتقد أن المرأة لا يعيبها أن تقابل الرجال مادامت متمسكة بالفضيلة والكمال فلا بأس إذن من أن أقابلك وأن أقابل غيرك، أما أن تتحكم أنت فى أمورى الشخصية فهو ما لا أقبله.

قال: لقد أردت أن أمنع عنك لوم الناس فأقول لهم إنى أنا الذى أمنعها من مقابلتكم فلا يكون عليك مسئولية فى عدم مقابلتهم فلا يغضبون منك ولا يغضبون منى. قلت: إنى شخص كامل يجب أن أكون مسئولة عما أفعل ولا يهمنى أن يغضب علىَّ شخص أو أشخاص مادمت على حق فيما فعلت وأنا أود أن أتحلى بالفضيلة مختارة لا

مضطرة والسجين المقيد لا يوصف بالأمانة. إنما يوصف بها من يستطيع السرقة ولم يفعل. ولهذا أريد أن أمتنع عن الرجال إذا شئت أنا ذلك لا إذا شاء ذلك غيرى. قال: جازاك الله، أنتِ تستحقين ما وصفوك به من الفلظة والشدة. قلت: ولا بأس فى ذلك.

زارنى بعد ذلك الرجال فى أثناء العمل فسرتهم مقابلتى وأعجبهم حوارى وأثنوا على المدرسة ثناءً حسناً وانتهت المسألة بميل كل أعيان المنصورة إلىَّ ودفاعهم عنى. وكان أعضاء مجلس المديرية يدعون دائماً أنهم أولو الأمر فى مدارس المجلس وكنت كثيراً ما أردهم إلى الصواب فيما يدعون. وتصادف أن زارنى أحد هؤلاء الأعضاء فأحسنت مقابلته ورحبت به كعادتى المألوفة إذ ذاك لكل طارق وأمرت الخادم أن يحضر القهوة وكان مع العضو ضيف آخر وغابت القهوة فأظهر عضو المجلس غضبه وتألمه لتأخر القهوة عن الميعاد كأنه أراد أن يظهر للضيف الآخر مقدار سلطته على المدرسة وناظرتها وخدمها. فقلت له ضاحكة: أو تظن أن فراشى سيحضرها؟ قال: ولم لا؟ قلت: لا يا سيدى إنك مخطئ. إنى أعمل هنا ناظرة لمدرسة يهمنى إتقان أعمالها المدرسية وبينى وبين خدمى اتفاق أنه إذا كانت مراحيض المدرسة مثلاً لم تنظف فعليهم أن ينظفوها قبل أن يحضروا لى قهوة أو غيرها من تلك الكماليات، وليس هذا يا سيدى بمندرة دوارك يجب أن يكون الخدم فيها على أتم استعداد لمقابلة الضيوف بل هذه مدرسة يجب أن يكون خدمها على استعداد للقيام بأعمالهم المدرسية من نظافة وغيرها.

فلم يستطع العضو إلا أن يغض الطرف عن كلامه وأن ينسحب بانتظام لا كانسحاب الطليان بغير انتظام.

مناهج التعليم

ومناورات وزارة المعارف للإشراف على مجالس

المديريات فى الماضى

كانت وزارة المعارف كثيراً ما تعطى السلطة لرجال لم يهبهم الله من الخبرة ما ينالون به التوفيق فى أعمالهم. فإذا فتحت مدارس جديدة دبروا لها من المناهج ما لا يستطيع الإنسان أن يسير به عملياً فى طريق النجاح. وكانت مدارس المعلمات فى ذلك الوقت جديدة وقد وضع لها منهج خاص فكان فيه العجب العجاب.

لم تكن الطالبات تتعلم قواعد النحو فى المدارس الأولية بل كانت تدخل مدارس المعلمات وهى لا تعرف شيئاً من قواعد النحو فى اللغة العربية. وكان المنهج يقضى أن يعطى لهن فى السنة الأولى مرفوعات الأسماء والأفعال والممنوع من الصرف. ولا أدرى كيف تيسر لواضع المنهج أن يعلم الممنوع من الصرف لطالبات لم يتعلمن المجرورات. يقول لهن المعلم إن الاسم الممنوع من الصرف يجر بالفتحة نيابة عن الكسرة وهن لا يعرفن متى يجر الاسم. وتخصيص إعطائهن المرفوعات فقط دون المنصوبات كان أيضاً مضحكاً، لأنهن كن يتعلمن خبر إن دون أن يعرفن اسمها كما يتعلمن اسم كان دون أن يعرفن خبرها وهو تعليم ناقص مختل لأنى إذا أعطيت التلميذة جملة فيها كان أو إن وجب أن تعرف أن اسم الأول مرفوع وخبرها منصوب واسم الثانية منصوب وخبرها مرفوع لا أن تعرف شطراً من كل جملة. وعلى ذلك يكون التعليم آلياً، عبارة عن حفظ لا يستند إلى شىء عملى مفهوم.

أما فى الحساب فكان منهج السنة الأولى إعادة الأربع قواعد الأصلية ثم تجنيس الكسور الاعتيادية، ومهما فكر الإنسان ودقق لا يستطيع أن يفهم عقلية واضع ذلك المنهج: أولاً لأن الكسور العشرية أسهل من الاعتيادية وكان يجب البدء بها لأنها تسير حسب سير الأعداد الصحيحة خطوة بخطوة مع ملاحظة أين توضع الشرطة العشرية،

أما الكسور الاعتيادية فلها قواعد تخالف قواعد الأعداد الصحيحة بالمرة. ولو جاز لنا أن نعلمها قبل أن نعلم الكسور العشرية لما جاز لنا إطلاقاً أن نبتدئ فيها بالجمع والطرح بل يجب أن نبتدئ بالضرب والقسمة لسهولتهما ثم نعلم بعد ذلك الجمع والطرح ومادام الإنسان لا يستطيع أن يجمع ربع ونصف ما لم يجنس كسرين فنحن عند الجمع نضطر إلى عملية التجنيس اضطراراً. أما أن يعطى التجنيس فقط دون جمع ولا طرح فهو ما لم أفهمه إذ ذاك ولم أفهمه بعد ذلك.

ولهذا سار التعليم فى مدرستى حسب تفكيرى أنا لا حسب المنهج فكانت التلميذات فى السنة الأولى فى اللغة العربية يطبقن فى كتاب المطالعة على جميع القواعد الكثيرة الورود وهو ما ابتدأت مصر تفكر فيه والحمد لله الآن، أما فى الحساب فقد كنت أعلمهن الكسور العشرية لأثبت قواعد الأعداد الصحيحة من جمع وطرح وضرب وقسمة ثم أعلمهن بعد ذلك ضرب الكسور الاعتيادية وقسمتها ثم جمعها وطرحها وبعد أن اجمع ربعاً وربعين أضطر اضطراراً إلى تعليمهن طريقة التجنيس.

وكان مفتشو الوزارة إذا دخلوا مدرسة معلمات المنصورة لا يكتبون عنها شيئاً فى سيرها فى طرق التعليم وإنما يوازن الواحد منهم بين منهج الوزارة والمنهج الذى تسير عليه المدرسة دون تفكير ثم يشرح كيف تخالف هذه المدرسة منهج الوزارة.

ولم أكن أعبأ كثيراً بتلك التقارير التى لا شىء فيها جديد علىَّ، لأننى كنت أعلم والحمد لله الفرق بين منهجى ومنهج الوزارة وكان من ضمن ما كنت أخالف الوزارة فيه من النظم أنى كنت أعطى طالباتى خمس حصص فى الصباح وحصتين فقط فى المساء وبذلك كن يخرجن للغذاء فى الساعة الثانية عشرة والنصف بينما تخرج مدارس الحكومة فى الساعة الحادية عشرة والنصف، الوقت الذى لم يعتد بيت من البيوت الغذاء فيه. وكانت طالباتى تعود إلى المدرسة الساعة الثانية بعد الظهر بينما كانت تلاميذ المدارس الأميرية يعودون الساعة الواحدة أى فى زمن لا يستطيع معه التلميذ هضم الأكل والاستعداد لقبول الدرس. وكان هذا من أظهر مخالفاتى لنظم وزارة المعارف.

"ومن العجيب أن الوزارة منذ عامين أو ثلاثة قد اتبعته فى مدارسها الثانوية". وظللنا على هذا حتى دخلت مدرستى امتحان الكفاءة للمعلمات الذى تقوم به الوزارة

نفسها وإذا بها الأولى على جميع المدارس. وقد تفوقت خصوصاً فى اللغة العربية والحساب وهنا قامت الوزارة وقعدت وأخذ الناس يوازنون بين مدرسة معلمات المنصورة التى تديرها مصرية ومعلمات بولاق القديمة التى تديرها إنجليزية وشق ذلك بالطبع على الوزارة فأخذت تفكر فى نبوية موسى لأول مرة، وليتها ما فكرت.

اتجه الفكر على ما يظهر فى الوزارة إلى عدم إبقائى فى تلك الوظيفة مهما كلفهم ذلك، ولكن المدير كان كما قدمت رجلاً فاضلاً فلم يعبأ بما كانت تفرضه عليه الوزارة من السخافات.

غضب مفتشو الوزارة لتفوق معلمات المنصورة على غيرها رغم سيرها على طريقة تخالف طريقة الوزارة وأرادوا أن يحرضوا مستر دانلوب مستشار المعارف ضدى. وتصادف لسوء حظى أن أساء التصرف أحد مفتشى الوزارة فى مدارس البنين فمس كرامة مجلس المديرية وغضب سعادة المدير لذلك وكان رجلاً أبيَّ النفس فقرر أن لا يدخل أحد مفتشى وزارة المعارف مدارسه وكانت مجالس المديريات فى ذلك الوقت مستقلة كل الاستقلال عن وزارة المعارف. ونقل هذا الخبر إلى مستر دانلوب مشوهاً محرفاً فقيل له: إن نبوية موسى لصداقتها لحضرة صاحبة العصمة حرم المدير قد أثارته ضد وزارة المعارف وهى تريد أن لا يكون للإنجليز يد فى مجالس المديريات وهى لذلك تعلم طالبات المعلمات اللغة الإنجليزية حتى لا تحتاج إلى تعيين إنجليزية فى المدرسة الابتدائية لتعليم اللغة.

وغضب مستر دانلوب لهذا التحدى ولكن الرجل كان عملياً فأراد أن يحضر بنفسه ليعلم مدى تلك القصة. وكان قد ابتدأ أن يتفق مبدئياً مع مستشار الداخلية أن يكون له الإشراف على مدارس مجالس المديريات. وفجأة ومن غير علم منى ولا من المدير زارنى جناب المستر دانلوب وكان يظهر على محياه الغضب وما كدت أراه حتى قمت وحييته ورحبت به وأهلت ولكنه قابل تحيتى وترحيبى بشىء من التجهم وقال بشىء من الغلظة: أريد أن أرى فصول المدرسة. قلت: أهلاً وسهلاً، تفضل. ودخلت معه المدرسة وزار الفصول فسر منها وابتدأ يظهر ارتياحه ثم قال لى: ألم يرسل المدير إلى مدارسكم أمراً بعدم إدخال مفتشى وزارة المعارف إليها؟ قلت: نعم لقد كان ذلك. قال: فما السبب الذى

حمله على هذا؟ قلت: لا علم لى به. قال: وكيف إذن أدخلتنى فصول المدرسة مادام المدير يمنعك من هذا؟ فقلت: إنى أعرفك تمام المعرفة. ولم أدخلك كمفتش من وزارة المعارف بل أدخلتك كصديق لى أنا ولناظرة المدرسة أن تدخل من تشاء من أصدقائها على شرط أن لا يكون فى دخوله ما يخالف الآداب وأنت مستشار المعارف أى رجل معروف فى الأوساط العلمية ولا بأس من دخولك مدرستى شاء المدير أم لم يشأ. قال: وهل هذا سيكون اعتذارك إليه؟ قلت: نعم. فخف غضبه بعض الشىء ثم ذهب إلى المدير فعرفه هذا أن مسألة منع مفتشى وزارة المعارف لم يكن لها اتصال بى بتاتاً ولكن الرجل مازال فى شك من أمرى خصوصاً بعد أن قيل له بجانب هذا إنى أنافس الناظرة الإنجليزية وإنى قد تفوقت عليها وأنا أفخر بذلك.

وانتهت هذه الحركة بأن أشرفت وزارة المعارف على مدارس مجالس المديريات وذلك بأمر جناب مستشار الداخلية الذى لا يستطيع المدير مخالفته.

غضب يمحو غضباً

كانت صلتى بحضرة صاحبة العصمة حرم المغفور له محمد باشا شكرى مدير الدقهلية فى ذلك الوقت قوية متينة كما قدمت فكنت أزورها دون تكليف وأدخل عليها بدون استئذان ولكنى مع هذا كنت أحتاط لسمعتى فلا أرفع التكليف فى منزل المدير إلا إذا كان هو غائباً عنه وقد عرف خدم المنزل مكانتى من صداقة سيدتهم فكانوا يرحبون بى عندما أزور المنزل وحدث أنى ذهبت إلى منزل المدير ومعى كالعادة ساعى المدرسة وعندما نزلت من العربة التى أقلتنى إليه، سألت البواب عن السيدة فقال لى بسذاجة إنها خرجت يا سيدتى ولكن سعادة المدير يجلس وحده فى السلاملك فتفضلى بالدخول عنده. وساءتنى هذه الكلمة البسيطة إذ إنها قد تشعر ساعى المدرسة أنى اعتدت أن أزور المدير فى منزله منفرداً عند غياب زوجته.

ساءتنى تلك الكلمة البسيطة لأن الناس فى ذلك الوقت كانوا يسيئون الظن بجميع المتعلمات شأن عامة الناس بكل جديد. غضبت من بواب المدير غضباً كاد يدفعنى أن أخاطبه بغير الكلام لو أن ذلك كان من عادتى وقلت له فى حدة متناهية ومن الذى سألك عن المدير أيها الحمار؟ وهل من عادتى أنا أنى أزوره أو أسأل عنه؟ الحق أنك غبى بليد. قلت ذلك وعدت مسرعة إلى العربة التى أقلتنى إلى منزلى فى الحال. وسمع سعادة المغفور له تلك الألفاظ فساءه أن يبدو من ألفاظى الشك فى سمعته وهو الأبى المعصوم فغضب وأخذ يقول إن نبوية قد خرجت عن حدود الأدب فى ألفاظها. وشاء حسن الحظ أن تعود السيدة حرمه وهو يعتب على ويستنكر ما قلته فساءها أن يشتمنى كما زعمت واشتبكت معه فى نقاش عنيف كاد يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه وأخذت تقول له إنك غريبتى عن بلادى وأنت مع هذا تكره كل صديقة تدخل بيتى وتخفف من ألم غربتى وإنى لاحظ على نبوية أنها تشعر بكراهتك لها إلى درجة أنها تترك المنزل عندما تعود أنت إليه. اشتد بينهما الجدل والخصام وكانت هى الغالبة شأن كل السيدات وطلب

هو الصلح فلم يفلح فأراد أن يوسطنى فى الأمر فاستدعانى تليفونياً بعد أن أخبرنى أن السيدة قد عادت فحضرت فى الحال فوجدته يقطع بهو المنزل ذهاباً وجيئة وهو فى حالة غضب فلما وقع بصره علىّ أشار إلى الغرفة التى كانت تجلس فيها حرمه وقال: انظرى كيف كنتِ سبباً فيما بينى وبينها من خلاف فلم أجبه ولكنى دخلت عليها مسرعة وما كادت ترانى حتى زاد غضبها وقالت إنه أراد أن يبلغك هذه القصة حتى ينفرك من زيارتى. قلت: كلا يا سيدتى إنى إنما أحضر هنا لزيارتك لا لزيارته ولا يهمنى أغضب هو علىّ أم رضى ولكن اسمحى لى أن أقول لك إنك ظالمة فى غضبك منه لأنه شتمنى داخل منزله بعد أن أسأت أنا إليه على مسمع من الخدم وعلى قارعة الطريق. إنى أنا المخطئة لا هو. فزال غضبها من كلامى وتم بينهما الصلح.

كانت هذه الحادثة سبباً فى إفلاتى من عقاب محقق أراده جناب المستر دانلوب مستشار وزارة المعارف وهكذا أراد الله أن يكون السوء سبباً فى الخير. فقد كتبت مقالة فى إحدى الصحف أنتقد فيها بعض أخطاء الرؤساء وكنت أقصد الرؤساء المصريين طبعاً ولكن أحد خصومى أفهم دار المندوب السامى أن المقصود بالرؤساء فى تلك المقالة هم الإنجليز واتصلت دار المندوب السامى بجناب المرحوم المستر دانلوب وطلبت منه أن يطلب فصلى من وظيفتى بما له من إشراف على مدارس مجالس المديريات وأسرع المستر دانلوب إلى تلبية ذلك الطلب عندما عرف أن سببه هوطعنى على الإنجليز فزاد ذلك ما كان فى نفسه من الشك فى منافستى للإنجليز وكراهيتى لهم. وحضر خصيصاً إلى المنصورة يطلب من المغفور له محمد باشا شكرى تنفيذ تلك المهمة أى فصلى فى الحال وكان ذلك بعد الحادثة التى ذكرتها بيوم واحد فحار فى أمره وتأكد أن حضرة صاحبة العصمة حرمه لا يمكن أن تصدق تلك الرواية بل إنها ستتأكد من أن الفصل إنما بنى على غضبه منى وأن الحادث سيكون وقعه شديداً على نفسها خصوصاً إذا اتهمته هو شخصياً بتدبيره.

احتار الرجل فى أمره وفكر فى حضرة صاحب الرفعة محمد باشا محمود لقربه من صداقة الإنجليز واستطاعته التفاهم معهم وكان فى ذلك الوقت محافظاً للقنال فسافر فى الحال إليه وطلب منه أن يبحث فى دار المندوب السامى عن سبب غضب الإنجليز

عليَّ لعله يجد حلاً لذلك وذهب صاحب الرفعة محمد باشا محمود فعرض عليه المقال فترجمه لهم ترجمة حقيقية وأفهمهم أن المقصود بذلك المقال رئيس مصرى فكتبت دار المندوب السامى إلى المستر دانلوب تقول له إن الترجمة خطأ وإنه لا معنى لتنفيذ العقاب وفى الحال خاطب المستر دانلوب شكرى باشا تليفونياً وطلب منه أن يصرف النظر عن مسألة الفصل وما كاد المغفور له يعلم هذا حتى قص القصة على حرمه بعد أن أخفاها عنها كل تلك المدة. ومن غرائب الأحلام أنى حلمت أن إنجليزياً لا أعرفه دنا منى وقبلنى فساءنى ذلك منه واعتبرته إهانة عظيمة، أخذت أبكى وأنتحب من أجلها وأخيراً اعتذر إلىَّ الإنجليزى قائلاً إنه أخطأ وما كان يريدنى بذلك. فزال الى عند اعتذاره وشعرت بشىء عظيم من الراحة وفى اليوم التالى زرت صديقتى حرم المدير فرويت لها الحلم وقلت إنى أخشى أن تنزل بى كارثة ثم تزول ولست أدرى ما نوع الكارثة. قالت: لا تخشى شيئاً فإن الكارثة قد وقعت وقد زالت ثم قصت علىَّ قصة المستر دانلوب وما فعله المغفور له زوجها لإنقاذى وهكذا شعرت نفسى بشىء لم أكن أعلمه ولعل للأحلام علاقة بما تشعر به الروح الداخلية للإنسان من إحساس غامض فهى قد تشعر بما يحيط بها بينما يجهله الإنسان نفسه فى يقظته. ويخيل إلىَّ أن الإنسان قد يرى فى أحلامه الأشياء التى حدثت بالفعل وعرفها غيره لأن الروح قد تشعر بما يحيط بها من الحوادث التى وقعت فعلاً أما الغيب أى الحوادث التى لم تقع ولم يعلمها أحد فأستبعد أن يراها الإنسان فى أحلامه وإن كنت أنا شخصياً قد حلمت مرة حلماً خشيت أن يفسر بوفاة المرحوم شقيقى وقد كان ما خشيته وتحقق الحلم بعد أربع سنوات ولست أدرى أكان ذلك لحبى الشديد له وخوفى عليه فحلمت ذلك الحلم ثم شاءت الصدف السيئة أن يتحقق؟ أم أن هناك أسباباً أخرى لمثل تلك الأحلام قد نجهلها الآن وقد يكشف العلم فى المستقبل عن حقيقتها؟ على أنى أعترف أن جميع الأحلام التى رأيتها وتحققت كانت كلها وقائع صحيحة حدثت وعرفها غيرى يوم رأيتها أنا فى منامى اللهم إلا هذا الحلم الوحيد الذى رأيت فيه المرحوم شقيقى يهوى إلى حفرة عميقة فيحدث صوتاً مفجعاً عظيماً أيقظنى من نومى وأنا أردد كلمة "أخى" وبعد ذلك بأربع سنوات ذقت تلك الفاجعة ولكنى لم أتكلم بل تحدثت دموعى كثيراً فنابت عن الكلام وهى وأيم الحق أبلغ ما يقال.

إصلاح مدرسة المنصورة أخلاقياً

ومخاوفى التى كنت أخشاها بعد إطلاق يدى فى المدرسة

أقنع حضرة صاحب الرفعة محمد باشا محمود الإنجليز - كما قدمت - ببراءتى مما اتهمت به. ووثق حضرة صاحب السعادة المغفور له مدير الدقهلية بأعمالى فأطلق يدى فى إدارة المدرسة حتى كان لا يعارض لى أمراً فالتفت إلى إصلاح المدرسة من الوجهة الأخلاقية فاتجهت بنوع خاص إلى مسلك المعلمات لأنهن قدوة التلميذات. وكان بالمدرسة معلمة من المدرسة السنية قد نالت شهادتها بعدى بثلاث سنوات فقط وقد كانت زميلتى فى بعض سنى الدراسة ولكن ما تعلمته من العلوم لم يكن لينير لها السبيل فى حياتها الشخصية لأنها على ما يظهر اقتصرت على علوم المدرسة وهى لا تتناول شيئاً من أخلاق الرجال ومشاكلهم مع السيدات مثلاً، أما أنا فقد كنت على العكس من ذلك قد استفدت فائدة عظيمة من قراءتى كثيراً من المجلات والقصص الغرامية التى كانت تمثل لى أخلاق الرجال وحيلهم فى سلب النساء الشرف والمال معاً.

لهذا كنت يقظة أكاد أعرف ما يكنه الرجل من وراء تملقه فتاة من الفتيات. وكان لتلك المعلمة ابن عم كان يظهر لها الولوع بها إلى درجة بعيدة وكان فى الوقت ذاته يريد أن يولعها هى به ليسلبها ما كانت تتقاضاه من مرتبها فكان يرسل لها كثيراً من الخطابات ويطلب فى كل خطاب يكتبه أن تكثر هى من الكتابة إليه ويلومها على عدم تغزلها به وإظهارها حبه وغرامه فى كتاباتها فكان بذلك يريد أن يعلمها كيف تولع به وعرفت من خلال كلامه فى تلك الخطابات انه لا يُكِنُّ لها حباً وأنه إنما يريد أن يستغل ما يتظاهر به من الحب لمصلحته الشخصية ليسلبها ما استطاع أن يسلبها من المال.
وكانت المسكينة تحرم نفسها من ضروريات الحياة وترسل إليه مرتبها كاملاً تقريباً.

نصحت لها بعبارات مبهمة فلم تفهم قصدى ولم يزدها كلامى إلا تعلقاً بابن عمها وغراماً به. وأخيراً أرسل إليها خطاباً يقول لها فيه إنه سيحضر إلى المنصورة فى يوم

الجمعة ليقضى معها يوماً مفعماً بالمغامرات الغرامية بين الحقول والمياه. وساءنى أن يتم ذلك لأن المنصورة بلد صغير لا يخفى على سكانه شىء مما يدور فيه فلم أسلمها ذلك الخطاب ولم أخبرها به ولكنى فى الساعة المضروبة لحضوره جلست فى مكتبى وقلت للبواب إذا جاءك رجل يسأل عن فلانة فقل له إن ناظرة المدرسة تنصحك بترك المنصورة حالاً وإلا قبض عليك. فكان كلام البواب مفاجأة مفزعة للرجل أسرع بعدها إلى القطار الذى أقله إلى القاهرة. وسافرت المعلمة بعد ذلك إلى القاهرة فعرفت ما تم له وساءها الأمر فجاءتنى غاضبة تلومنى على ما حدث فهدأت من غضبها ونصحت لها أن تتروى فى الأمر وأن لا تأتمن ابن عمها هذا كثيراً لأنه يظهر لى أنه خائن محتال. وعارضت طبعاً فقلت لها إذا كان ينوى الزواج منك فما الذى يؤخره إلى اليوم؟ وهل عندك مانع من أن يتم عقد الزواج الآن؟ قالت: لا مانع عندى ولكنه هو يتعلل بعلل قد لا أفهمها. قلت: إذن هو محتال كاذب وإنى أمنعك بتاتاً أن تكاتبيه أو تستلمى منه خطابات ما لم يعقد عليك ومادمت أنت لا مانع عندك فيجب أن يسرع هو إلى تنفيذ ذلك لتكونى واثقة من حسن نيته.

وبعد يومين جاءنى خطاب منه يقول لى إنه لا يجوز لى مطلقاً التدخل بينه وبين زوجته المستقبلة وإن له أن يكاتبها وأن يتنزه معها ما شاء وشاء له الهوى. فأرسلت أقول له إنى قد فهمت من جملة خطاباته أنه لص محتال وأنه لا ينوى الزواج بها بل هو يستغل تظاهره بالحب ليسلبها المال وأنه فى نظرى أسفل الرجال قاطبة لأنه لم يختر فريسة له يسلبها العرض والمال إلا ابنة عمه التى كان يجب عليه أن يدافع عن شرفها وأن يحمى ذلك الشرف بكل ما يستطيع لا أن يكون هو أول من يفسد أخلاقها وإنى لهذا لا أصرح له ولا لها بالمكاتبة إلا إذا أسرع إلى عقد العقد وأصبحت زوجته الشرعية ومن غير هذا لا يمكننى أن أسمح له بشىء من ذلك الحب الدنىء المتصنع.

وانقطعت جواباته بالطبع عنها فلم تطق صبراً وسافرت إلى القاهرة فى عطلة الأسبوع واضطر هو إذ ذاك أن يعقد عليها. وقال لها بعد انتهاء العقد: عليك أن تشكرى ناظرتك لأن خطابها إلىّ هو السبب فيما تم اليوم. وثارت ثائرتها كيف تكتب له

الناظرة وهل وقعت هى فى غرامه ايضاً؟ فقال لها ضاحكاً: "غرام إيه يا شيخه؟ دى لعنت أبويه".

تم عقد الزواج وتركت المدرسة فى آخر السنة ولكن ابن عمها ما لبث أن أظهر لها غايته الحقيقية وهو أنه لا يميل إليها ولا يريدها زوجة له خصوصاً بعد أن أصبحت ولا مرتب لها أى بعد أن غاض منبع النقود الذى كان يغريه بالتقرب منها. فطلقها دون أن يدخل بها. وهكذا ظهرت غايته واضحة جلية وعرفت هى أنى كنت على حق فيما نطقت لها به.

وبعد هذه الحادثة استقامت معلمات المدرسة ولو فى ظاهرهن وصح ما كنت أريده من ظهورهن بمظهر الكمال والحشمة ليكنَّ قدوة صالحة لطالباتهن. وكانت كلمتى نافذة لا مرد لها فاستقامت شئون التعليم فى المدرسة ودخلت تلميذات المدرسة امتحان شهادة كفاءة المعلمات فتفوقت مدرسة المنصورة على جميع مدارس المعلمات الأولية ومن بينها مدرسة معلمات بولاق. وأخذ الناس يتناقشون فى المفاضلة بين الناظرة المصرية والإنجليزية لأن ناظرة مدرسة بولاق كانت إنجليزية وكان الناس قبل ذلك يعتقدون بأن المصريات لا يصلحن بتاتاً لنظارة المدارس وأثبتت لهم تلك الحادثة عكس ما كانوا يتوهمون. فأخذوا يفضلون الناظرة المصرية على الإنجليزية وفى ذلك فتح باب ما كان ليلجه أحد فى الماضى وهو تعيين ناظرات مصريات لجميع المدارس. وكان الإنسان فى ذلك الوقت لا يستطيع أن يجاهر بفكرة تعيين ناظرات مصريات وإلا تعرض لخطرين معاً أولهما وهو صحيح غضب السلطات الإنجليزية عليه ووقوفها فى وجهه، وثانيهما معارضة السامعين لما يقول ودحضهم أقواله وبراهينه بكل ما يستطيعون. ويظهر أن أعدائى اتخذوا من ذلك سلاحاً يحاربوننى به فيما أريده من الإصلاح اعتقاداً منهم أن الإنجليز سيساعدونهم على كل ما يريدون ولكن المستر دانلوب كان على العكس من ذلك لا يزال يعطف علىَّ، تبين لى فى ذلك الحين حرج مركزى وعرفت عدواً قوياً يسعى ورائى. ويجتهد فى أن يعين مديراً للدقهلية حتى يستطيع الانتقام منى. وكنت أعتقد اعتقاداً لا يخالطه شك فى أنه سينجح فيما يريد وأن بقائى كناظرة لا يمكن أن يدوم وأنى سأضطر إلى تركى هذا العمل غضبت أم رضيت قبلت أم رفضت. فقدمت فى

مدرسة الحقوق منتسبة وكان أن نجحت فى جميع السنوات إلى أن أصبحت فى السنة الرابعة وكان من المؤكد أن أنجح لو أنى استطعت دخول ذلك الامتحان وقبل الامتحان بشهر أرسل إلىَّ المستر دانلوب أحد المفتشين الإنجليز ليطلب منى عدم دخول ذلك الامتحان. صارحته بمخاوفى وقلت إنى لن أبقى كثيراً فى وظيفة ناظرة ولذلك فأنا أتلمس بتلك الشهادة التى أريد أن أنالها عملاً آخر فى الحياة فاستدعانى المرحوم المستر دانلوب وأظهر لى كل عطف وقال لى إنه مسئول عن بقائى ناظرة دون أن يتعرض لى أحد ولما كاشفته بأن هذا العدو سيكون مديراً للمنصورة فى أقرب وقت قال إنها أوهام فتيات لا تنطوى على حقيقة فقلت له هب أنها تحققت فماذا يكون موقفى أو موقفك؟ قال سأحميك بكل ما أستطيع قلت يكفينى هذا الوعد الصريح. وامتنعت عن دخول الامتحان لأنى كنت أعتقد أن المرحوم المستر دانلوب إذا قال فعل.

ذكريات حديثة

عفواً أيها القارئ فسأخرج بك من ذكرياتى القديمة الغريبة التى تكاد تكون ضمن القصص إلى ذكريات حديثة لا تقل عنها غرابة، ولعلها تهمك لقربها من الزمن الذى نعيش فيه.

قضى علىَّ سوء الحظ أن أكون ناظرة لمدرسة حرة كما يدعون، أو لمدرسة مستعبدة كما أسميها أنا، وقامت إيطاليا - لا عفا الله عنها - فهاجمت مصر بطائراتها فخاف الناس - وذلك قبل أن تنتصر إنجلترا وتخلصهم من ذلك الخوف - خشيت كما خشى كل ناظر من عدم استمرار المدارس فى عملها وكان خوفى مضاعفاً لأن الناس فى مصر يعتبرون تعليم البنات كمالياً لا ضرورة له - فهم إذا قامت الحرب رأوا أن المنزل خير مكان يأوى الفرد، لهذا خشيت ألا أتمكن من الإنفاق على مدارسى وصممت على أن أغلقها خوفاً من أن تفلس ولا شك أن المدارس الأهلية إذا استدانت واستدانت خرج منها صاحبها لا بملابسه كما يقولون ولكن بعد أن يبيعها.

ولهذا عرضت الأمر على معلمى مدارسى وصارحتهم بنيتى فى إغلاق المدارس فعارضوا فى ذلك فطلبت منهم أن تخفض مرتباتهم فى ذلك الظرف فقط إلى الحد الذى أستطيع معه السداد واتفقت مع أساتذة دار العلوم على مرتب أساسه ١٠,٥ جنيهات شهرياً بدلاً من ١٢ جنيهاً فتعاقدوا على هذا ورضوا به مختارين ولكنى ذهبت يوماً إلى الوزارة وإذا بى أصادف فرقة بأكملها من تلاميذ المدارس الحرة جاءت لتحتج على صاحب المدرسة، وسألتهم ما سبب هذا الاحتجاج، قالوا لقد أساء صاحب المدرسة إلى أستاذنا. وهنا نظرت وإذا بالفرقة تحيط بها فرقة أخرى من أساتذة دار العلوم يظهر أنهم هم الذين قادوها إلى الوزارة فنظرت إلى التلاميذ وقلت: أساءكم معاملة صاحب المدرسة لأستاذكم الذى هو من دار العلوم؟ قالوا: نعم. قلت: أو كان عاجزاً عن أن يأخذ بثأره بدلاً من أن ينيب عنه "كبشة" صبية كما يقولون؟

تألمت من أن يقوم معلمو دار العلوم بإفساد المدارس الحرة إلى هذا الحد وأردت أن أنتصر لهذا التعليم الذى ضحيت من أجله. أنبت زعيمهم - أى زعيم الدار - على هذا التصرف الذى من شأنه أن يُعلِّم التلاميذ كيف يتمردون لا على ناظر المدرسة فحسب بل وعلى معلميها أيضاً، وغضب زعيم الدار لما أبديته أنا من النقد، وأراد أن ينتقم لنفسه ولجماعة دار العلوم وفجأة ومن غير انتظار جاءنى أحد أساتذة دار العلوم يوم الخميس ٢٦ ديسمبر يقول إنه لا يقبل التعاقد الذى اتفق عليه معى فى أول أكتوبر وهددنى بالاستقالة، ولكنى أفهمته أنه رجل وأنه يجب أن ينفذ كل ما تعاقد به على أنى لا أعارض فى استقالته إذا شاء، وفى يوم السبت ٢٨ منه خاطبنى زعيم الدار فجأة أيضاً ومن غير انتظار وقال لى فى لهجة الآمر الناهى: نحن لا نقبل تلك الفوضى ولا تسمح الجماعة بأن يأخذ أحد أفرادها أقل من الحد الأدنى - وهو لا يريد طبعاً بالجماعة أهل منزله كما اعتاد الناس ولكنه يريد جماعة دار العلوم - قلت: ولكننا اتفقنا ووافق معالى وزير المعارف على ذلك الاتفاق. فقال لى شيئاً لم أفهمه ولعله أراد ما يشابه هذا البيت:

وكنا إذا الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف تعاتبه

فلم يهمنى شأنه وشأن الجبار ولكن كان يهمنى تصرفه نحوى على أنه والحق يقال لم يدعنى أفكر فى ذلك كثيراً ولا قليلاً، بل قال فى لهجة الآمر:

عليكِ الآن أن تستدعى - فلاناً - "وذكر بعظمة اسم ذلك المعلم" وأن تعتذرى إليه فى الحال وأن تسترضيه وإلا ثارت عليكِ جماعة الدار. وهنا أترك للقارئ أن يرد على صاحبنا بالإنابة عنى إذا كان ثمة رد وأن يتصور حرج مركز نظار المدارس الأهلية أمام ذلك السلطان القوى الذى أصبحت معه الجماعة لا تخشى كبيراً ولا صغيراً حتى ولا الجبار ولا يهمها فى التعليم شيء إلا أن تجاب مطالبها، ومطالبها هى جمع المال من كل الوجوه وبجميع الوسائل. لم أجبه أيها القارئ ولا أدرى ما الذى سيكون من أمرى وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فهل من سبيل - أيها الرأى العام - إلى إرضاء جماعة دار العلوم؟

مكافأة سنية لمن يدلنى على ذلك.

وهل نستطيع نحن أن نتوسل إلى الجبار الذى لا تهتم به دار العلوم لينقذنا من ظلمهم.

لقد استطاع حضرة صاحب السعادة النقراشى باشا فى يوم من الأيام أن يسكت تلك الحناجر وأن تخضع له وخصم لزعيم الدار فى ذلك الوقت ١٥ يوماً ووزيرها الحالى ليس بأقل حزماً ولا عدلاً من ذلك الوزير فلعله ينظر فى الأمر ويفهمهم بجلاء أنه ليس هو الذى يعاتب بتلك الوسائل.

مكائد

لم يمض على ذلك زمن حتى تحقق ما كنت أخشى وعيّن احد رجال وزارة المعارف مديراً للتعليم فى مديرية الغربية وكان صديقاً حميماً لخصمى العنيد وكان فوق ذلك محباً للسلطة والنفوذ جباراً على مرءوسيه ولم أكن أخضع فى حياتى لجبار وقد نقل فى ذلك الوقت المغفور له محمد باشا شكرى وحل محله صاحب المعالى سعيد باشا ذو الفقار فكان خير خلف لخير سلف وأراد مدير التعليم أن يظهر سلطته فأرسل إلى المدرسة خطاباً كتب فى أوله بعض أسماء مدرسين وفى مقدمتهم اسمى الكريم ثم طلب فى الخطاب أن أرسل لهؤلاء الموظفين شهادة الجنسية وحسن السير والسلوك. وساءنى بالطبع أن يتجاهل مدير التعليم الجديد أنى عينت فى المجلس منذ ثلاث سنوات وأن المجلس كان راضياً عنى كل تلك المدة وأنه إذا طلب منى شهادة حسن سير وسلوك كان على المجلس نفسه أن يكتبها لى بعد أن خدمته كل تلك المدة بإخلاص واستقامة.

ساءنى ذلك التجاهل منه وجاء كاتب المدرسة ليعرض علىَّ الخطاب فأخذته منه ونظرت إليه نظرة استخفاف بأمر ذلك الخطاب ووضعته فى درج مكتبى فسألنى الكاتب ألا تريدين حضرتك أن تجيبى عليه؟ قلت: كلا لا إجابة لى على ذلك. ومضى أسبوع ثم آخر واتحفنا مدير التعليم بعدة نسخ من ذلك الخطاب يرسل إحداها تلو الأخرى ولا أجيب عليها.

ثم زار المدرسة المدير الجديد أى صاحب المعالى سعيد ذو الفقار باشا ومعه مدير التعليم طبعاً وبعد أن تفقد المدير المدرسة وسر منها سروراً عظيماً قال لى إن هناك فكرة بين الأعضاء بإلغاء تلك المدرسة. قلت: إنها فكرة خاطئة لأن مجلس المديرية لا يدير مدارس تستحق الذكر إلا مدرسة المعلمات هذه ويضع مدارس ابتدائية لا قيمة لها ثم المدارس الأولية القليلة.

والمجلس مع ذلك قد ضخَّم موظفى إدارته ورفع مرتباتهم بلا مبرر فإذا أراد الاقتصاد فى المال فما عليه إلا أن يقتصد فى مرتبات هؤلاء الموظفين وفى عددهم أيضاً فإن هذه الإدارة الكبيرة تدير بضع مدارس لا قيمة لها وما سمعنا أن قاطرة بخارية عظيمة يؤتى بها لتجر وراءها قارباً لا هناك ولا هنا وإلا كان ذلك خطلاً فى الرأى وإسرافاً فى المال فإذا أراد سعادة المدير الاقتصاد فما عليه إلا أن يحذف نصف موظفى إدارة المجلس.

قال مدير التعليم: ولكنهم قليلون لا يستطيعون القيام بعملهم إلا بكل مشقة. قلت: لقد كتب إلىَّ هؤلاء الموظفون عشرة خطابات فى صوغ لا معنى له ولا فائدة منه ولو أن لديهم ما يشغلهم لما تعلقوا بتلك السفاسف. قال: وما هو ذلك الموضوع. قلت: طلبتم منى فى تلك الخطابات الكثيرة المتعددة أن أرسل إليكم شهادة تثبت جنسيتى وأخرى تثبت حسن سيرى وسلوكى مع العلم بأنى موظفة فى ذلك المجلس منذ ثلاث سنوات ولو طلب أحد شهادة تثبت حسن سيرى وسلوكى لكان على المجلس نفسه أن يكتبها لى حسب ما خبره عنى فى تلك السنوات الثلاثة فأنتم تعملون ما لا فائدة منه ولا مؤاخذة يا سعادة البك إذا قلت إن مرتبك الضخم لا يتحمله هذا المجلس بمورده الضئيل على أنه لا خسارة فى الأمر إذا ردك المجلس إلى الوزارة التى انتدبت منها.

وقد تفضل أنت العودة إلى عملك فى الحكومة فتستفيد ويستفيد المجلس معك لأنك هنا لا عمل لك إلا الأشياء التى لا تؤخر ولا تقدم. وإلا فما معنى أن تطلب شهادة جنسيتى بتلك الخطابات الكثيرة ولا يشك الناظر فى وجهى فى مصريتى لحظة.

قال: هذا ما يقتضيه النظام. قلت: وهل قدمت أنت إلى المجلس بجنسيتك. قال: إنى كنت موظفاً بوزارة المعارف ولى فيها ملف خدمة. قلت: وهل فاتك أننى مثلك تماماً فى ذلك وملف خدمتى موجود بالوزارة أم حسبت يا سيدى أنهم أحضرونى هنا من وكالة البلح! ثم نظرت إلى معالى سعيد ذو الفقار باشا وقلت: لا شك يا سيدى أنك تقتنع بمصريتى تماماً وأنت تنظر إلى وجهى هذا الأسمر دون شهادة أما سعادة البك مدير التعليم فهو أشبه بالإنجليز منه إلى المصريين فهو بعد أن يقدم لك شهادات بمصريته سيتركك وأنت فى حيرة من أمر جنسيته هذه وضحك معالى سعيد ذو الفقار

وقال: إنها لعلى حق فيما تقول وسأؤيد هذه المدرسة بكل ما أستطيع وسكت مدير التعليم على مضض.

وفى اليوم التالى من تلك الزيارة جاءنى من المجلس نسخة من الخطاب السابق إرساله لى بعد أن شطب منه اسمى فقدم الكاتب الخطاب وهو يضحك لأنه لاحظ أن اسمى غير موجود بين الموظفين الذين يطلب منهم شهادة الجنسية وحسن السير والسلوك.

وهنا نظرت إلى الكاتب وقلت له: اطلب من هؤلاء الموظفين الشهادات المطلوبة منهم بكل سرعة وأرسلها فى الحال إلى المجلس.

كان هذا الحادث سبباً فى أن يتحمل منى مدير التعليم وإن كان هو الساعى إلى الشر لأنه هو الذى كان يحرض أعضاء المجلس على فكرة إلغاء المدرسة ويمنيهم بالخير إذا فعلوا ذلك لأن خصمى المنيد كان يسمى فى النقل إلى المنصورة. وكان متأكداً من نجاحه، وهكذا صارح مدير التعليم أعضاء المجلس بتلك الفكرة وقال لهم: إن المدير المقبل سيسر لفكرة إلغاء هذه المدرسة، وعلى ذلك انتشرت الفكرة ووصلت إلى المدير كما قدمت وكان علىَّ أن أدافع عنها بكل ما أستطيع.

لهذا اجتهدت أن أفهم المدير أى "ذو الفقار باشا" إنه يستطيع الاقتصاد من موظفى المجلس لا من إلغاء المدرسة.

وحدث بعد ذلك أن زار المدرسة المرحوم حفنى بك ناصف المشرف على اللغة العربية. وكان لمدير التعليم كتاب مطالعة تقرأه تلميذات فى سنى المدرسة الابتدائية، وقرأت البنت أمام حفنى حديثاً للساعة عن نفسها فقالت: ها أنذا، فطلب المرحوم حفنى بك من التلميذة أن تعيد الجملة وتصححها فقرأتها مرة وثانية وثالثة وسألنى حفنى بك عن هذا الخطأ المتكرر فقلت إن التلميذة تقرأ صحيحاً لأن هذا هو المكتوب فى كتاب المطالعة وإن كان الواجب أن تقول (ها أنا ذى).

قال:إذن الكتاب مخطئ. قلت: نعم. قال: ولم لا تصححينه وكان مدير التعليم موجوداً معه فقلت فى ابتسامة: لو فعلت ذلك لطردت من البلد لأن المؤلف هو سعادة المدير.

انتهت تلك الزيارة وتركت فى نفس مدير التعليم أثراً لا يمحى فزار المدرسة فى اليوم التالى وحضر درس المطالعة فى هذا الفصل وقرأت تلميذة فى نفس الكتاب: "لقد رمد الثعبان" قرأتها بكسر الميم فاحتد المدير على المعلم واشتد فى إهانته وقال إنه يعلم التلميذات الخطأ. وإن رمد معناها عمى وأما رمد فمعناها هلك وهى المقصودة.

استأت لإهانة المعلم أمام تلميذاته وأردت أن أهدىء من حدة المدير فملت إليه فى همس وطلبت منه أن نترك الفصل معاً ليسترد هذا المسكين هيبته أو على الأقل يستطيع أن يقف على قدميه لأنه كان يرتعد خوفاً أمام تهديدات المدير ولكنه رفض فى صوت عال وقال إنه لا يسمح بمثل هذا الخطأ، فملت عليه ثانية وقلت له بنفس صوته: لا بأس يا سيدى فإن الإنسان غير معصوم من الخطأ وقد أخطأت أنت بالأمس تحريرياً فاسمح له أن يخطىء اليوم شفوياً واحدة بواحدة وهنا اضطر أن يخجل وأن يترك الفصل معى، وهكذا استحكمت حلقة الخلاف بينى وبينه.

سعيد ذو الفقار باشا

زرت مدير التعليم بعد هذا وكان كما قدمت شديداً سيء المعاملة لمرءوسيه ولكنه قابلنى ببشاشة وترحاب لما رآه من عطف مدير المديرية علىَّ وما كدت أجلس فى مكتبه حتى استأذن عليه أحد النظار - أى نظار المدارس التابعة للمجلس - فدخل الرجل فى شيء من الخجل والتهيب، فلم يقم له المدير ولم يمد له يده فاضطر أن يحييه برفع اليد - أى تحية عسكرية - وقال مدير التعليم بشدة: ما الذى جاء بك وماذا تريد؟ قال: جئت لتشملنى بعطفك. فقال: ماذا تعنى بهذا الكلام؟ إنى أود أن أخلق منكم رجالاً لا يميلون إلى الملق فاذهب من حيث أتيت مادام ليس لديك مطلب تقدمه. فحيا الرجل تحية عسكرية أخرى وأراد أن ينصرف وهو يترك المكان بظهره حتى لا يدير ظهره لسعادة المدير، وهنا احتد المدير وقال: أريد أن أخلق منكم رجالاً يحترمون أنفسهم ولا يفعلون ما تفعل وخرج الرجل وهو يدعو له بطول العمر وساءنى هذا لأنى زميلة ذلك الذى أهين ولعل المدير ما فعل ذلك إلا ليظهر لى مقدار بطشه وسلطانه على النظار زملائى ولهذا تألمت وقلت له وأنا أضحك ضحكة عصبية ملؤها الغيظ والغضب: أرجوك يا سيدى إذا أردت أن تقابل أحد نظارك هؤلاء أن تعلمنى قبل ذلك لأتمكن قبل مقابلتك لهم لا من ترك غرفتك فحسب بل من ترك المنصورة بأكملها، حتى لا أشعر بما تم فى تلك المقابلة العنيفة التى لا تخلق من مرءوسيك رجالاً كما تقول بل تخلق منهم عبيداً أرقاء لا يصلحون فى نظرى للتعليم والتهذيب لأنهم فى نظرى لا كرامة لهم ولا إرادة وأول ما يطلب من المعلم أو الناظر هو قوة الإرادة والمحافظة على الكرامة وهؤلاء التعساء الذين قضى عليهم سوء الحظ أن ترأسهم ولو عاماً واحداً لا يصلحون بعد ذلك لوظائف التدريس أو إدارة المدارس، واضطر مدير التعليم أن يضحك ضحكة صفراء كما يقولون، وأن يقول إنى أعامل كل مرءوس بما يتناسب وأخلاقه.

وكان لحسن حظى أن عطف علىَّ حضرة صاحب المعالى سعيد باشا ذو الفقار وهو

مـدير المديرية فـى ذلك الوقت، وأراد أن يسـاعـدنى بكل مـا يسـتطيع فلم يكن يسـتطيع أحد أن يعادينى معاداة صـريحة حتى ولا مـدير التعليم خوفاً من مـعاليه. وأوغر مـدير التـعليم صـدور أعـضـاء المجلس وطلب منهم أن يلحوا فـى طلب إلغـاء المدرسـة تنفـيـذاً لإرادة المدير المقبل واسـترسلوا فى طلبهم هذا وجاهروا بالعداوة نحو المدرسـة وأقامت المدرسـة حـفلتها السنوية وأردت أن أنتقم من هؤلاء الأعـضـاء فى تلك الحفلة. فألفت مفاخرة بين طفلتين إحداهـمـا ابنة رجل متعلم ولكنه متوسط الحال والأخـرى ابنة رجل جاهل من أعيان البـلاد، فأخذت كل منهمـا تفخـر بوالدهـا، وتغلبت ابنة المتعلم على ابنة الجاهل وكان مما قالته لزميلتها:

- إن فـخـر والدى فـى رقى مـعـارفـه وكـمـال مـداركـه، أمـا أنتِ فلم يـرتق والدك إلا بالطين (أى الفدادين) أما هو مجرداً من طينه فلا قيمةَ له ولا احترام.

سـاء أعضـاء المجلس تلك الجـرأة واعتبـروهـا إهـانة لهم وطلبـوا عـقـد المجلس بصـفـة مسـتعجلة ليطلبـوا فـصل ناظرة المدرسـة وعلم المدير بما أرادوه وكـان ذكـيـاً لبـقـاً اعـتـاد معاشـرة الملوك والخروج من المآزق فعقد المجلس وبعد أن سمع مرافعتهم وإلحاحهم فى طلب فصلى قال لهم: إنه هو الآخـر مسـتاء منى لتلك الجـرأة ولكنه هو المسكين فيهم إذ هو الذى قضى عليه بمعاملة الناظرات وهو محـافظ على سمعته لا يسـتطيع أن يتعاون مع ناظرة مـاجنة أو مسـتهـترة وإنه يطلب منهم قبل الفصل أن يبحثوا عن ناظرة أخرى فإذا استطـاعوا الوصـول إلى ناظرة تماثل نبـوية مـوسى فى كمالها وحشمتها فلا مـانع عنده من رفت نبوية لتحل تلك محلها.

أما أن يعين مكان نبوية ناظرة مـاجنة مستهترة فهو مـا لا يرضاه لشرفه بل يفضل أن تشـتمـه النـاظرة عن أن يتعـامل مع فتـاة سيئـة الأخـلاق لا يسـتطيع ردهـا إلى الكمـال والفضائل..

وهنا عـرف الأعضـاء أن المدير لا يريد تغيـيـر الناظرة وأن مـدير التـعليم حينمـا زين لهم تلك الفكرة أراد أن يوقع بينهم وبين المدير فـعـادوا إلـى صـوابهم وأمنوا على كـلامـه وانتهت الجلسة بأن أرسل خطاب شكر على محافظتى على الأخلاق والآداب.

هكذا كـان حضرة صـاحب المعالى سـعيد باشـا ذو الفـقـار حريصـاً كل الحـرص على

سمعته، لا يسمح مطلقاً أن يمسها شيء من الشك أو الريبة ومما أذكره لمعاليه أن السيدة لبيبة هاشم - وكانت صاحبة مجلة فى ذلك الوقت - جاءت لمقابلته فرفض مقابلتها وزارتنى لأتوسط بينها وبين المدير فى تحقيق رغبتها فكلمته تليفونياً ورجوته أن يقابلها فقال: هل هى صغيرة السن؟ قلت: نعم هى فى مثل سنى أو أكبر قليلاً. قال: أرجو أن تعافينى من تلك المقابلة. قلت: أحمد الله الذى خلق لى وجهاً يمكننى من مقابلتك صباح مساء دون أن ترفض أو تتردد، وكان لشدة حرصه على العادات الشرقية لا يقابلنى أنا نفسى إذا زرت منزله بل تقابلنى السيدة حرمه وكريماته وكانت عاداته فى منزله عادات الشرقيين المحافظين فلا يسمح لحرمه المصون بأن تصحبه فى أية جهة، ولم يرها أحد من المنصورة عموماً بل كانت تأتى من القاهرة وتذهب إليها دون أن يشعر أحد بمجيئها أو ذهابها. وكان معاليه قوى الشكيمة فى منزله حسن المعاملة فى وقت واحد، لا يسمح لخادمة أن تدنو منه بل كانت تقوم حرمه بكل طلباته الخصوصية فكان مثال الكمال فى منزله، وفى عمله.

وقلت له يوماً: إنى أعتقد يا باشا أنك الرجل الوحيد المعصوم وكأن الله قد خلقك لا تعرف الفساد، فضحك مستهزئاً وقال: نعم يا نبوية أنا لا أعرفه لا فى منزلى ولا فى عملى، وهى جملة حكيمة لو نفذها الرجال لأفادوا البلاد وأفادوا العمل، فالرجل خارج عمله حر فيما يريد، والعصمة لله وحده وما انتقدت فى حياتى الرجال لشيء من تصرفاتهم الشخصية ولكنى كنت انتقد تصرفاتهم أعمالهم الحكومية التى ما تناولوا مرتباتهم إلا لإصلاحها، ولو أنهم أهملوا ذلك الإصلاح الذى ينقدون له لخفت المصيبة.

لكن كثيراً منهم يقوم هو بإفساد الأخلاق فى تلك الأعمال الموكلة إليه وهو شر الفساد والمحن.

مكيدة

كرر مدير التعليم تدبيره ثم فشل لأن سعادة المدير تمسك بأن لا جدال مع فتاة كاملة، ورأى هو أن مسألة الكمال والحشمة حالت بينه وبين الانتقام منى وجعلت المجلس يكتب لى جواب شكر بدلاً من أن يفصلنى فكان همه ولا شك أن يجد فى هذا الكمال نقصاً ليطلع عليه المدير وكنت لا أظهر أمام أحد بشىء من الحلى مهما كان نوعه ولكنى ككل شابة أو فتاة أميل أن أظهر أمام زائراتى من السيدات أنى أمتلك مثلها أو أكثر ولهذا كنت إذا زارتنى سيدات أريهم حليى التى مر بنا ذكرها ومن بينها ذلك القرط ولم يكن غرضى من ذلك التجمل بل كان الظهور بالغنى.

وفى يوم من أيام الجمعة زارتنى بعض السيدات ولبست حليى كعادتى معهن ثم انصرفن ونزلت بعد ذلك أرتب مكتبى وأنا لا أزال متجملة بذلك القرط، وفجأة أخبرنى البواب بأن سعادة مدير التعليم قد شرف فأمرته بإدخاله ثم تذكرت القرط فانتزعته ووضعته فى سلة الورق التى على مكتبى تحت الورق الموجودفى السلة.

ودخل هو وسألنى فى بعض أشياء فدخلت المدرسة لأستقصى عنها وعدت وحيانى بعد ذلك وخرج، ولعدم اكتراثى بمسألة الحلى لم أفطن إلى أن القرط قد فقد من مكانه لأنى لم أبحث عنه ولم أتلمسه وبعد ذلك الحادث بثلاثة أيام خاطبنى مدير التعليم تليفونياً وقال لى لقد ظننتك فصلت الخدم جميعهم. قلت ولما ذلك؟ قال: ألم تفقدى شيئاً ثميناً فتذكرت القرط ووضعت يدى فى السلة لأخرجه من مكانه فلم أجده فعلمت أنه أخذه. قلت: إنك إذن آخذه. قال: أو لم تعرفى ذلك إلى الآن؟

قلت: نعم لأنى لا أهتم بتلك الأشياء ولم أتذكر أنى وضعته هنا إلا بعد أن كلمتنى أنت الآن، ومر على ذلك وقت ولم يحضر هو القرط ولم أطالبه به وفى يوم من الأيام كنت مسافرة وكان سعادة المدير مسافراً إلى القاهرة أيضاً وظهرت فى العربة التى كان هو بها أى فى ديوان الحريم الذى كان إلى جانبى فى الدرجة الأولى ورآنى مدير التعليم وكأنه انتهز تلك الفرصة ليظهر للمدير أنى كباقى النساء حتى ينتزع منه فكرة الكمال

التى علقت بذهنه ولا أدرى كيف. كان ممسكاً بالقرط فى تلك اللحظة فأخرجه وقال لى: تفضلى قرطك ليعلم الناس أنك كباقى النساء لك من الحلى ما لهن. قلت: إنك يا سيدى أنت ولا غيرك من الرجال لم ترنى ألبسه أما وجود حلى ثمين عندى فهو كوجود أى مبلغ من المال عند أى رجل من الرجال ولو لم تجده أنت فى سلة الورق لما علمت أن لى قرطاً كهذا على أنى أؤكد لك أنى لا أحتفظ به كأداة للتجمل بل أحتفظ به كمال مدخر وكأثر ثمن آثار الماضى. وكان لسوء حظ مدير التعليم أن سعادة المدير لم يأبه شيئاً من التفاتته فلم تترك تلك الحادثة أثراً ما فى نفس سعادته غير اعتقاده فىَّ بل زاد احترامه لى واهتمامه بأمرى.

وهكذا فشل مدير التعليم فى محاولة الايقاع بى مرة أخرى.

نكبة

معلمات المنصورة بين الانشاء بإجماع الأراء
والإلغاء بإجماع الأراء

كنت أقوم في مدة حضرة صاحب المعالي سعيد باشا ذو الفقار بأعمالي بهمة ونشاط لما كنت أراه من عطفه وتشجيعه فلم يكن أقل عطفاً من سلفه بل كان أشد تمسكاً بالكمال وتشجيعاً على المضى فيه شدة القدر القاسي أن ينقل حضرة صاحب المعالي سعيد باشا ذو الفقار وأن يحل محله من قضى حظى العاثر أن يكون خصمي الدائم العنيد وما كاد قرار النقل يشاع حتى ذهبت إلى المرحوم المستر دانلوب وذكرته بوعده السابق وقلت له: لقد حصل ما كنت أخشاه ونقل إلىَّ خصمي الأول.

قال: قد علمت ذلك فلا تخافي وسأقوم بما تعهدت به، وأرسل إليْه يقول. إن أى ضرر يلحق بي سيعتبره مستشار المعارف موجهاً لشخصه هو فلم يستطع المدير أن يقوم بعمل عدائي ولكنه زار المدرسة في نفس الأسبوع الذى نقل فيه إلى المنصورة وكان في نظراته وابتساماته ما يدل على التشفى. وما كاد يلقى نظرة علىَّ حتى حيانى بابتسامة صفراء قبل أن يمد يده بالتحية ثم قال وهو يتردد في تحيته: لعلك مسرورة من مركزك الحالى. قلت: نعم مسرورة وسأظل كذلك.

وهكذا زار المدرسة وخرج، وقد حركت تلك الزيارة كوامن قلبينا وجاءني في اليوم الثانى لزيارته مدير التعليم فقال لى: لقد ودعت المدير السابق بقصيدة مدح أفليس من المستحسن أو الواجب أن تستقبلى المدير الحالى بمثل تلك القصيدة. قلت: إنه لم يترك لى وقتاً لذلك بل زارنى مفاجأة ولم يكن في مقابلته ما يشجعنى على مدحه ولو أنه حاول نسيان ما مضى في أعماله المستقبلة لوجدت من نفسى بعد ذلك رضا بمدحه والثناء عليه أما الآن فماذا أقول، وقد افترقنا في الماضى على أسوأ حال واجتمعنا أمس وكل منا على حالته الماضية؟ قال: لابد أن تحاولى كتابة الموضوع وسأزورك غداً

لأخذ ما يجود به خيالك. ولم يخلف وعده بل جاءنى فى الغد فوجد على مكتبى القصيدة التالية:

يـــا دهر كم تعدو وكـــم تتقلب ... وتفـــل عزم العاملين وتتعب

إن كان مـــا تبغيه ذلـــى فالذى ... تبغيه لا يرضاه شهـــم طيب

حـــالى كمـــا جربتهـــا من شدة ... ما صدنى عنها العدو الأغلب

ما فل عزمى حادث فيمـــا مضى ... بل زادنى علمـــاً بمـــا يتعقب

ما ازداد دهرى فى التعنت والأذى ... إلا بلغت من العـــلا ما يصعب

ما كنت من أهل التنعـــم والحلى ... كيما أخاف من الزمان وأرهب

مـــا لذ لى يومـــاً طعـــام طيب ... أو نالنى مـــال أقول سيذهب

حالى كأهـــل الفقر فيما كابدوا ... من ملبس أتعبت فيـــه وأتعبوا

أهوى التقشف ما استطعت فإن مضى ... مـــال أفرقـــه فمـــاذا أنـــدب

الـــرزق فى الدنيا كثير واســـع ... عين تفيض به وأخرى تنضب

مـــا الخوف إلا أن يقـــال تقهقرت ... جبناً ولمـــا يـــأت ما تتطلب

غرسى أخاف عليه من وقع الردى ... بعد الكمال وذاك غرس طيب

غرس سهرت الليل فى تقويمـــه ... حتى نمـــا فـــله أبش وأغضب

جاهـــدت لا أبغى الثراء وإنمـــا ... فخـــر البلاد وعزهـــا ما أطلب

وقرأ سعادة المدير القصيدة وأخذها معه، ولقد عبرت فيها عن مخاوفى لأنى لم أكن أخشى شيئاً إلا هدم مدرسة معلمات المنصورة التى بذلت فيها مجهوداً جباراً فكانت فى امتحان الكفاءة أولى مدارس المعلمات فى القطر مع حداثتها على أن تنبىء عمَّا كان فى الواقع صحيحاً فإن المدير خشى إن هو أضرنى أنا شخصياً أن يبطش به مستشار المعارف فقر قراره على أن يلغى مدرسة المعلمات، وقد كانت ميزانية مدرسة المعلمات هى التى كان يصرف منها على المدرسة الابتدائية وكان قانون مجالس المديريات يقضى بأن تصرف ثلاثة أرباع مالها على التعليم الأولى والربع الباقى على الابتدائى والثانوى والصناعى لهذا كانت ميزانية مدرسة المعلمات كبيرة تكفيها كما تكفى المدرسة الابتدائية التى كانت تقيم معها فى منزل واحد فإذا ألغيت مدرسة

المعلمات عجزت المدرسة الابتدائية عن القيام بنفقاتها ولن يستطيع المجلس أن يصرف لى مرتبى من ميزانية المدرسة الابتدائية وقد كان ٢٦ جنيهاً شهرياً؟ لهذا رأى المدير أن يلغى أعضاء المجلس مدرسة المعلمات ليضعنى أنا والمستشار أمام الأمر الواقع وعذره لدى المستشار واضح جلى لأن أعضاء المجلس هم الذين سيلغون المدرسة بما لهم من الحول والصول وليس للمدير يد فيما سيفعلون.

وهكذا أخذ المدير يدبر الأمر خفية أما أنا فقد كنت على يقين مما سيفعله لا لأنى أعلم بشىء من الحقيقة ولكنى كنت أستنتج ما يدور بخلده من الممكنات لأنى كنت أعلم تمام العلم أنه لابد له من أن ينتقم منى ولا سبيل إلى ذلك الانتقام إلا بتلك الحيلة فأخذت أستطلع الأخبار وأتحدث إلى بعض أعضاء المجلس فى فكرة إلغاء مدرسة المعلمات فكان يقول بعضهم بدهشة واستغراب ومن أخبرك بهذا؟ وقد علمت من تلك الأسئلة أن إلغاء المدرسة أمر لا مفر منه وأنهم يعدون له العدة فى الخفاء وفى إحدى الليالى حلمت أن النار شبت فى إحدى غرف مدرسة المعلمات فعرفت أن النكبة قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى فذهبت إلى مستشار المعارف وأخبرته بما تم عليه عزم المدير من إلغاء مدرسة المعلمات إكراماً لى فاستبعد الرجل الأمر وقال: إنه محال أن يضرب التعليم تلك الضربة لينتقم منى وإنى إنما أتخيل ما لا يمكن حصوله. قلت: هب أن خيالى تحقق فماذا يكون موقفك بعد أن يلغى المجلس مدرسة المعلمات بإجماع الآراء. قال: سألغى القرار يوم صدوره.

فذهبت إلى مدير التعليم وسألته عن إلغاء مدرسة المعلمات. فقال: أساحرة أنت تعلمين بسحرك الغيب. قلت: نعم ولكن سحرى لا يمكننى من معرفة اليوم الذى ستطير فيه مدرسة المعلمات. قال: قد لا تنتظرين كثيراً ومادام خيالك خصباً إلى هذا الحد فلم لا تتخيلين أنها تلغى غداً، وعرفت من مزاحه هذا أن المدرسة ستلغى قريباً وأنه يريد إخفاء حقيقة ما قال بشىء من المزاح. قلت: ومتى يعقد مجلس المديرية. قال: إنه سيعقد يوم كذا فى الأسبوع المقبل فتأكدت أن المدرسة ستلغى فى ذلك اليوم.

وفى يوم انعقاد المجلس خاطبت مدير التعليم تليفونياً قبل دخوله الجلسة وسألته عما سيتم فى تلك الجلسة بشأن مدرسة المعلمات. قال: لكِ أن تتخيلى ما تشائين أما

أنا فليس عندى ما أقوله. قلت: حسناً إنك لا تريد أن تتكلم إلا بعد أن أكون أنا أمام الأمر الواقع. قال: لا شأن لى بخيالك وتنبؤاتك وما كاد يخرج من الجلسة حتى اتصلت به تليفونياً وسألته عما تم بشأن مدرسة المعلمات. فقال بصوت الظافر: لقد ألغيت بإجماع الآراء فاتصلت فى الحال بمستشار المعارف تليفونياً وأخبرته الخبر واستنجزت وعده. قال: إن هذا كلام فارغ لا أصدقه. قلت: ما عليك إلا أن تتصل بمدير التعليم فاتصل به فى الحال وعرف حقيقة الخبر وما كاد يعرفها حتى أرغى وأزبد وقال لمدير التعليم: إنها سخافة يجب أن يدفع ثمنها مجلس المديرية ولم يمض نصف ساعة حتى اتصل مستشار الداخلية الإنجليزى بالمدير نفسه وطلب منه أن يرسل قرار إلغاء مدرسة المعلمات مع مخصوص إلى الداخلية وأرسل القرار فى الحال ثم عاد إلى المجلس فى اليوم التالى وعليه إشارة وزير الداخلية بإلغاء ذلك القرار.

وهكذا ألغيت مدرسة المعلمات بإجماع الآراء ثم عادت إلى الوجود فى اليوم التالى. ومن طرائف التاريخ أن الذى اقترح إلغاءها ليرضى المدير الحالى هو نفس العضو الذى كان يقترح إصلاحها فى مدة المغفور له محمد باشا شكرى وكان ذلك ليرضيه أيضاً فأنشئت مدرسة المعلمات بناء على اقتراح ذلك العضو وموافقة أعضاء المجلس بإجماع الآراء فلما تغير المدير ألغيت باقتراح ذلك العضو أيضاً وموافقة جميع الأعضاء بإجماع الآراء وهم هم أنفسهم أصحاب القرار الأول وأصحاب القرار الأخير ولله فى خلقه شؤون.

رضاء بعد الغضب

أعيدت المدرسة ولكن إلغاءها ترك فى نفسى أثراً لم يمكننى التغلب عليه، كنت غير مطمئنة من عملى مع ذلك المدير متأكدة كل التأكيد أنه سيبطش بى متى استطاع ذلك، والمدير لا شك يستطيع أن يعمل ما يريد، ولهذه المناسبة (السيئة) تذكرت المدة التى قضيتها مع المغفور له صاحب الرفعة محمد باشا محمود وكيف كان رحمه الله عادلاً لا يهمه إلا العمل، وقد سمعت فى ذلك الوقت أنه نقل إلى البحيرة فعملت أبياتاً من الشعر أعدد فيها مفاخره، وما كدت أخلص من هذا حتى حادثتنى حضرة صاحبة العصمة حرم المدير الحالى تليفونياً وأخبرتنى أنها تريد زيارتى فأهلت ورحبت وكان ذلك لأن الداخلية حتمت على هذا المدير أن يصالحنى وهو يعلم أنى كنت فى أشد الغضب والألم فأراد أن يمهد لنفسه السبيل بزيارة صاحبة العصمة حرمه وفى المساء زارتنى السيدة المصونة حرمه فاستقبلتها لدى الباب استقبالاً يليق بمقامها لأنها كانت سيدة جليلة وهى فى الوقت نفسه حرم مدير المديرية وسرت باستقبالى ثم ودعتها بما استقبلت به من الحفاوة والإجلال وفى اليوم التالى أخبرنى مدير التعليم أنه آت لزيارتى هو وسعادة مدير المديرية، فتذكرت الأبيات التى عملتها فى مدح المغفور له صاحب الرفعة محمد محمود باشا ووضعتهاعلى مكتبى بعد أن كتبتها بخط جميل، وهى الأبيات الآتية:

عهدناك يـــا ابن الاكرمين محمدا
تشيـــــد بالعــزم الثناء المخلــــدا
عهدناك مقداماً عهدناك واحــــدا
تعــــد بالآلاف إذا الفضل عـــــددا
فإن نلت باستحقاقك المجد والعلا
قــد كنت قبل اليوم شهمـــا مسودا

لك البيت من أعلى البيوت مكانـة

وقد كنت من عهد الطفولـة سيدا

فإن هنأتك القــوم إذ نلت منصبا

فإنى أهنى منصبا نــــال مفردا

دمنهور هذا يـوم مجدك فأبشرى

وتيهى على كل العواصــم إذ . غدا

ولو أن هذا الدهــر جــــاد بمثله

علينا لشاد المجد فينا وجــــددا

حسدناك إذ نلت المــراد وضيعت

صروف الليالى جل آمالنا ســدى

وفى آخـر الأبيـات كمـا يرى القـارئ شـىء من التلميح بأسفى واستيـائى لنقل ذلك المدير إلى الدقهلية ونقل المغفور له محمد باشا محمود إلى دمنهور وكنت أود العكس.

أخيـراً جاء الميعـاد الذى حدده سعادة المدير لزيارتى. فلم أسمح بالدخول إلا بعد أن انتظر على الباب نصف ساعة، ثم صعد إلى مكتبى ومعه مدير التعليم فوجدنى جالسة على مقعد ضخم كبير وليس بالغرفة مقعد مثله بل بها كراسى خيزران من العادية وقد هيأ لى طيش الشبـاب إذ ذاك أن أفعل هذا لأهينه وأجلسه على كرسى عادى فى الوقت الذى أتربع فيه أنا على كرسى ضخم، فلما دخل لم أعبأ بدخوله ولم أقم لاستقباله فحيا وجلس ولم أرد عليه تحيته. فقال: مالك غاضبة لا تردين؟ قلت: وما شـأنك بغضبى؟ قـال: أنا رئيس تلك المدرسة. قلت: وما شـأنك أنت بى يا حضرة الرئيس ولست بقريبى ولا صلة لى بك وما الذى يهمك من غضبى؟ قـال: لقـد جئت لأزور المدرسة. قلت: ولكنك مع هذا تعلم أنى لا أريد أن أراك ولا أستقبلك. فأخذ يلين فى لهجة ويقول: لقد استقبلت زوجتى أمس استقبالاً حسناً. قلت: وما الخطأ الذى فعلته تلك السيدة حتى أستقبلها بغير ذلك؟ ولم تكن عضواً معكم فى المجلس ولم تدبر شيئاً. قال: ولكنها زوجتى ولها ما لى من الكرامة. قلت: نعم إن لها كل كرامة تستحقها زوجة مدير وليس لها فى نظرى من الأخطاء ما يجوز إلى أن أحرمها من تلك الكرامة

ومن ذلك الاحترام الواجب لزوجة مدير.

قال: وماذا انتِ فاعلة الآن وقد جئت لزيارتك وأريد ان أرى المدرسة؟ قلت: لك أن تراها كما تريد أما أنا فلا أسير معك. قال: وكيف تحل المشكلة إذن؟ قلت: لا مشكلة يا سيدى لأنى "ح اجيب لك نايبة تاخدك تزورك المدرسة" قال بغضب: ما هذا الكلام! قلت: وماذا فيه. إنى سآتيك بنائبة عنى أنا لتأخذك لزيارة المدرسة فهل فى ذلك ما يغضبك؟ قال:: إنك تقسين علىَّ فى معاملتك، افتظنين أنى لم أعامل ناظرة غيرك، قلت: كلا. أعلم أنك عاملت غيرى من الناظرات كما أعلم أن تلك المقابلة لا تزال مدونة فى محاضر البوليس. قال: لقد كانت مسألة تافهة أثارها بعض مجانين الأهالى بالفيوم. قلت: إن فى المنصورة أمثال هؤلاء المجانين ولو أنى عاملتك معاملتها لوصلنا إلى ما وصلتما إليه بالفيوم، قال: دعيك من الماضى ولننظر إلى المستقبل، وسأرضيك بقدر ما أستطيع. قلت: لا أظن أنك ترضينى مختاراً، وإنك إن أرضيتنى اليوم فستنتهز فرصة إغضابى غداً إذا استطعتها. ورأيى أن يحترس كل منا من الآخر وأن لا اقابلك ولا تقابلنى إلا للضرورة ويفعل الله بنا ما يريد.

قال: أعاهدك ألا أسىء إليك بعد هذا، قلت: أرجو أن تكون فى هذه المرة صادق الوعد.

لكنه ما لبث بعد هذا أن ضايقنى مضايقة عظيمة فذهبت إلى مكتبه وكان عنده بعض الأعيان فقلت له: من العقل أن لا يعمل الإنسان عملاً إلا وله من غاية تفيده شخصياً ولا أدرى ما هى الغاية التى تتلمسها سعادتك من مضايقتى والإساءة إلىَّ. إنك إن انتصرت علىَّ بعد ذلك فلن يعجب بك أحد أو يصفق لك استحساناً. بل يقولون جرب قوته ضد فتاة، وإذا أنا انتصرت عليك كان الويل والخجل لك. فما الذى يحملك على هذا؟ قال: إنى لا أضايقك. قلت: ولكنى أنا شخصياً أشعر بتلك المضايقة. قال: لعلك من رواد الزار ولعل عليك عفريتاً يكرهنى. قال ذلك بشىء من السخرية أمام الأعيان ليظهر أنى امرأة كباقى النساء الجاهلات فابتسمت وقلت له فى نفس سخريته: يجوز يا باشا أن يكون علىَّ عفريت ولكن ما رأيك لو أن هذا الأمر قد ثبت جلياً لأصبحت أنت شيخة الزار لأن عفريتى لا يظهر إلا على يديك. أو بعبارة أخرى لا يتحرك إلا إذا زمرت له أنت وطبلت، فضحك الأعيان وخجل سعادته.

انتقام

أخذ المدير ينتقم منى، وأخذت أنا الأخرى أبحث فى وسائل لأنتقم بها لنفسى فكانت من أهم وسائله إفهام الإنجليز أنى وطنية محبوبة وأنى أكره الإنجليز وأعمل ضدهم، ولم أكن أتجه إلى وجهة نظره هذه لأنى كنت أجهل ما يدس لى عند الإنجليز.

وكان امتحان الكفاءة للمعلمات وامتحان الابتدائية يقامان في مدرستى، وكان يسبق الامتحانين امتحان عملى للتدبير المنزلى وكنا نخلى محال المطبخ والمائدة وغيرهما لإجراء الامتحان العملى للتدبير المنزلى وكانت هذه الأشياء فى أعلى دورمن المدرسة. وكنت أعلم شدة ميل المدير إلى التدخل فى كل شىء يتعلق بالسيدات، فعلمت من هذا أنه سيدخل الامتحان العملى وأردت أن أقطع عليه الطريق فيما يريد، فكتبت إلى المستر دانلوب خطاباً أقول له فيه: إن وزارة المعارف هى المسئولة عن نظام الامتحانات وعن المخالفات للآداب التى يجوز أن تقع فيها ما دامت هى القائمة بتلك الامتحانات العامة وإنى أعلم أن المدير شديد الرغبة فى أن يتدخل فى كل شىء وأنه سيحضر حتماً لامتحان العملى والطالبات فى ذلك الامتحان يلبسن ملابس قصيرة تكشف عن سيقانهن كما تكشف عن سواعدهن بل إن أكمامهن ترفع إلى ما فوق الساعد، وإن دخول رجل بينهن وهن على تلك الحالة يخالف الآداب الشرقية الواجب رعايتها فى البلاد والتى يجب عليك أنت أن تحافظ عليها، فإذا دخل المدير لجنة الامتحان العملى، كنت أنت هدفاً للوم الذى سينصب على تلك التصرفات المستهجنة فى نظر الناس.

وصله الخطاب واهتم به، ونبه على رئيسة اللجنة أن تغلق عليها باب الدور الذى سيقوم فيه الامتحان وأن لا تسمح لرجل بالدخول مهما كانت درجته، وكانت رئيسة اللجنة سيدة إنجليزية، فحضرت وكان أول ما طلبته أن يعمل لباب الدور رتاج ودخلت وأغلقته عليها وعلى الطالبات وطردت جميع الخادمات فنزلن إلى الدور الأرضى وجلسن فيه وكان جلوسهن خلف الباب الخارجى أى أمام مكتبى وتحقق ما تخيلته وحضر المدير

وطرق الباب وكنت قد أمرت الخادمات أن لا يفتحن للمدير الباب إلا بعد أن يستأذن منى وطرق المدير الباب بشدة وقال للخادمة افتحى أنا المدير، وذهبت إحداهن تستأذن منى، وتضايق المدير وطرق الباب مرة أخرى ثم ثالثة والخادم تجيب بأنها لا تستطيع أن تفتح الباب إلا بعد أن تأذن الناظرة وأن إحدى زميلاتها ذهبت لتستحضر ذلك الإذن، واشتد المدير فى لهجته وقال أنا مدير البلد، وقالت الخادمة وأنا مالى يا سيدى.

وأخيراً قالت له: لا تغضب وسأذهب أنا بنفسى وجاءتنى الخادمة الثانية فأمرتها أن تحضر لى كوباً من الماء قبل أن تفتح له الباب، وكانت هذه بالطبع كل الوسائل التى أستطيع أن أنتقم بها لنفسى.

فتحت الخادمة الباب بعد أن وقف خارجه نصف ساعة، ودخل وكنت واقفة على باب مكتبى وقد أمرت الخادمات أن لا يرشدنه إلى شىء، ومن ترشده سترفت فى الحال، ودخل المدير ووقف أمامهن وقال لأقربهن منه، أين لجنة الامتحان؟ قالت: لجنة؟ لجنة إيه يا سيدى، ودى تبقى إيه؟ قال: ألم تحضر هنا سيدة أجنبية فأين هى؟ قالت: سيدة أجنبية، واش عرفنى أنا؟ وسأل الثانية فلم تفده بأكثر من هذا، فتركهن وذهب وبدلاً من أن يصعد إلى السلم الموصل إلى الدور الأعلى ذهب إلى الجهة الثانية التى بها المراحيض، وبعد أن زارها بالطبع عاد إلى مكانه الأول وسأل السؤال الأول بشدة، وقلت أنا للخادمة التى كان يخاطبها فى أول الأمر: خذى ده يا فلانة (مشيرة إلى المدير) وديه اللجنة، وهنا عرفت الخادمة معنى كلمة اللجنة التى كانت تتجاهلها، وذهبت أمامه وتبعها وهو فى غضب، فلما وصل إلى الدور الثالث طرق الباب ففتحت له رئيسة اللجنة بنفسها لترى من الطارق وقالت من أنت؟ قال: أنا المدير. قالت: إنى آسفة لأنى لا أستطيع الخروج إليك ولا إدخالك عندى، وأغلقت الباب، ونظرت الخادمة إليه فى شىء من الدهشة وقد ذهل هو وخجل من موقفه فقالت له: يا عينى يا سيدى طردتك؟ ولم يجب هو بشىء ولكنه أسرع بالنزول قفزاً فكان يقفز كل ثلاث درجات دفعة واحدة، ومر بالخادمات اللائى كن بالفناء والخادمة تجرى وراءه ولما خرج هو يجرى وفتح الباب الخارجى وكان جمهور من الناس مجتمعاً عند الباب فى انتظار بناتهم فسمعوا الخادمة وهى تقول: مسكين. والنبى صعب على

لما طردته. فظن الناس أن التى طردته هى نبوية موسى وانتشر الخبر فى مدينةالمنصورة، وأخذ الناس يتساءلون كيف استطاعت أن تطرده وأن تبقى، وكثرت الحكايات والأقاويل، وكلها تنصب على موقف المدير المخجل من ناظرة المدرسة الظافرة المنتصرة.

سوء حظ وعناد

اشتد العناد بينى وبين المدير فأخذ يفهم الإنجليز أنى أعمل ضدهم وتصادف أن قام سمو الخديوى فى آخر عهده سنة ١٩١٤ برحلة إلى الأقاليم وجاء إلى المنصورة وكان المدير بالطبع الذى يرتب نظام الاحتفال باستقباله وتوديعه، وعلمت أنه لا ينوى أن يشرف الخديوى مدرستى لما كان بينى وبينه كما علمت أن سمو الخديوى كان سيشرف بيت الطاهرى بك وهو قريب من المدرسة، وكان بينى وبين سيدة البيت صداقة وكانت الغرفة التى سيشرفها الخديوى لها بابان أحدهما على طرقة ضيقة توصل إلى الحرم والآخر الباب الخارجى الذى أعد لاستقبال سموه، فطلبت من السيدة أن تسمح لى أن أقف وراء ذلك الباب الداخلى لأشاهد الخديوى من ثقب مفتاح الباب فأجابت الطلب، وماكدت أظفر بذلك حتى ذهبت إلى ذلك الباب وأغلقته بالمفتاح وأخذت مفتاحه معى. ثم أحضرت تلميذة صغيرة بارعة الجمال لا يتجاوز سنها السادسة وأعددت لها قصيدة مدح فى سمو الخديوى وعنيت بتحفيظها تلك القصيدة وإجادة إلقائها عناية تامة وكنت أفعل ذلك سراً لا يعلم به أحد، وقد اشتريت لهذه التلميذة فستاناً أبيض يناسب بياضها الرائق وربطت شعرها بشريط أزرق يناسب لون عينيها ووضعت على صدرها وشاحاً كتب عليه مدرسة المعلمات بالمنصورة، مع أن التلميذة لم تكن من مدرسة المعلمات بالطبع، ولكنى أردت أن أذكر الجمهور بمدرسة المعلمات التى ألغاها المجلس بإجماع الآراء تحت ضغط المدير ثم أعيدت إلى الوجود فى اليوم الثانى، فكان اسمها عاراً على المدير وسلطته لأنها بقيت رغم إرادته.

كتبت القصيدة على قطعة حرير زرقاء بلون السماء ثم أحطتها بإطار من أزهار البنفسج الجميلة اللطيفة رسمت بالبوية ولم يكن النقش بالبوية على القماش معروفاً فى ذلك الحين. فكانت تحفة رائعة، ثم كسوت بها «مخدة» حشيت بريش النعام ولم أعمل «مخدة» واحدة بل عملت مخدتين من صنف واحد لأنى كنت أعلم أن المدير

سيحرض على مفتش الداخلية الإنجليزى ويدعى له أنى شتمته أمام الناس لأن القصيدة كان بها تعريض به، أخذت المخدة الأخرى وأهديتها إلى زوجة مفتش الداخلية فسرت بها سروراً عظيماً وعرضتها على المفتش أمامى فقلت له فى بساطة إن المكتوب على تلك المخدة قصيدة عملتها مدحاً فى الخديوى ورجائى أن تقرأها وأن تقول لى انتقادك عليها لأنى أريد أن أرسلها له وكان الرجل من الإنجليز الذين يعدون أنفسهم شرقيين يجيدون اللغة العربية فقرأها وقال إنها عظيمة وبناء على هذا أخذت موافقته على هذاالتعريض بالمدير.

وعندما شرف سمو الخديوى الغرفة المعدة له فى منزل الطاهرى بك كنت أنا على الباب الخلفى وما كاد سموه يأخذ مجلسه حتى فتحت الباب ودفعت بالتلميذة أمامه وقد قدمت لسموه المخدة فأخذها وسر بها كثيراً وقبلها وقال إنها أحسن هدية قدمت إليه فى تلك الرحلة، وظن الحاضرون أن مهمة الفتاة قد انتهت ولكنها ما لبثت أن تقدمت إلى الخديوى تلقى القصيدة بإلقاء جيد وإشارات حية قد يعجز عنها الممثل الكفء فأخذت تشير إلى الخديوى ثم تشير إلى المدير فيما كان يخصه من التعريض وتلت الأبيات التالية:

قد طار نومك والحوادث حوم ورماك بالأهوال ليل مظلم

أبليت جسماً كاد يخفى رقة وقضى عليه الدهر فيما يجرم

أتعبت قلباً كان محمود العلا فغدا لجور زمانه يتألم

تبغين تعليم البنات ونشره ويلح دهرك فى العناد ويظلم

تبنى ليهدم كل ما شيدته من ذلك البنيان وهو الأرقم

وكانت تشير إلى المدير فى الكلمات التى تحتها خط فى هذه الأبيات لتظهر للخديوى أن المدير هو المقصود بالذات فى كلمات الدهر والزمان،؛ ولتؤكد معنى ما ذهبت إليه قالت:

مولاى إن الدهر عبدك فانهه عما يخبى للكرام ويكتم

وأشارت إلى المدير عند قولها «الدهر عبدك» فأصبحت الإشارة ثابتة لا شك فيها.

وأخذ الخديوى يعجب بإلقاء التليمذة ويمتدحها ووقف المدير متحيراً فى أمره لا يدرى ماذا يفعل ووقف كتمثال من الزعفران لا يكاد يتحرك، وأخذ الأعيان يتبادلون الابتسامات لتلك الجرأة المدهشة من فتاة تشتم المدير أمام الزائر العظيم، ثم مضت التلميذة فى إلقاء القصيدة فقالت:

ما ضر أهل الشرق إلا أنهـــم	تركوا النساء وراءهم وتقدموا
فانحطت الأبنـــاء بالأم التى	جهلوا مكانتها العلية فيهـــم
جهلت بأحوال الحياة فأوقـــعت	أبنائها فى شر ما تتوهـــم
قد عودوها الجبن من عهد الصبا	فتعلم الأبناء ذاك وعلمـــوا
وتسارعوا للعار فى أعمالهـــم	والفسق والبهتان إن يتكلمـــوا

وأخذت تشير إلى المدير فيما تحته خط وهو بالطبع مع الإشارة يعد سباً علنياً، وأدت الفتاة مأموريتها ثم عادت أدراجها.

وكانت قصيدة ناظرة مدرسة المعلمات والفتاة الصغيرة التى شتمت المدير أمام سمو الخديوى سمر الناس فى ليلتهم.

وفى صباح الغد ذهب الناس لتوديع سمو الخديوى على المحطة وأخذتُ تلميذات المدرسة الابتدائية التى كنتُ أديرها وذهبتُ لأودعه وكنت قد طبعت خمسة آلاف نسخة من القصيدة وذاع ذكر القصيدة بين الناس وما كادوا يروننا على إفريز المحطة حتى أخذوا يسألوننا عنها وكان جميع أعيان المنصورة هناك لتوديع سمو الخديوى فوزعت عليهم نسخ القصيدة بعد أن شُرِحَتْ لهم فى الليلة الماضية فكنت ترى أصدقاء المدير إذا وقعت في يدهم نسخة من القصيدة ذهبوا إليه ليطلعوه عليها، أما عامة الناس فكانوا يغتبطون بقراءتها ويتلذذون بإلقاء بعض الأسئلة على معلمى المدرسة، فيسأل أحدهم أحد معلمينا: من هو الأرقم يا أستاذ؟، فيقول المعلم: الدهر يا أخى.

ويظهر لى أنه حصل سوء تفاهم بين المدير وسمو الخديوى ولا أدرى إذا كان للقصيدة شأن فى هذا أم لا، ولكن المشاهد الذى رآه الناس أن سمو الخديوى لم يأخذه معه فى صالونه مع أن العادة تقضى أن يركب المدير مع سموه إلى آخر حدود مديريته، ووقف صالون سمو الخديوى فى مكان بعيد عن إفريز المحطة؛ فاضطر المدير أن ينزل

وأن يتخطى قضبان السكة الحديد إلى المكان الذى وقف فيه الصالون فزلت قدمه وسقط بين القضبان ثم قام.

وبعد أن سار القطار بالخديوى جاءنى المدير ومعه وكيل المديرية والحكمدار فحيانى باليد وضغط على يدى قائلاً: إن سمو الخديوى سر منك سروراً عظيماً. وهو يريد بذلك أن يهددنى بالانتقام منى لما فعلته. وأردت أن أجيبه على تهديده بمثله، فقلت فى لهجة المستفهم وفى ابتسامة فاترة: «ومين اللى قال لك إنه سر منى؟ ده ما خدكش وياه فى الصالون» ولقد أسفت كثيراً لسقوطك على قضبان الحديد وأرجو أن لا يكون قد أصابك ضرر منه»

وأردت بذلك أن أقول له: لا يهمنى تهديدك ويكفينى مذلتك اليوم، وكان جوابى بشكل مضحك حقاً حتى أغرق وكيل المديرية والحكمدار فى الضحك.

ولم أستطع فى ذلك اليوم أن أستقل العربة التى أقلتنى إلى المحطة إلا بعد ساعتين وذلك لازدحام الناس لرؤية تلك الناظرة التى استطاعت أن تشتم المدير أمام جميع الأعيان.

ويقول المدير نفسه لأحد إخوانه إنه خرج من المحطة مسرعاً إلى منزل مفتش الداخلية ليشكونى إليه فلما دخل غرفة الاستقبال وجد المخدة بالقصيدة على أحسن مقعد فى الغرفة فكاد يشل لأنه عرف أنه لا يستطيع أن يطعن فى القصيدة بعد أن رآها مفتش الداخلية وهو مستشرق، وفى اليوم التالى أرسل إلى مفتش الداخلية ولما دخلت عليه قال: أكان من اللياقة أن تشتمى المدير أمام سمو الخديوى والمودعين؟ قلت من قال لك ذلك وكيف شتمته؟ قال: بقصيدتك. قلت: ألم أقدمها إليك من قبل وآخذ رأيك فيها فَلِمَ لَمْ تقل لى إن فيها سباباً أو شتائم، قال: إنه لم يظهر لى ذلك. قلت: فإذا كان لم يظهر لك وأنت مفتش اللغة العربية أكثر من المدير ومن كثير من الأعيان الذين حضروا لتوديع الخديوى فكيف يظهر لهم هم السباب الذى لم يظهر لك، فسكت وترك الأمر.

ومن ذلك اليوم أوغر المدير صدور الإنجليز ضدى إذ حاول أن يفهمهم أنى من شيعة الخديوى بعد أن سافر سموه إلى تركيا سفرته الأخيرة، ومع أن قصيدتى لم يكن يراد بها مدح الخديوى بمقدار ما كان يراد بها ذم المدير، وهكذا تلتبس الحقائق أمام دس المدير.

إنشاء وتعمير

كنت فى مدة المغفور له محمد باشا شكرى قد اقترحت أن يبنى مجلس المديرية بناء مدرسة المعلمات والمدرسة الابتدائية واختير لها فدانان من الأرض وأخذ فى عمل تصميم البناء وأراد مدير التعليم أن يقوم بعمله ولكنى رفضت تصميمه وقمت بعمل التصميم وساعدنى المدير على تنفيذه بعد أخذ ورد دام طويلاً وأخيراً قام بالتصميم مهندس إنجليزى كنت أشرف أنا على عمله وبعد أن تم التصميم واعتمده المجلس قرر المهندس نفقاته بمبلغ ٢٤ ألف جنيه، وعرض على الداخلية فرفضت أن تصرح بهذا المبلغ الكبير لبناء مدرسة للبنات وطلبت أن لا تزيد النفقات عن ١٦ ألف جنيه. هنا وقع المجلس فى حيرة وسر مدير التعليم ذلك لأنه انتهزه فرصة ليقدم تصميمه هو وعارضت أنا فى ذلك وقلت إن فى استطاعتى أن أرفع بعض أجزاء هذا البناء فتكون نفقات الجزء الباقى منه لا تزيد عن ١٦ ألف جنيه، وصرح لى المدير بذلك، وشطبت على محال المطبخ والتدبير المنزلى ومغسلة وغرفة المائدة ومطبخ المائدة نفسه، وتركت الفصول فقط، وقوَّم المهندس البناء بعد ذلك فقدر نفقاته بمبلغ ١٦ ألف جنيه، ووافقت الداخلية وابتدأ المقاول فى حفر الأساس وزارنا المرحوم المستر دانلوب ليتفقد البناء الجديد وقبل أن يذهب إليه مرّ على المدرسة القديمة هو ومدير التعليم فطاف المدرسة ودخل المطبخ فقال إن المطبخ ضيق جداً وكان المدير فى ذلك الوقت عدوى، فقال مدير التعليم فى شىء من الاعتزاز بنفسه إن المطبخ هو الشىء الوحيد الذى لا أشرف عليه أنا قلت عفواً يا سيدى وهل إذا أشرفت عليه تستطيع أن تعمل شيئاً فى مثل هذا المنزل الضيق فهل كنت تخلق حجرة واسعة للمطبخ؟ أم كنت تستطيع أن تزحزح جدران هذا المطبخ ليتسع؟ على أنك أشرفت على ما أعتقد على البناء الجديد فهل احتطت لمطبخه قال نعم قلت كلا يا سيدى فسيرى جناب المستشار اليوم أن البناء ليس فيه مطبخ للتدبير ولا للمدرسة ولا غرفة للمائدة أيضاً ولا شىء من الملحقات الضرورية للتدبير

المنزلى فدهش المستشار وقال أصحيح هذا؟ وكان مدير التعليم قد تظاهر أمامه بأنه هو صاحب تصميم البناء فلما قلت ذلك أسقط فى يده وقال لى همساً لقد غششتنى وذهبنا إلى البناء الجديد وأطلعت المستشار على أساساته وبينت له المواضع التى يجب أن تبنى فيها غرفة المائدة ومحال التدبير جميعه فوبخ مدير التعليم على هذا التقصير فى البناء وذهب إلى الداخلية فى الحال فصرحت بزيادة ٨٠٠٠ جنيه لعمل تلك الملحقات وأعيد البناء إلى أصله الحقيقى ونجحت فى لعبتى وقد تم البناء فى مدة المدير المشاغب ونقلت المدرسة إليه وما كدت أقيم فى البناء الجديد أسبوعاً حتى زار المدرسة عظيم من عظماء وزارة المعارف كان أقرب الناس إلى جناب المستر دانلوب وتظاهر أنه جاء لزيارة المدارس الأميرية وأنه أراد أن يزورنى شخصياً وبعد أن زار المدرسة قال لى إن عملك مجيد وإنك أفضل من ناظرات المدارس الأميرية وإن بقائك فى مجلس المديرية على كراهية المدير لك خسارة عظيمة على مستقبلك وان ما رأيته من أعمالك اليوم يجعلنى أود مساعدتك بتعيينك وكيلة لمدرسة معلمات بولاق قلت ولكنك تعلم يا سيدى أنى أتقاضى هنا ٢٦ جنيهاً وأن القانون المالى لا يجيز أن أعين بالوزارة بذلك المرتب قال: إنك تجهلين مقدارك يا سيدتى فناظرة مثلك مجدة يجب أن يعمل لها كل استثناء ممكن ولا يتأخر مجلس الوزراء أن يساعدك بذلك متى شرح له مكانتك جناب المستشار.

كان ذلك الباشا يخاطبنى مخاطبة الثعلب للغراب لغرض فى نفسه ولم أكن أفطن لغرضه فقلت له وهل تظن أن مثل ذلك الاستثناء ميسور؟ وهل يعنى مجلس الوزراء فى الحالة الحاضرة (وقد كنا فى سنة ١٩١٤) مع اضطرابها بتعيين فتاة مثلى فى مدرسة قد أخذت بنائها السلطة العسكرية فهى الآن فى حكم العدم وما الذى يهم مجلس الوزراء من تعيين وكيلة لمدرسة مغلقة؟ قال: صدقت قد لا تتم تلك الأمنية. ومع ذلك فلم لا تجربين؟ ولا يكلفك ذلك إلا كتابة الطلب وسأحفظ طلبك عندى فلا يعلم به أحد إلا إذا وافق عليه مجلس الوزراء فكتبت له طلباً أقول فيه إنى أرغب أن أكون وكيلة لمدرسة بولاق بمرتب شهرى قدره ٢٦ جنيهاً على شرط أن أكون مثبتة وأن يكون لى خادمة خصوصية وأعطيته الطلب وأنا أعلم أنه كلام لا قيمة له لأن تحديد المرتب

عقبة عظيمة وشرط التثبيت عقبة ثانية لأن نظرى كما قدمت كان ضعيفاً لا يسمح بتثبيتى فلابد لمجلس الوزراء أن يثبتنى بصفة استثنائية، وأن يقرر مرتبى بصفة استثنائية أيضاً (وخبطتين فى الراس توجع) على أنى كنت أجهل أن فى الأمر دسيسة سياسية ولهذا أعطيته الطلب وأنا واثقة أنه لن يجاب.

وماكانت أشد دهشتى إذ خاطبنى الباشا فى اليوم التالى تليفونياً وهنأنى بوظيفتى الجديدة. قلت بدهشة ومتى اجتمع مجلس الوزراء لتعيينى قال إنه لم يجتمع ولكن الوزراء وافقوا على التعيين متفرقين. قلت عجباً وما الدافع لهم إلى كل تلك السرعة والمدرسة التى عينت بها مغلقة فلا حاجة إلى تعيين وكيلة لها أو ناظرة. قال لقد تم هذا والسلام، فقلت إنى أرفض هذه الوظيفة لأن فى طياتها أمراً خفياً لا أفهمه. قال على كل حال لا بد من حضورك حالاً لمقابلة جناب المستشار فهو وحده يستطيع أن يشرح لك الحالة.

قابلت جنابه فى اليوم التالى وأنا مصممة على رفض التعيين وقال لى إنه يدهش لرفضى بعد أن عيننى فى وظيفة لم تعين فيها مصرية من قبل وبمرتب لم تتناوله غيرى من المصريات. قلت نعم هذا صحيح ولكن سرعة تعيينى على ما فيه من العقبات وعلى عدم وجود المدرسة التى عينت فيها تدل على أن فى الأمر شيئاً خفياً وماذا عسى أن يكون هذا الشىء إلا إتهامى بالاشتغال بالسياسة ضد الإنجليز وإذا كان هذا صحيحاً فكيف أستطيع أن أعاشر سيدة إنجليزية بصفتها ناظرة وأنا وكيلة لها. لا شك عندى أنها سيدة فاضلة محترمة، وقد كانت فى الماضى معلمتى ولكننى لو كنت محلها لما استطعت أن أعاشر تلك الوكيلة بعد أن قلبت لى ولأمتى ظهر المجن فى أحرج المراكز قلت له ذلك استنتاجاً بما عساه أن يكون وقد كان هو الحقيقة بعينها فقد أفهموا جناب المستشار أنى ناظرة محبوبة من جميع الأهالى وأنى أعمل ضد الإنجليز فى الخفاء وأن بقائى فى المنصورة قد يقلب أهاليها ضد الإنجليز عن بكرة أبيهم وزاد هذا الاعتقاد رسوخاً فى نفس المستشار ما ذكرته له إذ ظن أنى لاشتغالى بالسياسة ضد الإنجليز قد شعرت بما بلغه عنى فزاد تشبثه بتعيينى وكيلة مهما كانت الظروف ولو بالقوة خصوصاً وأن ناظرة مدرسة السنية كانت قد بلغت الستين من العمر وفصلت لبلوغها السن

القانونى ولم تكن تستطيع السفر إلى بلادها لتحرج الحالة الدولية فأرادوا أن يجدوا لها عملاً خارج الحكومة ريثما تضع الحرب أوزارها وخصوصاً أنه لم يقرر لها معاش لدخولها الخدمة فى سن كبيرة ولو أنى كنت أعلم تلك الحالة لوافقت من أول الأمر على التعيين خدمة لتلك التى كانت ناظرة لى يوماً ما ولكنى كنت أجهل ذلك واعتقدت أن المسألة سياسية بحتة وخشيت أن تساء معاملتى.

القوة فوق الحق

تشبث جناب المستشار بتعييني وكيلة مهما كلفه ذلك ولهذا قال إنه لا بد من قبول وظيفة وكيلة لأنى أنا نفسى التى طلبتها، ولكنى اشترطت أن أكون مثبتة قال لا مانع وسأرسلك الآن إلى القومسيون الطبى فقلت: لقد عرض نظرى على القومسيون الطبى منذ خمس سنوات فلم يوافق على تثبيتى وثبتنى مجلس الوزراء بصفة استثنائية فهل تظن جنابك أن نظرى زاد قوة بعد عملى خمس سنوات؟ أم تراه قد زاد ضعفاً على ضعفه القديم؟ قال: إنك ستذهبين الآن إلى القومسيون مع جناب مسز الجود وله أن يقرر ما يريد ثم استدعى مسز الجود فى الحال وأرسلنى معها فاستقبلنى ثلاثة من الإنجليز وكان القومسيون يشكل عادة من رئيس إنجليزى وعضوين مصريين فخالف فى تلك المرة عادته وزادنى ذلك نفوراً على نفورى الأول وأشار الرئيس إلى العلامة الأولى وسألنى عن مكان فتحتها فقلت له فى شىء من الغضب هل تظن أننى أراك أنت شخصياً؟ قال عجباً ألا ترينني؟ قلت نعم قال فاذهبى اليوم وسأكشف عليك فى يوم آخر. فخرجت من الغرفة وتأخرت مسز الجود معه برهة ثم لحقت بى وأعادتنى إلى المستشار الذى ما كاد يرانى حتى هب مسلماً على وهو يبتسم قائلاً: أهنئك بالنجاح فى الكشف الطبى قلت: وهل نجحت وأنا لم أر الرجل نفسه؟ قال نعم وقد عينت وكيلة لمدرسة بولاق أيضاً وأمامك أسبوع واحد تستعدين فيه لتسلم مركزك الجديد. عدت إلى المنصورة وقد علمت أنى غير باقية فيها فدعوت سيدات المنصورة إلى اجتماع ودعتهن فيه وألقيت عليهن خطاباً يتضمن كثيراً من الطعن على المدير بصفة غير مباشرة ومن ذلك أنى قلت: (يتهموننى أيتها السيدات بكراهيتى الشديدة للرجال فناشدتكن الله ألا دافعتن عنى عند رجالكن فأنى لا أكره من الرجال إلا الدنئ السافل).

ولما كانت كراهيتى للمدير مشهورة عند جميع الناس فقد كان هو المقصود بالدنئ

السافل وقد طبعت تلك الخطبة ووزعتها فى مدينة المنصورة فأخذ المدير نسخة منها وذهب بها إلى المستر دانلوب ليشكو من سوء تصرفى فلما ترجمت الخطبة للمستشار لم يجد فيها ما يوجب لومى لأن الطعن لم يكن صريحاً بل كان يفهم بالقرائن وقد قال جنابه لا لوم على نبوية فى أن تقول: إنها تكره الدنئ السافل ولا يمكن معاقبتها على ذلك لأنى أنا نفسى أكره كل دنئ سافل.

وبعد مضى أسبوع رفضت قبول وظيفة وكيلة لبولاق كما رفضت مبارحة مدرستى فأرغى جناب المستشار وأزبد وأحاط المدرسة فرقة من الجنود الإنجليز منعت دخول أى شخص إليها وصرحت لجميع من فيها بالخروج حتى لم يبق فى المدرسة غيرى وقال: المدير إنه مستعد أن يخرجنى منها إذا كتبت قبولاً صريحاً وظيفة وكيلة لبولاق على أن يصحبنى بعض رجاله ليسلمنى إلى المستشار باليد وعز علىَّ الأمر فلم أقبل وقضيت فى سجنى ثلاث ليال غضب المستشار لذلك كل الغضب وأراد أن يتخلص منى فكتب لمستر ورنوك خطاباً رسمياً يقول له فيه إننى جننت وأن هذا جنون وراثى بدليل أن أخى عرض عليه قبل ذلك مصاباً بذلك وقد بنى المستشار ذلك الوهم على حقيقة وهمية لا علاقة لها بالحقيقة وذلك لأن المرحوم شقيقى كان قد أصيب بحمى التيفود وهو فى سن السابعة عشر فلما شفى من الحمى كان يهرف قليلاً كعادة كل مصاب بها وكان يتقاضى معاشاً عن والدى يقطع عنه فى سن الثامنة عشر ولجهل والدتى ظنت أن المعاش يمكن استبقاؤه إذا ثبتت إصابة شقيقى بالذهول فقدمت طلباً بذلك وعرض الطلب على المستر ورنوك وهو مدير مستشفى المجاذيب وكشف على المرحوم فقرر أنه سليم معافى فلما تضايق المستشار منى تقدم إليه أحد أقاربى بتلك الحكاية تملقاً منه للقوة الغاشمة وشاء الله أن لا يجاريهم المستر ورنوك فيما أرادوا فكتب إلى المستشار يقول: إن ذلك الشخص عرض عليه منذ عشرين عاماً وقررت أنه سليم معافى وأنه لا يستطيع القبض علىَّ بعلة الجنون ما لم استكتب تقريراً مطولاً يستطيع أن يحكم منه ولو على تهورى فأرسل إلىَّ المستشار مفتشاً يطلب منى أن أكتب بالتفصيل كيف رفضت الوظيفة بعد أن طلبتها بنفسى فكتبت إليه تقريراً أقول فيه إنى طلبت الوظيفة باعتبار أنها وظيفة تليق بى وكنت أعتبر نيلى لها حظاً سعيداً، ولكنى لما رايت انهم عينونى فيها

بمجلس وزراء فى لحظات معدودة وبسرعة لم يعهدها أحد خصوصاً وأنه لم يكن هناك داع لتلك السرعة لأن المدرسة التى عينت بها كانت معطلة عن العمل وقد احتلت بناءها السلطات العسكرية. علمت أن فى الأمر شيئاً خفياً لا أعرفه وزادنى يقيناً فيما اعتقدت أن القومسيون الطبى الذى تشكل من ثلاثة من الإنجليز مفروضاً فيهم جميعاً النزاهة قد أقروا صلاحيتى للعمل دون أن أرى شيئاً.

علمت من ذلك كله أنى متهمة بالسياسة وتعيينى وكيلة لناظرة إنجليزية بعد هذا الاتهام يجعل تلك الناظرة ضدى وعلى ذلك يكون بقائى معها لا كوكيلة وناظرة بل كسجان ومسجون فهى لا تأتمننى فى شىء بل ستراقب حركاتى وسكناتى مراقبة شديدة تجعلها تتوهم الشك يقيناً وتقلب الحقائق رأساً على عقب ولست ألومها فى ذلك أو أنسب إليها الشر بل وهى معلمتى أعرف عنها الكثير من الخير ولكنى لو كنت مكانها لفعلت ما تفعل مع تلميذة تمردت علىَّ وعلى أمتى وقلبت لى ظهر المجن فى أشد المراكز حروجة ولهذه الأسباب رفضت الوظيفة.

عرض هذا التقرير على المستر ورنوك فأعطانى الحق كله وقال إنىْ لم أخطىء فى شىء وإن الخطأ واقع على الوزارة نفسها وإنه يهون عليه أن يقبض على المستر دانلوب نفسه من أن يمسنى بسوء قال ذلك للمستر دانلوب تليفونياً فصارحه الآخر بأنى ضد الإنجليز وأنه يجب القبض علىَّ لهذا السبب. قال المستر ورنوك: وما الذى يمنعك أن تقبض عليها سياسياً وقد قبضتم على كثير من المصريين. قال دانلوب: إنها ذكية جداً وقادرة فى أعمالها ومحتاطة كل الاحتياط. قال ورنوك: إذاً لا شأن لى بها ثم كتب إلى الوزارة خطاباً رسمياً يقول فيه:

"رداً على خطابكم والإشارة التليفونية التى سبقته أفيدكم أنه لا يمكن التدليل على جنون تلك السيدة مادامت كما تقولون أنتم ذكية جداً وقادرة فيما تقوم به من الأعمال ومحتاطة كل الاحتياط".

وهنا ثارت ثائرة المستشار ولم يجد أمامه من الحيلة إلا الالتجاء إلى المرحوم أخى وكان المرحوم فى ذلك الوقت قاضياً جزئياً بقنا فخاطبه مستشار الداخلية تليفونياً وهو فى الجلسة فطلب منه رفع الجلسة والحضور إليه فى القاهرة حالاً ولما وصل المرحوم

إلى القاهرة وجد ساعى المستشار ينتظره على المحطة بسيارة المستشار الخصوصية فسار به فى الحال إلى جناب المستشار وبعد أن حياه وشرب معه الشاى طلب منه أن يقابل مستشار المعارف وأن يقضى له ما يريد وذهب أخى بسيارة مستشار الداخلية إلى مستشار المعارف فى منزله فقابله أحسن مقابلة ورجاه أن يرجونى فى قبول الوظيفة فوعده خيراً وقضى ليلته بالقاهرة وفى الصباح المبكر سافر إلى المنصورة فوصل إليها قبل الظهر وكانت التعليمات بوصوله قد سبقته فأدى له الجنود الواقفون بباب المدرسة التحية وأفسحوا له فدخل وطلب منى أن أصحبه إلى مستشار المعارف فلما رفضت قال لى إن الظروف حرجة وإنى أنا شخصياً أسخر بالحياة لأنه ليس لى أولاد أما هو فلابد أن يفكر فى أولاده وإنى بعنادى هذا سأحرج مركزه كل الإحراج.

فلم أستطع أمام هذا أن أتردد بل ذهبت معه وفى صباح اليوم الثانى أخذنى بنفسه إلى غرفة المستر دانلوب وهناك أمضيت على خطاب قيامى بالعمل كوكيلة لمدرسة بولاق واعتمد تعيينى فى ذلك اليوم وكان مجلس الوزراء قد عيننى وكيلة لمدرسة بولاق فى يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ وفى يوم ٤ ديسمبر كتب مستشار المعارف المستر دانلوب بالقبض على وفى يوم ١٠ ديسمبر تم تعيينى وتسلمت العمل كما يزعمون فليعجب القارئ من ذلك التناقض إذ تعيننى الوزارة وكيلة بمدرستها فى يوم ٢٧ نوفمبر ثم تطلب القبض علىَّ بعد ذلك بأسبوع ثم تعيننى نهائياً عندها بعد ذلك الطلب بأربعة أيام والجنون فنون كما يقولون.

وظيفة وكيلة

أمضيت خطاب قيامى بالعمل بصفة وكيلة لمدرسة بولاق بمكتب المستشار كما قدمت، وقمت بالعمل - إذا كان هناك قيام به - فى منزلى لأن المدرسة كانت مغلقة وكانت السلطة العسكرية قد استولت على بنائها وفى تلك الأثناء تولى السلطان حسين عرش مصر فهدأت الأمور وطالب عظمته الحكومة بفتح المدارس فأخلت السلطة بناء مدرسة المعلمات ببولاق وفتحت المدرسة أبوابها فى أكتوبر سنة ١٩١٥ وعملت وكيلة تحت يد ناظرة إنجليزية كنت أعرفها من قبل لأنها كانت معلمتى وكنت أقدر أخلاقها كثيراً ولكنى شعرت عندما عملت معها بشىء من الجفاء ما كنت آلفه منها من قبل وذلك لأنها كانت تعتقد أنى ضد الإنجليز والظاهر أن للإنجليز خطأ جوهرياً فى تصديق كل ما ينقل إليهم من الإشاعات والتمسك به وعدم تصديق ما يخالفه مهما كان خطأ الإشاعة الأولى وبعدها عن الحقيقة، والشخص الذى اتهم بمناوأة الإنجليز إذا هو أكد لهم أنه مظلوم وأن ما سمع عنه مجرد افتراء فهم لا يتحولون عن اعتقادهم الأول بل ربما نظروا إليه بعين الاحتقار إذ يعدونه جباناً كاذباً، فلهذا كنت مضطرة على الرغم منى أن لا أدافع أمام تلك الناظرة عن نفسى وأن لا أدلل لها عن براءتى خشية أن تتهمنى بالجبن والكذب فكنت أعاملها بالحذر والصمت كما كانت هى أيضاً تعاملنى بشىء من الملاينة الظاهرة ينطوى تحتها شىء من الخوف خشية أن أناوئها.

أردت أن أنصرف إلى العمل لأبرهن بعملى على حسن نيتى والحق إنى كنت ولا أزال أحب التعليم حباً يشغلنى عن كل شىء سواه حتى النظر فى السياسة لأنى كنت أعتقد أن الإنسان يخدم بلاده بالمهنة التى يتقنها والتى يجب أن يتفرغ لها، أما هى فكانت تريد أن تصرفنى عن العمل فى المدرسة بكل ما تستطيع وحصل أنى اطلعت على كراسات الطالبات فى اللغة العربية فوجدت فيها أخطاء كثيرة أصلحتها بالقلم الأزرق وعز على المعلمين المشايخ أن تصلح أخطاءهم فتاة من مدرسة السنية فشكوا أمرهم إلى كبير فى

الوزراة وشجعهم على ذلك ما كانوا يرونه من شدة حذر الناظرة منى، وطلب ذلك الكبير منهم الحضور فحضروا إلى مكتبه ومعهم كراسات الطالبات التى أصلحت أنا أخطاءها وعرض الأمر على المستشار وكان الرجل دقيقاً فى عمله عادلاً فى تصرفاته فسألهم عما كتبته أنا بالقلم الأزرق وهل هو خطأ أم صواب؟ فقالوا إنه صواب. وهناك ثارت ثائرته وقال "أتشكون إلىَّ من أن فتاة من السنية وجدت لكم أخطاء أنتم المشايخ أعلام اللغة العربية فأصلحتها؟ وهل كان من صالح التعليم أن تتركها؟ الحق إن شكواكم غريبة مضحكة وإن خير ما يمكننى أن أقوله لكم هو أن تخرجوا من مكتبى دون أن ينالكم عقاب" وهكذا باءوا بالفشل من شكواهم ولكن حضرة الناظرة طلبت منى بعد ذلك أن أترك الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى وأن لا أتدخل فى عمل أحد من المدرسة، ومن ثم ابتدأ بينى وبينها شىء من العداء والجفاء وكانت غرفتى إلى جانب غرفتها فكنت أنتقد بعض أعمالها وكانت المعلمات فى ذلك الوقت ككل مصرى يتهمن المصرى بالكذب وكل العيوب ويبرئن الإنجليز من كل عيب مهما صغر وأردت أن أشرح لهن الخطأ فيما ذهبن إليه فقلت لهن إنكن تعتقدن أن الإنجليز لا يكذبون وفى استطاعتى أن أبرهن لكن عملياً أنهم ككل الشعوب منهم الصادق والكاذب والأمين والخائن وهذه ناظرة إنجليزية الأصل وستقابل اليوم بعض المعلمات لتعينهن فى مجالس المديريات وربما استطعت أن أثبت لكن كذبها مما تقوله لهؤلاء المعلمات، وكان أول من دخلت عند الناظرة آنسة طلبتها هى لتعينها ناظرة فى مدارس مجالس المديريات فقالت لها: "إن هناك مدرستين فتحتهما مجالس المديريات إحداهما مدرسة شبين الكوم والأخرى مدرسة طنطافاكتبى إلىَّ تطلبين وظيفة ناظرة فى مجالس المديريات لأعينك فى إحدى المدرستين" قالت الفتاة: "ولكنى لا أريد مدرسة شبين الكوم بل أريد مدرسة طنطا" قالت: "لا بأس، ولكن يجب عليك فى الطلب أن لا تعينى المدرسة التى تريدينها وسأعينك فى طنطا كما تريدين" وخرجت الفتاة من غرفتها إلى غرفتى وقصت علىَّ قصتها أمام بقية المعلمات فقلت لهن إن هنا كذباً لا أستطيع إثباته الآن لأن مدرسة طنطا بنيت بناء حسناً لتديرها ناظرة إنجليزية لا مصرية وستعين الفتاة فى مدرسة شبين الكوم.

وجاءت بعد هذه ناظرة بنها فطلبت من الناظرة أن تعينها فى مدرسة شبين الكوم

لأنها غير مستريحة فى بنها فقالت الناظرة فى دهشة: "وهل ستفتح مدرسة فى شبين الكوم؟ إنى لم أسمع بذلك" وعندما قصت ناظرة مدرسة بنها حكايتها تبين للمعلمات أول كذبة كذبتها الناظرة الإنجليزية وجاء بعد ناظرة بنها فتاتان تريدان التوظف بوظيفة معلمتين فى مدرسة طنطا فسألتا الناظرة عمن ستعين ناظرة لمدرسة طنطا ولكى يرضياها قالتا لها إنهما لا يقبلان العمل تحت رياسة مصرية فقالت لهما لا تخشيا شيئاً فناظرة طنطا ستكون بالتأكيد إنجليزية وهنا ظهرت الكذبة الثانية وهكذا أثبت لهن ما يزيد عن عشر كذبات فى يوم واحد. وقد دهشت المعلمات لاعتقادهن الراسخ أن الإنجليز لا يعرفون الكذب ولكنهن خضعن للحقيقة الواقعة.

وبمناسبة هذا أقول إنى قد علَّمت هذه الناظرة الإنجليزية اللغة العربية فلما دخلت الامتحان تفوقت على زملائها الإنجليز فى تلك اللغة فعينت لسوء حظى مفتشة للغة العربية وجاءتنى فى المنصورة عندما كنت ناظرة لمدرسة معلمات المنصورة لتمتحن طالبات مدرستى فى التربية العملية أى تتقدهن فى إلقاء دروسهن باللغة العربية على الطالبات وكان معها على ما أتذكر خالد بك حسنين فعلمت أن مثل هذا الامتحان لا يسفر عن حقيقة لجهلها هى باللغة العربية ولأنها الكل فى الكل فيه قلت لها مازحة إنى مستعدة أن أحضر لكِ فنجاناً عظيماً من القهوة على شرط أن تتعهدى لى بعدم رسوب الطالبات فى تلك المادة. فقالت: لا. لا أذوق قهوتك. وقامت فعملت هى وخالد بك فى الامتحان مدة ساعتين ثم جاءت لتستريح فى مكتبى فقلت ألا تزالين تصرين على عدم قبول شرطى وشرب القهوة؟ قالت: لا.. كلا. أما خالد بك فقال لى:

لقد طار مخى من التعب فأرجو إحضار القهوة وإنى مستعد لأن يرسب من الطالبات حتى الأوليات، ثم أعطتنى كشفاً وقالت: إنه يجب علىَّ أن أضع للطالبات درجاتهن فى أعمال السنة من ٣٠. فقلت لها: إنى أعلم أنَّ أوليات الطالبات سيرسبن فى امتحانك وإذن سأعطى هؤلاء الأوليات ٦٠ من ٣٠. فقالت بحدة: لا تفعلى فإن هذا غير مصرح به وضايقنى تجاهلها المزاح إلى هذا الحد، فقلت لها: ألا تمزحون فى بلادكم؟ فقال: كلا.. نحن لا نقول الكذب حتى ولا فى المزاح، مع أنها كما رأى القارئ قالت ذلك الكذب فى الجد الصحيح.

الدعاية الوطنية

من أحسن خصال الإنجليز ومن أهم الأسباب التى تكلل أعمالهم بالنجاح دعايتهم المستمرة لبلادهم فهم يحدثونك عن مفاخر أبناء وطنهم كما كان يتغنى الشاعر العربى القديم بذكرى عنترة بن شداد أو الزير سالم أو غيرهما من أبطال التاريخ وهم فى سبيل ذلك قد ينسون الحقيقة، ويصل كلامهم إلى حد الخرافات، يتغنى الإنجليزى بمفاخر قومه بحماسة نادرة فيثبت ذلك فى نفسه ويعتقد اعتقاداً صحيحاً أن أبناء جنسه خير البشر وأفضلهم على الإطلاق وهو لذلك لا يدخل من المصانع أو المتاجر إلا ما كان إنجليزى الأصل فتروج تجارتهم ويحملون غيرهم من الأمم على احترام أمتهم والثقة بها وترى تلك الظاهرة الحسنة فى كل شخص أو هيئة أو جماعة منهم فهم يوحون إلى الناس جميعاً باحترامهم والثقة بأعمالهم وينفون العيب عنهم مهما ظهر.

كنت أعرف ذلك منهم وأريد أن أقتدى بهم فى إعلاء اسم أمتى وكانت ناظرتى الإنجليزية تود أن تفهمنى غير ما أريد وكان بالمدرسة حوالى ٣٥ معلمة مصرية ومعلمة واحدة إنجليزية فكانت كلما أخطأت إحدى المعلمات المصريات قالت لى هكذا المصريون لا يفلحون فى عمل فإذا عارضتها فى ذلك قالت لا تقيسى على نفسك فأنتِ مستثناة وكنت أجيبها أنى مصرية صميمة وأن لون بشرتى وشكل وجهى الفرعونى يدلان على أنى من صميم مصر ومحال أن أستثنى من بناتها وأنها هى تحكم على المصريات حكماً قاسياً لا مبرر له مع أنهن كالإنجليزيات فى كفايتهن ومحال أن يعصم شخص من الخطأ فكانت تعارض بشدة فى ذلك وأخيراً قلت لها إن بالمدرسة ٣٥ معلمة مصرية ومعلمة واحدة إنجليزية وبناء عليه يجب أن نجد ٣٥ خطأ من المصريات يقابله خطأ واحد من الإنجليزية وإنى سأحصى أخطاء الفريقين. قالت محال أن تجدى للإنجليزية خطأ. قلت سنكون أمام الأمر الواقع فى المستقبل القريب وكانت تلك السيدة الإنجليزية تدرس ١٢ حصة أسبوعياً فقط فى التدبير المنزلى ليكون عندها من الوقت ما يكفى

لإرشاد معلمات التدبير اللاتى كانت كل منهن تدرس ٢٤ حصة فى الأسبوع وكانت تلك السيدة تستغل سيطرتها عليهن فتوزع دروسها عليهن فلا هى ترشدهن ولا تقوم بتدريس دروسها نفسها.

وفى أحد الأيام تغيبت إحدى معلمات التدبير المنزلى فأمرتنى الناظرة أن أوزع دروسها ففعلت ولكنى لم أوزع درس السيدة الإنجليزية التى كانت تقوم بتدريسه تلك المعلمة بصفة غير رسمية وعندما ابتدأ ذلك الدرس أتيت إلى الناظرة وأخبرتها أن الفرقة الفلانية ليس بها معلمة قالت لعلك لم توزعى دروس المعلمة الغائبة قلت كلا قد فعلت وهذا الدرس مخصص للسيدة الإنجليزية قالت وأين هى قلت إنها فى غرفتها تشرب الشاى مع ضيف لها قالت محال أن تترك درسها قلت إنها يا سيدتى لا تدخله بتاتاً بل هى تتركه للمعلمة الغائبة قالت إنى لا أسمح لكِ بذلك القول قلت إن الحقيقة لا تقبل الجدل فقامت وهى تكاد تتميز غيظاً وذهبت إلى غرفة المعلمة الإنجليزية وأمرتها بالحضور إلى الدرس وكانت تلك المعلمة الإنجليزية تدرس درس التربية العملية فى التدبير المنزلى ونظراً لأن الطالبات يعلمن أنها لا تصحح مذكرات دُروسهن التى يلقينها أمامها لأنها لا تفهمها بل تضع عليها الدرجة حيثما اتفق أخذن يهملن إعداد مذكراتهن وبعد يومين من الحادثة الأولى كانت إحدى طالباتها تُدَرِّسُ درس (يخنى) للسنة الرابعة من المدرسة الملحقة وكان ذلك فى الحصة الأولى صباحاً فلم تعد مذكرة درسها بل أخذت كراسة إحدى طالباتى وكانت قد أعدت بها درساً للسنة الثانية فى مبادئ جدول الضرب وقد أرادت الطالبة بأخذ تلك الكراسة أن توهم المعلمة الإنجليزية بأنها أعدت مذكرتها وأنها أخطأت فأحضرت كراسة أخرى بدلاً من كراستها وينتهى الأمر عند هذا الحد ولكن المعلمة ما كاد يقع بصرها على مذكرة طالبتى التى كانت قد أعدتها بنظام وإتقان حتى وضعت عليها الدرجة النهائية وأمضت ولما دخلت طالبتى لإلقاء درسها أمامى رأيت إمضاء المعلمة الإنجليزية والدرجة فى نهاية المذكرة فسألت الطالبة عن السبب فى وضع تلك الإمضاء فأخبرتنى بما حدث فذهبت إلى الناظرة وبيدى الكراسة وقلت لها ما رأيك فى معلمة تضع إمضاءها والدرجة على كراسة لم تقرأها قالت ليس ذلك بغريب على المصريات قلت وما رأيك إذا كانت إنجليزية؟ قالت:

محال أن يصدر هذا من إنجليزية. فأطلعتها على الدرس فرجعت ثم قالت لعلها قرأته ولكنها لم تفهمه جيداً. قلت إن السيدة التى تقرأ السنة الثانية على أنها الرابعة وتقرأ كلمة (حساب) على أنها (طبيخ) ثم تقرأ كلمة جدول الضرب على أنها (يخنى) لا يجوز لنا أن نعتبر أنها قرأت شيئاً بل هى وضعت الدرجة جزافاً دون أن تعرف فى المذكرة شيئاً. فقالت الناظرة بحدة أرجو أن لا تناقشينى فى أخطاء تلك السيدة مرة أخرى. قلت لست بفاعلة ويكفى أنى أظهرت لك أن الإنجليزيات أكثر من المصريات أخطاء. ولم تعد بعد ذلك إلى الطعن فى المصريات أمامى.

وكان بالمدرسة ضابطة تعرف اللغة الإنجليزية وتشاطر الناظرة رأيها فى الطعن على المصريات ولهذا كانت الناظرة تحابيها وترفع من درجتها واعتماداً على ثقة الناظرة بها وميلها إليها أرادت أن تتعالى علىَّ متناسية أنى وكيلة المدرسة وأنها إحدى الضابطات، ومررت بعنابر النوم يوماً فوجدت أن بعض الأَسِرَّة بها وسائد مربعة فوق وسادتها الأصلية وبعضها ليس به تلك الوسائد وأن الطالبات تشاجرت على تلك الوسائد الزائدة فكل منهن تريد أن يكون لها وسادة مربعة وهكذا كانت تلك الوسائد منبع شقاق وخصام فأردت أن أمنع ذلك الشقاق بوضع جميع الوسائد المربعة فى عنبر واحد هو عنبر نوم السنة الثالثة وهى أعلى سنى المدرسة فأمرت الخادمات بنقل جميع الوسائد الزائدة إلى ذلك العنبر وعز على الضابطة التى أشرت إليها أن لا آخذ رأيها فى ذلك فنقلت الخبر إلى الناظرة وزادته فظاعة بأن قالت لها إن الوكيلة تعمل ما تريد دون أن تعبأ برأى الناظرة أو تستشيرها وكانت ضابطة الخدم سيدة فرنسية فأمرتها الناظرة أن تنقل الوسائد من عنبر السنة الثالثة وتوزعها على العنابر الأخرى كما كانت ونفذت الضابطة ما أمرت به الناظرة وما كدت أرى ذلك حتى ارتديت ملابسى وتأهبت للخروج دون أن أقول للناظرة شيئاً ورأتنى وأنا مارة بباب غرفتها فى طريقى إلى خارج المدرسة فنادتنى فلم أجبها فتبعتنى وأوقفتنى وسألتنى عن سبب خروجى فقلت لا أستطيع أن أودى عملى كما يجب أو أقوم بالمسئولية الملقاة على عاتقى عندما أنوب عن الناظرة فى غيابها بصفتى وكيلة للمدرسة مادامت إحدى الضابطات تهزأ بأوامرى وتمحوها كلما أرادت ذلك ورأت الناظرة أنها أخطأت فقالت ولكنى أخذت الوسائد من

عنبر السنة الثالثة لأنجدها ثم أعيدها إليه. قلت حسناً أما أنا فسأبقى فى منزلى إلى أن تعود الوسائد إلى حيث وضعتها ثم سلمت عليها وانصرفت وذهبت إلى المرحوم الدكتور طلعت لآخذ إجازة مرضية ورأى الدكتور أن حرارتى ٣٩ درجة فقال إنى أعتقد أنك لست بمريضة بالرغم من ارتفاع حرارتك ولعلك مغضبة أو مجهدة وعلى كل حال فأنتِ تستحقين إجازة للراحة من ذلك الإجهاد وسمح لى بإجازة ١٥ يوماً فعدت إلى المدرسة لأسلم الإجازة وآخذ ملابسى وما كادت الناظرة ترانى حتى تبعتنى إلى غرفتى وقال ألا تزالين مغضبة؟ قلت لا يغضبنى شىء ولكنى لا أستطيع البقاء فى تلك المدرسة إلا إذا نفذت أوامرى. قالت لقد أحضرت المنجد وستكون الوسائد فى محلها غداً. قلت لا بأس يا سيدتى وسأكون بالمدرسة غداً إن شاء الله ومررت بالضابطة الفرنسية التى رأت كيف غيرت الناظرة أمرها الأول والتى كانت تتألم بعض الشىء من قوة نفوذ الضابطة الأخرى فقالت لى أهنئك بفوزك الباهر وها نحن نعمل بسرعة فى تنجيد الوسائد ووضعها فى مكانها الذى أمرت أنتِ أن توضع به وهكذا عادت الوسائد إلى مكانها فى اليوم التالى كما عدت أنا إلى عملى وفى النفوس ما فيها.

تهمة كاذبة

كان لسوء حظى فى ذلك الوقت أن انتشرت إشاعة تشير إلى أن الإنجليز ضدى، مع أنى لم أكن أشتغل بالسياسة إطلاقاً بل لم أكن - علم الله - أكره الإنجليز ولكن هكذا شاء أعدائى أن يفهموا الإنجليز غير الحقيقة، والإنجليزى إذا فهم شيئاً واستقر فى رأسه لا يتنازل عنه مهما كانت الظروف ومهما ظهرت له الحقائق فهم فى ذلك يتمثلون بقول الشاعر:

"ما الحب إلا للحبيب الأول".

فالرأى الأول له عندهم المكانة الأولى مهما كان خاطئاً وكل ما عداه خطأ لا يابهون به.

لهذا كان مركزى حرجاً وأخذ كثير من الموظفين يتحينون الفرص لإسقاطى، بعضهم لكراهتهم لى وهم قليلون، والبعض الآخر مجاملة للإنجليز جرياً وراء تلك الإشاعة الكاذبة، وفى ذلك الوقت تولى المغفور له السلطان حسين الحكم وأخذ يزور المدارس وكان عظمته عصبى المزاج جريئاً يقول ما يريد فكان المستر دانلوب - مستشار المعارف - يخشاه.

فلما جاء دور مدرسة معلمات بولاق وحدد موعد زيارة عظمة السلطان لها أخذ المستر دانلوب بنفسه يتردد على المدرسة ليتأكد من أن كل ما فيها يرضى عظمة السلطان، وقد زار الفصول جميعها فلما دخل فصلى وكنت أدرس "التربية العلمية" رأى فى سواد ملبسى ما يثبت علىَّ تهمة عدم رضائى بالحكم الحاضر، وقد كنت فى شبابى المعلمة الوحيدة التى ترتدى ملابس سوداء وكنت أفعل ذلك محافظة على الحشمة والكمال فقال لى: يجب أن تغيرى ملابسك هذه، قلت: وما السبب الذى يدعونى إلى ذلك؟ قال: إن حضرة صاحب العظمة السلطان سيتأكد من ملابسك هذه أنك ضد الحكومة الحاضرة وأنك تشايعين الخديوى السابق، قلت: لم أتصل عمرى بسمو

الخديوى ولا بحاشيته وقد كنت ألبس ملابسى السوداء وسموه فى الحكم، قال: ولكن عظمة السلطان لا يعلم ذلك. قلت: ولكن جنابك تعلمه، وأظن أن من الواجب أن تطلعه على الحقيقة. قال: ليس هذا من شأنى ولكنى أقول لكِ إنك إذا لم تغيرى ملابسك فلا تلومن إلا نفسك وسينفيك السلطان إلى مالطه ولا يستطيع أحد أن يعارضه فى ذلك. قلت: أأنفى لأنى ألبس ملابسى التى اعتدت أن ألبسها طول حياتى؟ قال: نعم سيكون ذلك، وأنتِ وحدك المسئولة عنه. قلت: لست آسفة يا مستر دانلوب فإن بلداً تنفى الناس لا لسبب سوى أنهم يلبسون ملابسهم لا يأسف الإنسان على الخروج منها لا إلى مالطه فحسب بل إلى جهنم إن شاء الله، لأنى لا أظن أن فى جهنم يعاقب الناس على ملابسهم.

قال: إذن أنت تصرين على لبس ملابسك هذه أمام عظمة السلطان. قلت: نعم وأمنعك منعاً باتاً أن تحدثنى فى أشياء شخصية لا علاقة لها بالعمل فأنتم الإنجليز تعرفون مقدار الحرية الشخصية ولا تسمحون لأحد أن ينتقد شخصيات غيره ولهذا فإن لك أن تنتقد أعمالى أما ملابسى فلست أسمح لك بالكلام فيها، قال: إذن هذا حد بيننا ولست مسئولاً عما يصيبك بل أنتِ المسئولة شخصياً عن تصرفاتك.

قلت: إنى شخص كامل يا مستر دانلوب وكل شخص بالطبع مسئول عن تصرفاته، فتركنى وخرج، وقد كادت الدموع تتساقط من عينى لولا مسكة من الجلد كانت تمنعنى من أن أظهر ما يشمت الأعداء بى.

وتجلدى للشامتين أريهم

أنى لا ريب الدهر لا أتضعضع

بقيت طيلة يومى غارقة فى أفكار لا حد لها ولا نهاية.

وفى اليوم التالى زار المدرسة المرحوم الشيخ شريف المفتش بوزارة المعارف ودخل مكتبى فلم يحيينى مع أنه كان يعرفنى أيام كنت ناظرة لمدرسة المنصورة وكان يحيينى تحية طيبة ولكنه لما بلغه أن الإنجليز ضدى أو أنى أنا ضد الإنجليز كيفما يريد القارئ فقد أخذ يتجنى علىَّ ولم يحينى ولم يكفه ذلك بل قال لى بصوت ملؤه التأنيب: لِمَ لَمْ تحيينى عند دخولى؟ فنظرت إليه مندهشة وقلت له: إنك أنت القادم وكان الواجب

عليك أن تحيينى. قال: ألم يبلغك أنى آت لعمل (البروفة) لزيارة عظمة السلطان؟ قلت: بلغنى ذلك. قال: فلِمَ لَمْ تحيينى تحية السلطان؟ قلت: لا أعلم انك السلطان.

قال: سأخرج ثم أعود لتحييني تحية السلطان. قلت: لم أعتد تمثيل الروايات المحزنة أو المضحكة أمام طالباتى فأنت تخرج وتعود ليحييك الطالبات أما انا فسأظل ساكتة. قال: وما هى التحية التى ستحيين بها عظمة السلطان؟ قلت: التحية التركية يا سيدى لأن عظمته تركى الأصل ومن الذوق أن نحييه تحية بلاده. قال: ولكنى أريد أن تحييه تحية العرب فهل تعرفين ما هى؟ قلت: كلا لأن العرب لم يكن لديهم سينما لنعرف تحيتهم. قال: ألم تزورى بلاد الصعيد؟ قلت: لا. لم أتشرف.

قال: هناك يحيون تحية العرب وهى هكذا: "وضرب بيده اليمنى جانبه الأيسر حتى خيل إليه أنه أصيب بطلق نارى فى ذلك الجنب فمال عليه" وقال: هل لكِ أن تجربى هذه التحية؟ قلت: كلا يا سيدى سأحييه التحية التركية، قلت ذلك وملت فى وقفتى على منصة المعلم فى شىء من السخرية وكان بجانبه الغمراوى بك المفتش فى وزارة المعارف أيضاً، وكان المرحوم الشيخ شريف يعرف اللغة الفرنسية أما الغمراوى فيعرف الإنجليزية، وفى تلك اللحظة دخلت ناظرة المدرسة ونظرت إلىَّ وأنا أقف تلك الوقفة التى تدل على عدم الاهتمام. قالت: أتقفين هكذا أمام السلطان؟ قلت: كلا سأقف هكذا "وملت قليلاً عما كنت" فلم تجبنى وخرجت مسرعة من الغرفة. فلما رأى ذلك الشيخ الغمراوى وفهم ما دار بينى وبين الناظرة أخذ الشيخ شريف من يده وقال له هيا بنا، ما لنا وللسيدة نبوية.

طلب بعد ذلك الشيخ شريف مذكرة الدرس الذى سألقيه أمام عظمة السلطان فقلت: إنى لم أعدها وسأعدها فى يوم إلقاء الدرس كعادتى فى باقى دروسى، قال: ولكنى أريد الإطلاع عليها. قلت: لست بالطفلة لتعلمنى أنت فإن كان فىَّ الكفاية للتدريس أمام عظمة السلطان تشرفت بالقيام به وإن لم يكن كان عليكم أن تمنعونى من التدريس أمام عظمته أما أن تعلمنى الدرس قبل إلقائه فهى سخرية لا أرضاها للمعلمات، ووقفت ساكتة وكنت فى الفصل ألقى درس، قال: ألا ترغبين فى التدريس أمامى؟ قلت: قد انتهى درس اليوم، قال: هل هناك مانع من أن تلقى الدرس الذى

ستلقينه أمام عظمة السلطان. قلت: درس السلطان سألقيه أمام عظمته ودرس اليوم قد انتهى.

ومرة أخرى سحبه الأستاذ الغمراوى بك من يده وخرج به.

ذهبت إلى غرفتى بعد ذلك وقد اسودت الدنيا فى عينى وتأكدت أنى واقعة فى كيدهم لا مفر لى منه ثم فكرت قليلاً وكنت أعرف المغفور له سعيد باشا ذو الفقار كبير أمناء صاحب العظمة المغفور له السلطان حسين فرأيت من الواجب أن أكتب له وأطلعه على جلية الأمر فقلت له فى خطابى "إنك قد رأيتنى فى المنصورة وتعلم أن ملبسى الرسمى هو السواد كنت ألبسه فى زمن سمو الخديوى السابق ولا أزال ألبسه إلى الآن فى هذا الزمن السعيد الذى يتولى الحكم فيه أكثر الناس وطنية وإخلاصاً للبلاد، ولكنهم يتهموننى بالسياسة ظلماً ويريدون ضربى لا بأيديهم بل بيد أبى الفلاح" وما كاد عظمة السلطان يقرأ الخطاب حتى أمر باستدعائى إلى السراى وعندما سلمت عليه وأخبرته القصة بحذافيرها قال لا تخشى أحداً منهم، وسأدافع عنك بكل ما أستطيع.

لم أخبر أحداً باتصالى بالسراى ولا بما تم لى مع عظمة السلطان بل خرجت مدعية الذهاب إلى منزلى ثم عدت من الخارج مثل ما كنت قبل خروجى لا سرور ولا ابتهاج فلم يلاحظوا علىَّ أى تغيير وقد بيتوا نيتهم على تحريض السلطان ضدى ونَفْىّ إلى مالطه ثم تعيين شيخ وكيلاً للمدرسة بدلاً منى، وهكذا يريد الله دائماً أن أحل محل الشيخ أو يحل الشيخ محلى كأننى من الفقهاء.

أخطأ سادتنا فى اختيار الأستاذ الذى أرادوا أن يحل محلى اختاروا شيخاً لم يخلق فى حياته للتعليم ولست أنكر أنه كان عالماً متضلعاً فى اللغة العربية ولكنه لم يكن معلماً بل كان من يصغى إليه وهو يلقى الدرس يظن أن هناك مشاجرة يجب أن يستدعى لها البوليس فهو يلقى بصوت جهورى يخترق الحوائط ولا تصغى إلى ذلك الصوت طالباته بل يلعبن ويمرحن كأن كلاً منهم لا يرى صاحبه. وكان فضلاً عن هذا غير منظم فى ملابسه يعشش العنكبوت فى أجزاء جبته وهو لا يشعر به وكان بحسب وظيفتى يجب أن أكون آخر معلمة يزورها السلطان ولكنهم نظروا إلى ما سيكون فوضعوا ذلك الأستاذ بعدى.

وشـرف عظمـة السلطان المدرسـة وأخذوا يروون له الأقاصيص عن نبـوية مـوسى وكراهيتها للحكم الحاضر وكان عظمته يسمع هذا ليلقى به فى الهواء دون أن يقول شيئاً وزار جميع الفصول فتألم من شكل التحية التى كانوا يحيونه بها فقد كانت المعلمة أو المعلم يقف على المنصة وهى ترتفع عن أرض الحجرة بنحو ٤٠ سنتيمتراً حتى إذا دخل عظمته الغرفة حياه بضربة قوية من يده اليمنى على جانبه الأيسر يتفزع منها عظمته خصوصاً وهى تأتى من فوق رأس عظمته وكان رحمه الله قصير القامة فكان حتى المعلم الذى لا يزيد عنه فى الطول يزيد عنه بارتفاع المنصة، تضايق السلطان من تلك التحية المؤلمة وأظهر مضايقته ولكنه لم يكن فى الإمكان تغييرها ودخل السلطان أخيراً الفرقة التى كنت أدرس بها ويظهر أنهم قالوا له: إن المدرسة هنا نبوية ولكنه اخطأ السمع فظنها "نبيهة" فدخل الفرقة يقول "سعيدة، يا ست نبيهة" ولكنه ما كاد يقع نظره علىَّ وأنا أحييه التحية التركية لا من فوق المنصة كما فعلوا بل من أسفلها ما كاد يقع بصره علىَّ حتى قال "أهلاً ست نبوية" ووضع يده اليسرى تحت يدى ليمنعها من الوصول إلى الأرض ثم حيانى باليد اليمنى يداً بيد ولم يفعل ذلك مع غيرى لأنه غير ممكن.

ودهش جناب المستشار كما دهشت حضرة الناظرة لأن السلام كان يدل على أن كلاً منا يعرف الآخر وألقيت الدرس أمام عظمته فسر منه كثيراً وفى نهايته نظر إلى المستر دانلوب وقال: ما الذى يمنع تلك السيدة من أن تكون ناظرة لتلك المدرسة.

وبهت المستر دانلوب ولم يحر جواباً واحمر وجه الناظرة ولكنها لم تقل شيئاً وخرجوا من غرفتى إلى غرفة الأستاذ المختار لوكالة المدرسة وكان طويل القامة جداً وقد وقف على المنصة فكاد يصل إلى سقف الغرفة وضرب بيده اليمنى جانبه الأيسر صارخاً قيام. فقفز السلطان متراً من هول تلك المفاجاة وكادت يد المدرس تصل إلى طربوش السلطان فلم يقف السلطان فى الغرفة ولم يسمع كلمة من الدرس غير تلك الكلمة المشئومة "قيام" ثم ذهب إلى غرفة الناظرة واقسم لا يبرح المدرسة حتى ينقل منها ذلك المعلم الفظ لأنه أزعجه هو وهو رجل فما بال الطالبات وهن من الجنس الرقيق، وهكذا كتب خطاب نقله أمام عظمة السلطان ولم يعد الأستاذ للمدرسة مرة أخرى.

قد يظن القارئ أنى حرضت عظمة السلطان عليه حتى تم له ما تم، ولكنى أشهد الله أنى لم أذكره لعظمة السلطان لأنى كنت أريد أن يحمينى عظمته من ضرباتهم لا أن يضرب غيرى.

وبعد مبارحة عظمته المدرسة جاءتنى الناظرة فقالت فى شىء من الدعابة: ما الذى أعجبه من درسك؟ لقد كنت سواد فى سواد؟

قلت: لعلك عرفت من هذا أنى أستطيع أن أرضى أبناء بلدى. قالت: إنه قد أخطأ فى تقديرك. قلت: من منا التى تنفى إلى مالطه؟ التى كانت تلبس ملابسها أم التى تقول على السلطان مثل هذا القول؟ قالت: على رسلك فهو لا يستطيع أن ينفينى.

وقد أهدانى عظمته ساعة يد من الماس بسوار ذهبى كما أهدى بعض المعلمات أشياء أخرى أقل من الساعة قيمة.

إيقاف الاضطهاد

إلى تحسين الفرص

وضعت زيارة المغفور له السلطان حسين لمدرسة معلمات بولاق حداً لاضطهادى فلم أعد بعدها مضطهدة بل تركت وشأنى ولكنى لم أكن أعمل بالمعنى الصحيح لأنى لم أكن معلمة ولا ناظرة بل كنت شيئاً بين الوظيفتين وهذا الشيء لا عمل له فى الغالب وهو ما يسمى بوكيلة المدرسة. تضايقت من هذه الحالة وأردت أن ابحث عن عمل آخر مهما كان أستعيد فيه نشاطى وجدى حتى انى رجوتهم أن أكون ناظرة لمدرسة أولية وهى وظيفة لا تتناسب والمرتب الذى كنت أتقاضاه. ولكن كنت أراها أفضل من العطل. لأنى أستطيع فيها أن أعمل وأن أصلح المدرسة دون أن يعارضنى أحد فى ذلك الإصلاح وكانت فى نظرى على حد المثل الإنجليزى (كن رأس كلب ولا تكن ذنب أسد) ولكنهم أبوا على حتي تلك الوظيفة المتواضعة وأخيراً عولت على ترك العمل فى الوزارة فكتبت إلى مستشار المعارف المرحوم المستر دانلوب خطاباً باللغة الإنجليزية أقول فيه ما نصه:

أريد يا جناب المستشار أن أصارحك بما يجول فى نفسى ولكنى أخشى إن فعلت ذلك أن تظن أنى متهوسة لا أقدر مالك من السلطة والسلطان وأنا لذلك أقول لك إنى أعرف جيداً أنك مستشار وزارة المعارف أى وزيرها الفعلى وأن فى استطاعتك أن تفصلنى من عملى بلا ذنب ولا يستطيع أحد أن يناقشك فى ذلك بل أنت أقوى من ذلك فإنك تستطيع أن تمنعنى من التوظف فى جميع مجالس المديريات بل أنت تستطيع بمساعدة أنصارك الكثيرين أن تمنعنى من أي عمل حر مهما كان وأنت فوق هذا وذاك الرجل الإنجليزى النافذ الكلمة وفى البلد أحكام عرفية فأنت تستطيع التخلص من حياتى بكلمة تخرج من فيك.

إذاً أنا أعرف مقدارك تماماً ولكنى أريد أن أسدى إليك معروفاً بأن أطلعك على ما يقال فى غيبتك والرجل القوى العظيم لا يعرف ما يقال عنه وقد يفيده ذلك لو عرفه

فانا أقول لك مع شدة احترامى لشخصك إنى إذا دخلت غرفة نومى وأغلقت نوافذها وأبوابها ووثقت أن أحداً لا يسمعنى من خلق الله قلت فيك ما يأتى:

إن هذا المستشار أشر من الألمان لأن أولئك الألمان يغتصبون حق محارب أما هو فيغتصب حق مسالم وقد اغتصب حقى بعد أن وثقت به وسلمته إليه.

دخلت هذه المدرسة فوجدت أن كل من بها لا نصيب لهم من الأخلاق الحقيقية فهم لا يعملون حباً فى العمل بل يعملون رغبة فى الوصول إلى المرتب الذى هو فى نظرهم كل شىء فعجبت كيف اجتمعت تلك الفئة واتفقت على احتقار الأخلاق ونبذها ظهرياً. أما أنا فقد كنت أعمل لحب العمل ولكنى ما كدت أعمل فى هذه المدرسة ستة شهور حتى أصبحت كزملائي لا أعمل إلا لتناول الأجر فأين ذهبت أخلاقى إذن؟ ومن هو يا ترى سارقها؟ إنه هو ذلك المستشار الذى سلب غيرى من الناس أخلاقهم ثم سلب بعد ذلك أخلاقى أنا شخصياً، إنه شر من اللص لأن اللص يسرق أموالاً تذهب وتأتى أما هو فيسرق أخلاقاً وهى إذا ذهبت لن تعود. وإنى لهذا أقول لك بصراحة تامة إنى أريد أن أسترد أخلاقى فاعتبر هذا الخطاب استقالة منى من أول الشهر الآتى.

وتفضل بقبول شكرى واحترامى.

استلم جنابه الخطاب وكان يعلم أن عظمة المغفور له السلطان حسين لا يرضى بخروجى من العمل مهما كانت الظروف فلم يستطع أن يقبل استقالتى بل فكر فى إزالة ما أشكو منه وهو منعى من السلطة فى العمل فعيننى ناظرة لمدرسة معلمات الورديان ويظهر أنه أراد أن يحفظ لنفسه خط الرجعة فكتب خطاب تعيينى بالصيغة الآتية تقريباً:

حضرة المحترمة الفاضلة السيدة نبوية موسى وكيلة مدرسة معلمات بولاق:

بما أنك برهنت فى مدة قيامك بعمل وكيلة لمدرسة معلمات بولاق أنك لا تصلحين لهذا العمل وقد طلبت مراراً تعيينك ناظرة لمدرسة ولو أولية وقد رأت الوزارة تجربتك فى وظيفة رئيسية فعينتك ناظرة لمدرسة معلمات الورديان. وإنى أترك للقارئ التعقيب على هذا الخطاب العجيب الذى يقول إن التى لا تصلح وكيلة لمدرسة معلمات أولية تعين ناظرة لمدرسة مثلها وهو بالطبع منطق لا يستطيع أحد أن يفهمه.

حصل هذا فى الوزارة ولم أكن أعرفه وفى آخر يوم من الشهر وأنا أستعد لمبارحة المدرسة تنفيذاً لاستقالتى حضر إلى مكتب الناظرة المرحوم مفربى باشا واستدعانى ثم أخذ يؤنبنى كيف أرسل إلى الوزارة خطاباً دون أن أطلع عليه الناظرة وقانون المدارس يقضى أن لايرسل أحد من موظفيها خطاباً إلى الوزارة إلا بواسطة ناظرة المدرسة وانضمت إليه الناظرة فى ذلك التأنيب فقلت إنى لم أرسل للمستر دانلوب شكوى من المدرسة أو من تصرفات ناظرتها حتى يجب على أن أطلعها عليه بل أنا أشكو منه هو شخصياً لأنه هو الذى نقلنى من المنصورة إلى هنا دون أن يستشير حضرة الناظرة فى ذلك فهو خطاب شخصى له. قال المغفور له مفربى باشا ومن أنت حتى تكتبى إلى جناب المستشار خطاباً شخصياً. قلت أنا حرة فى تصرفاتى أستطيع أن أكاتب حتى الملوك إذا شئت ولهم هم أن يردوا على أو أن يهملوا ذلك فإذا رأى جنابه أنى لست ممن يصغى جنابه إلى أقواله كان له أن يلقى بذلك الخطاب فى سلة المهملات ولا يعيره أى التفات ولكن يظهر لى أنه قرأه كما يظهر لى من كلام سعادتكم وأنكم حضرتم لتسلمونى خطاب قبول الاستقالة فضحك المرحوم ضحكته الحلوة وقال لقد جئت لأسلمك خطاب تعيينك ناظرة لمدرسة معلمات الورديان وعليك أن تذهبى غداً إلى مقر وظيفتك الجديدة وأن ترسلى إلى جناب المستشار خطاباً تعتذرين له فيه عن خطابك هذا. قلت نعم سأرسل إليه ذلك ولو استطعت لكتبته قصيدة مدح مطولة فأرجوك أن تحمل إليه تحيتى واعتذارى ثم كتبت إلى جناب المستشار خطاباً آخر أقول له فيه لقد أسأت التعبير فى خطابى السابق ولكنى مع تلك الإساءة قد فعلت خيراً فقد أظهرت بذلك الخطاب صفاتك النادرة التى قل أن توجد فى رئيس غيرك فأنت مع قوتك وسلطانك لم ترد أن تعاقبنى على سوء تعبيرى بل رددت إلى حقى كاملاً وأظهرت بالعمل لا بالقول أنى أسأت الظن بك ظلماً وأنك برئ مما نسبته إليك ولولا خطابى هذا لما ظهرت فيك تلك المواهب السامية ولا ظهر للناس خطأى فيما ذهبت إليه من اتهامك ظلماً أو جهلاً بصفاتك النادرة فاقبل اعتذارى وشكرى والسلام عليك.

تسلمت عملى فى مدرسة معلمات الورديان ومع أن مرتبى لم يزد ولم تتغير درجتى فى شىء ما فقد سررت بتلك الوظيفة سروراً عظيماً ولم أعبأ بصيغة خطاب التعيين

بل تركته على مكتبى وزارنى المرحوم الكيلانى بك وكان مفتش التعليم الأولى بالإسكندرية فلما وقع بصره على الخطاب قال يجب أن تخفى هذا عن أعين الناس قلت وما فيه حتى أخفيه وما الذى يضيرنى منه من ظهوره إن وزارة تعين ناظرة فى مدرسة معلمات لأنها لم تصلح وكيلة لمدرسة معلمات أخرى فهى التى يجب أن تخجل من مثل هذا الهذيان الذى شاعت أن تتحف الناس به، فضحك وقال صدقت.

زارنى بعد ذلك مباشرة جناب المرحوم المستر دانلوب ومعه المرحوم كيلانى بك وعلمت من تلك الزيارة السريعة أنه يريد أن ينتقم لنفسه فيشتمنى كما شتمته وقد صممت أن اترك له هذا الحق دون أن أعارضه فيه وما دمت قد شتمت ذلك الرجل العظيم فمن العدل أن يشتمنى هو دون أن أعارضه فى ذلك وهكذا سرت معه على تلك النية وكانت المدرسة تسكن منزلاً قديماً من منازل الوقف وكان المنزل عجيباً فى ترتيب غرفه فلم يكن به صالات ولكن كان به غرف صغيرة يتداخل بعضها فى بعض فلم تكن تصل إلى غرفة حتى تمر داخل أبواب كثيرة متعددة وكانت تلك الأبواب قديمة بالية وليس فيها شناكل تثبتها إلى الحائط المجاور فوقف جنابه أمام أول باب وقال لى إن التعليم فى مدرستك لا فائدة منه ولا خير فيه ما دمت تهملين مثل تلك التفاصيل قلت ولكنى لم أستأجر المنزل ولا يسمح لى بالذهاب إلى وزارة الأوقاف لأطلب منهم ذلك الإصلاح بل إن حضرة المفتش الحاضر هو المسئول عن ذلك، قال كلا أنت المسئولة عن كل شىء هنا وأنت المخطئة المهملة فسكت لأنى قد صممت أن أنفذ ما أراده هو من منهج الشتائم ولكن بعد أن ولجنا أربعة أبواب وهو يخطب عند كل باب منها لم أجد بداً من أن أبتسم لتلك الخطب وكان كلما وقفنا بباب وابتدأ يؤنب يسرع المرحوم كيلانى بك إلى تزرير جاكتته استعداداً لسماع الخطابة فلما قربنا من الباب السادس نظرت إلى المرحوم كيلانى بك وقلت استعد لتزرير الجاكته فإن الباب الآتى لاشناكل فيه. ودخلنا بعد ذلك فصلاً من فصول الدراسة وقد تضايق جناب المستشار من ابتسامى فأراد أن يوبخنى بطريقة غير مباشرة فنظر فرأى طالبة تبتسم فقال يجب أن تؤنبى هذه الطالبة على ضحكها بدون سبب لأن هذا سوء أدب منها وفهمت ما أراده فأخذت أوبخ الطالبة على ضحكها بلا سبب وأنا نفسى أضحك بلا سبب وكان منظرى أمام جناب

المستشار مثيراً للاستغراق فى الضحك فاضطر المرحوم كيلانى بك أن يضحك عند خروجنا من الغرفة فنظر إليه المستشار بحدة وقال له (هل فى وجهى أرجوز يضحكك؟) فزرر المرحوم جاكتته مرة أخرى وبعد أن سارالمستشار وسرنا فى إثره قال لى همساً (وانت ما انت عماله تضحكى من الصبح؟). قلت: (الناس مقامات يا أفندم) دخلنا بعد ذلك فصلاً آخر كان المعلم يلقى فيه درس إملاء فنظر جنابه إلى كراسات الطالبات فوجدهن قد بيضن الموضوع السابق فنظر إلى شذراً وقال لا أريد أن تبيض الطالبات موضوعات الإملاء فهل سمعت؟ قلت: ولكنى أريد ذلك لأن هذه الموضوعات الإملائية قطع أدبية مختارة أريد أن تقرأها التلميذات مراراً ولا سبيل إلى ذلك إلا بتبييضها فهن يستفدن من ذلك فائدة مزدوجة فيتعلمن منه أدب اللغة ويعتدن حسن التنسيق فى الكتابة لأنى أحتم عليهن العناية بتحسين الخط فى التبييض قال ولكنى لا أوافق على ذلك وأنا مستشار المعارف. قلت: نعم إنك مستشار المعارف ولكن تلك الصفة لا تؤهلك للتدخل فى هذا فأنت أرقى منه وعملك ينحصر فى أمرين أن ترضى عن عملى فتبقينى فيه أو تسخط فتمنعنى منه أما أن تقوم أنت بأعمال الناظرة فليس هذا من الحزم فى شىء فنظر إلى فى دهشة ثم تحول عنى إلى الجانب الآخر من الغرفة وتبعه المحوم كيلانى بك وقال له يجب أن تقنعها بعدم تبييض الإملاء ولم أشأ أن أرد عليه فى ذلك وقد تفقد جميع غرف المدرسة فسر من نظافتها ونظامها وشد على يدى عند خروجه قائلاً أهنئك. وهكذا كان الرجل عادلاً لا يغريه سلطانه. وفى اليوم الثانى جاءنى المرحوم كيلانى بك وقال لى جئت لأقنعك بعدم تبييض الإملاء. قلت : إن الأمر الذى لم يستطعه المستشار لا يستطيعه أحد فى الوزارة فلا تتعب نفسك فيما لا يجدى.

سوء حظ

نقلت من مجلس مديرية الدقهلية فى المنصورة إلى وزارة المعارف بعد أن وقع بينى وبين المدير حوادث مر بنا ذكرها وقد زارنى حضرة صاحب العظمة المغفور له السلطان حسين بمدرسة معلمات بولاق وأنا وكيلة لها فأيدنى تأييداً عظيماً كما مر بنا ذكره وكان شديد الثقة بى وبنجاحى ثم زار بعد ذلك عواصم المديريات ومن بينها المنصورة وكانت حوادثى مع مديرها لا تزال ماثلة أمام أنظار أعيان الدقهلية ودعا سعادة المدير الأعيان لتناول العشاء مع عظمته وقد جلس هو على يمين عظمته على مائدة العشاء وأخذ عظمته يروى قصتى ويقول إن المعارف أرادت غبنى وأن عظمته تشبث بترقيتى وعيننى ناظرة لمدرسة معلمات الورديان وأنى فى نظره أكفأ ناظرة وأن أعمالى تسير على غاية ما يرام وكان عظمته يقول ذلك وهو يتحدث إلى المدير فيضطر سعادة المدير أن يوافق على كلامه وأن يقول له نعم يا أفندم هى كذلك وأخذ الأعيان ينظر أحدهم إلى الآخر مندهشاً لما يسمع حتى كان أحدهم يهمس فى أذن جاره على المائدة قائلاً لقد وقفت اللقمة فى زور المدير من الخجل والارتباك فقال لقد درَّسَتْ أمامى درساً عندما كانت وكيلة لبولاق فكان أحسن درس سمعته وهى فى نظرى تقدر بعشرة رجال وهى قديرة على أعمالها متوقدة الذكاء سريعة الخاطر هذا فضلاً عن كمالها واستقامتها فهى من رجال مصر القلائل كل ذلك والمدير المسكين مضطر أن يرد عليه من وقت لآخر بقوله نعم يا أفندم وكثر تهامس الأعيان فيما بينهم فى ارتباك المدير وقلقه وانتهى الحديث على تلك المائدة على أسوأ ما يكون وقال ظريف منهم ما كاد المسكين يرتاح من تلك السيدة حتى أقلقه ذكرها فكأنما خلقت لإزعاجه. وكان بعضهم يكره المدير فأخذ يتغنى بذلك الحديث ويكرر ما قاله عظمة السلطان مظهراً بذلك خطأ المدير وغطرسته وكان لذلك الحديث صدى فى نوادى المنصورة فقد ذكر الناس بتلك الليلة المشهورة التى ألقت فيها التلميذة قصيدتى أمام سمو الخديوى السابق وهى

القصيدة التى شُتِمَ فيها المدير بأسلوب ملتو غريب لم يستطع معه إثبات الشتائم التى وجهت إليه والتى دلت عليها إشارات التلميذة وهكذا كانت تلك الليلة من ليالى المدير السود.

أما أنا فقد بليت فى وزارة المعارف بأظلم من ذلك المدير وشاء سوء حظى أنا الأخرى أن يزورنى فى مدرستى مفتش إنجليزى كان مشهوراً بغطرسته وحبه لإساءة الموظفين وكنت عند زيارته أتفقد طالبات مدرسة المعلمات فى صفوف الصباح استعداداً لدخول الدروس وكانت مدرسة المعلمات تقف فى جانب من الفناء وتقف تلميذات الملحق أو المدرسة الأولية التابعة لها الجانب الآخر فوقف المفتش بين المدرستين فى وسط الفناء ولم أكن رأيته فى حياتى فلما انتهيت من تفقد طالبات مدرسة المعلمات واتجهت إلى جهة الملحق اعترضنى هو فى وسط الطريق فقال لى بشدة دون أن يحيينى إنك متأخرة فنظرت له بدهشة وقلت ومن أنت أولاً قال: أنا فلان المفتش بوزارة المعارف قلت إنى أسير حسب ساعتى وساعة المدرسة قال إن ساعتك متأخرة، قلت لا بأس، قلت ذلك بعد أن وليته ظهرى وسرت نحو صفوف الملحق فاشتد غيظه وعز عليه أن لا أقف لسماع تأنيبه فقال لى بإشارة احتقار من سبابته إنى أكلمك. قلت أعلم ذلك كما أعلم أن أمامى تلميذات قد تأخرن عن ميعاد درسهن حسب رأيك ولا بد أن أصرفهن قبل أن أتفرغ لمحادثتك. قلت ذلك وأنا لا أزال فى طريقى وتفقدت تلميذات الملحق حسب عادتى ثم انصرفن إلى فرقهن وبقى هو واجماً وسط الفناء.

وقد مررت به فى طريقى إلى مكتبى فلم ألتفت إليه فاضطر أن يتبعنى وهو يقول أنا هنا يا سيدة نبوية. قلت: أعلم ذلك. قال: إنى أريد أن أزور المدرسة. قلت: إن المدرسة أمام جنابك تفعل بها ما تريد. قال: أود أن تصحبينى. قلت: حسناً وسرت إلى جانبه فنظر إلىَّ متعجباً وقال: أليس من العجيب أن تكون ساعتك متأخرة عن ساعتى؟ قلت: وما وجه العجب فى ذلك وأنا لم أرك فى حياتى ولم أضبط ساعتى على ساعتك. قال: وما الذى ستفعلينه اليوم بعد أن علمت أن ساعتك متأخرة؟ قلت: لا شىء أفرض أنى لم أرك وأسير حسب ساعتى إلى أن تنتهى دروس الصباح ثم أضبطها بعد ذلك

لأنى لو ضبطتها الآن لقلَّ وقت الحصة الأولى خمس دقائق وهذا ما لا أريده أما إذا سرت كما أنا فقد دخلت التلميذات الدرس بعد تأخر خمس دقائق ثم ينتهين منه بعد تأخر خمس دقائق أيضاً ولا ضرر فى ذلك.

غاظه كلامى وأراد أن ينتقم منى فأراد أن يتفقد نظافة المدرسة قبل أن يتفقد الدروس لاعتقاده أن المصريين لا يعنون بالنظافة. ودخلنا مطبخ المدرسة فأدهشته نظافته ووقف حائراً لا يدرى ماذا يفعل ثم تفقد كل شىء فيه بدقة وأخيراً أخذ يشم حوائطه بأنفه وكان الرجل طويل الأنف وقد ضايقنى ذلك منه فقلت له: أتريد يا مستر فلان أن تكنس حوائط مطبخى بأنفك وهل إذا فعلت ذلك فى كل غرفة تدخلها أجد من وقتى متسعاً للسير معك؟ إن لدى أعمالاً أريد إنجازها فإلى اللقاء! قلت ذلك وتركته فتبعنى مسرعاً وهو يقول: تمهلى إنى أريد أن أزور المدرسة بحضورك. فسرت معه وأخذ فى أثناء سيره يقول لى بمناسبة أو بغير مناسبة نحن الإنجليز وكان يلبس طربوشاً مصرياً فقلت له: وما بالك بنا نحن المصريين ألسنا خلقاً مثلكم؟ إنك تلبس طربوشاً مصرياً دلالة على أنك موظف مصرى أو على الأقل لتحمل الناظر إليك على الاعتقاد بأنك موظف مصرى فما بالك تذكرنى من وقت لآخر بأنك إنجليزى الأصل؟ اخلع إذاً هذا الطربوش والبس قبعتك الحقيقية ودع ذلك الرياء فى الملبس.

انتهت الزيارة بمثل ما ابتدأت به من سوء تفاهم يتفاقم كلما خطونا خطوة وكتبت لجناب المستشار خطاباً أشكو إليه فيه من تصرف المفتش وقلت له إن المفتش فى تفتيشه يجب أن يكون قدوة حسنة يحتذى بها النظار وإذا كان مفتشك الإنجليزى على حدة بصره لا يستطيع أن يرى القذارة على حوائط مطبخى إلا على بعد أنفه من تلك الحوائط فكيف أستطيع أنا أن أرى تلك القذارة مع قصر نظرى؟ هل ينتظر منى أن أجدع أنفى لاضع حبة عينى على الحائط وأرى القذارة التى رآها مفتشك على بعد أنفه؟ الحق يقال إنه متعنت وإنى أفضل أن أضرب بالسياط عن أن أرى وجهه مرة أخرى.

ويظهر أن جناب المستشار استدعى المفتش فدافع عن نفسه دفاعاً لا يتفق مع الحقيقة بل كان ملؤه الكذب والخداع وكانت زيارة المفتش فى يوم سبت وأراد المرحوم أن

يتحقق من صحة قول المفتش فزار المدرسة مفاجأة يوم الخميس ومعه مسز الجود وكانت سيدة إنجليزية طيبة القلب شريفة المبدأ ففتشت المدرسة تفتيشاً دقيقاً حتى أنها تفقدت ملابس الطالبات الداخلية وسرت سروراً عظيماً من نظافة المدرسة ونظامها وأخبرت جناب المستشار بما رأت فهنأنى عند خروجه من المدرسة باجتهادى ونظافة مدرستى ثم طلب من المفتش السابق أن لا يزور المدرسة مرة أخرى. وهكذا كان المستشار عادلاً بالرغم من كثرة الدسائس التى كانت تحاك لى عنده.

زيادة عدو
إلى قائمة أعدائى

دافعت عن كرامتى أمام ذلك المفتش الإنجليزى ومن يدافع عن كرامته يعاده الكبراء والرؤساء. ولهذا انضم ذلك المفتش إلى قائمة أعدائى وكان أشدهم خطراً على خصوصاً بعد أن خذله جناب المستشار وأمره بعدم زيارة مدرستى.

وفى صيف هذا العام طلبت من الوزارة أن تصرح لى بفتح فصل جديد فى المدرسة الملحقة بمدرسة المعلمات.

وكان النظام فى المدارس الأولية أن يديرها مفتش التعليم الأولى بالإسكندرية، فنظار المدارس وناظراتها يعرضون عليه ما يريدون عمله وهو الذى يخاطب الوزارة فى شأنهم أما المدرسة الملحقة بمدرسة المعلمات فقد كانت تتبع إدارة مدرسة المعلمات ولناظراتها الحق فى الاتصال بالوزارة فيما تريده من الأعمال سواء أكان يتعلق بمدرسة المعلمات أم بالمدرسة الأولية الملحقة لها واطلع المفتش الإنجليزى على خطابى الذى أرسلته إلى الوزارة فى طلب فتح فصل، ووجد فى ذلك فرصة سانحة لإذلالى ومساواتى بنظار المدارس الأولية فأرسل خطابى إلى مفتش التعليم الأولى بالإسكندرية ولما كان عزته فى إجازة استلمه أحد المفتشين الذين تحت سلطته وقد طلب المفتش الإنجليزى أن يزور المدرسة وأن يعطى رأيه الخاص فى فتح الفصل أو عدم فتحه دون أن يعبأ برأى الناظرة.

جاءنى ذلك المفتش وكان شيخاً وهو فى درجة أقل من درجة معلمى مدرستى. جاءنى فى زهو وكبرياء وألقى إلى بخطاب المفتش الإنجليزى وطلب منى أن أطوف المدرسة معه ليستطيع أن يعطى رأيه فى فتح الفصل.

أدهشتنى تلك المفاجأة التى لم أكن أنتظرها ثم نظرت إلى الرجل فى شىء من الهدوء، وقلت له: إنك لا تعرفنى كما أنى لا أعرفك وليس بيننا ما يوجب أن يؤلم أحدنا الآخر وأنا أعتبر أن فى خطاب الوزارة هذا إهانة لى ولكنها إهانة لم تصدر منك وليس لك فيها ذنب ولهذا لا أريد أن أسيئ إليك فأرجو أن تشرب قهوتك كضيف مكرم ثم

ترسل إلى الوزارة فتقول لهم إن ناظرة مدرسة المعلمات رفضت مقابلتى وطردتنى من المدرسة. قال أوتريدين أن أكذب؟ قلت ليس فى ذلك كذب يا سيدى فأنا لا أسمح لك بالتدخل فى شأنى أو الإشراف على لأنك فى داخل مدرستى وإشرافك على إهانة ولكنك برئ من تلك الإهانة فى نظرى ولهذا لا أريد أن أسيئ إليك أو أطردك من عندى ولكنى أطلب منك أن تخبرهم أننى فعلت ذلك وغرضى من هذا أن أهينهم على سوء تصرفهم.

قال لا أستطيع أن أدعى ما لم يحصل قلت: حسن. ثم استدعيت الخادم وقلت له أخرج هذا الشيخ من هنا وكان الخادم قد سبق له التوظف فى المدارس الأولية ويعلم ما لهذا الشيخ من سلطة على ناظراتها والخادم لا يعرف الفرق بين ناظرة المعلمات وناظرة المدرسة الأولية ولهذا وقف مندهشاً ينظر إلى فى حيرة فقلت بغضب: قلت لك أخرج ذلك الشيخ وإلا فصلت من هنا وعند ذلك قام الشيخ وقال كفى سأذهب ولكنى أخشى أن يضر ذلك بمستقبلك قلت لا تخف شيئاً فأنا إذا خرجت من هذه المدرسة سأجد عملاً فى غيرها لأنى أستطيع أن أفتح مشغلاً للخياطة أو ما شاكل ذلك. ويجب أن تنظر أنت إلى مستقبلك فأنت إذا تركت الوزارة لا أظنك تجد عملاً فى غير مقارى المدافن.

قال وما أقول لهم إذاً؟ قلت سبحان الله العظيم يا رجل قل لهم الناظرة طردتنى ولم تقبل منى شيئاً فخرج وكتب إلى الوزارة خطاباً عجيباً كان إلى الغزل أقرب منه إلى الشكوى إذ قال فى خطابه ذلك، ذهبت إلى ناظرة مدرسة المعلمات وما زلت ألين لها فتشتد وأدنو فتبعد وأستميلها فتنفر وأحنو فتقسو. وهكذا من تلك المقابلات اللغوية الظريفة وأخيراً قال فى آخر خطابه: ثم قلت لها ماذا أقول للوزارة قالت (يا رجل قل لهم الناظرة طردتنى).

كان هذا الخطاب حديث كتبة الوزارة مدة شهر يجعلون منه سمراً حلواً للتفكهة، وكان جناب المستشار مسافراً فى إنجلترا لتمضية إجازته الصيفية فلم يستطيعوا أن يعملوا لى شيئاً.

فلما عاد من إجازته عرض عليه الخطاب وعرف منه أنه انتقام من ذلك المفتش فاستدعاه وقال لو ذهب هذا المفتش إلى مس مورسن ناظرة مدرسة معلمات بولاق فماذا كانت تصنع معه؟ قال لا شك أنها كانت تطرده قال المستشار: إذاً نبوية على حق

فى طرده. وكتب على الخطاب بالحفظ.

وعرض بعد ذلك على الوزير وكان المغفور له عدلى باشا يكن فقال مبتسماً عندما قرأ خطاب المفتش (الله يخيبه يعنى ملقاش يتغزل إلا فى نبوية موسى؟) ثم أشر عليه بالحبر بالحفظ.

مضى بعد ذلك عام وأقيمت لجنة امتحان كفاءة المعلمات فى مدرستى وتلك اللجنة لا شأن لناظرة المدرسة بها لأنها لجنة تقيمها وزارة المعارف لامتحان المعلمات النهائى ولا يجوز لناظرات مدارس المعلمات أن يتدخلن فيها أو يدنون منها ولهذا لم يكن يهمنى من شأنها شىء وكان رئيس اللجنة إذا زارنى فى مكتبى اعتبرته ضيفاً يجب إكرامه وقد عين رئيساً لها حضرة صاحب العزة أحمد بك العوامرى وعزته مهذب أديب حلو الحديث فكان يشرفنى من آن لآخر فى مكتبى فأرحب به كأكرم ضيف دخل ذلك المكتب.

وأسرة العوامرى بك من الإسكندرية وفجأة نكبت الأسرة الكريمة وتوفى والد العوامرى بك واضطر الرجل أن يرسل إلى الوزارة تلغرافاً يطلب منها تعيين غيره رئيساً لتلك اللجنة ليقوم بالعمل مقامه، ولم يكن لدى اللجنة إلا عمل يوم واحد فاضطرت الوزارة أن تعين ذلك الشيخ رئيساً لتلك اللجنة بدلاً من العوامرى بك وبلغنى هذا التعيين فلم أعبأ به ولم أهتم له لأن شأن تلك اللجنة لا يعنينى وكنت فى مكتبى وإذا بذلك الشيخ يدخله على فى شىء من التردد والاستحياء فقمت له ورحبت به لأنى أعتبره ضيفاً ودهش هو لذلك التغيير فى مقابلتى وجلس صامتاً ثم قال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه (والله عدية يسين سرها باتع). قلت وكيف ظهر لك هذا السر؟ قال فى مقابلتك لى لأنى لما عينت فى تلك اللجنة خشيت أن تقابلينى بمقابلتك السابقة فبت طول الليل أقرأ عدية يسين رجاء أن يهديك الله لى. فضحكت وقلت لا شأن للعدية فيما ترى من تغيرى فالفرق بعيد بين الموقفين لأنك فى موقفك الأول كنت تنفذ إهانة أرادت الوزارة أن توجهها إلى، أما اليوم فأنت رئيس لجنة لا علاقة لى بها فإذا دخلت مكتبى فأنت ضيف يجب على إكرامك والترحيب بمقدمك وهكذا فعلت، أما عدية يسين فلا شأن لها على ما أعلم فى تصرفى هذا فسر الرجل وبقى طيلة يومه يتردد على مكتبى فى تناول القهوة.

ضابطة فرنسية

منع ذلك المفتش الإنجليزى السالف الذكر من دخول مدرستى كما مر بنا فكان يتردد على كضيف ويقول لى إنه يحب مدرستى حباً جماً وإنه يود من صميم فؤاده أن يزورها وكان يرجو بذلك أن أظهر ميلى إلى زيارته لمدرستى أما أنا فكنت أجيبه على عكس ما يريد فأقول له وما الذى يعجبك فى مدرستى وليس فيها على رأيى شىء يغرى فبناؤها قديم وناظرتها كما تعلم أنت لا تسر الأذن ولا العين فكان يقول لى إنه يرى مدرستى على عكس ما أصفها أنا. وزارنى يوماً مع حضرة صاحب العزة المرحوم كيلانى بك مفتش التعليم الأولى بالإسكندرية فى ذلك الوقت، وبقيا يتحدثان فى مكتبى مدة فقال المفتش الإنجليزى أثناء حديثه مع المرحوم كيلانى بك: لقد غاظنى ذلك الناظر وكدت أضربه عندما عاينت العنكبوت يعشش فى بعض غرف مدرسته وأنت تعلم يا كيلانى بك أنى أنا المفتش الإخصائى للعنكبوت فضحكت أنا وقلت: لماذا تضربه ما دمت أنت المفتش الإخصائى للعنكبوت والرجل حريص على وجوده عنده ليجد لك عملاً فإن العنكبوت إذا زال من جميع المدارس وأنت الإخصائي فى التفتيش عليه أصبح لا معنى لوجودك فى الوزارة فأنت إذن مدين لأمثال هؤلاء النظار الذين يحتفظون لك بعملك المحبوب وهو التفتيش على العنكبوت وكان عليك متى عرفت ما أقوله أن تشكر الرجل لا أن تضربه، فضحك المفتش الإنجليزى وقال: سامحك الله لأنك دائماً مازحة طروبة.

وما زال يتودد إلى بمثل تلك الزيارات حتى لا أشكو إلى المستشار مرة أخرى وحتى يتمكن من زيارة مدرستى وفى النهاية تم له ما أراد وسمح له المستشار بزيارة مدرستى، وفى أول زيارة زارها للمدرسة بعد ذلك الغياب أخذ يطرينى ويلهج بمدحى ويمدح كل ما يراه، وبعد أن زار المدرسة وأعجب بها دخلنا درساً فى التربية العملية.

وكان درس انتقاد عام وألقت الطالبة درسها وقد جلس المعلمون وأنا فى وسطهم

وهو على يسارى، فوضع ساقاً على ساق وكنت فى ذلك الدرس دائماً أجلس جلسة أدبية حتى أكون مثالاً حسناً لطالباتى ولكن ذلك المفتش جلس إلى جانبى وقد وضع ساقاً على ساق فحاكيته فى جلستى على كره منى لذلك وأردت بذلك أن ألفته إلى ما يجب عليه فى آداب الجلوس.

وفجأة اعتدل فى جلسته ورفع ساقه من على الآخر وجلس فى أدب واحتشام وعدت أنا إلى جلستى المعتادة فلما انتهى الدرس سألت التلميذات كعادتى واحدة بعد أخرى عن رأيهم فى الدرس، ثم انتقلت إلى سؤال المعلمين وكان المعلمون قد اعتادوا أن يجيبوا على أسئلتى وهم جلوس فلما سألت أحدهم أمام المفتش وقف للإجابة فامتعضت وقلت له: لقد اعتدت يا فلان أن تجيب على الأسئلة وأنت جالس فما الذى حدا بك إلى الوقوف وتغيير ما اعتدناه مع أنى أريد دائماً أن تكون دروسنا فى حضور المفتشين أو فى غير حضورهم على حالتها العادية لا تغيير فيها. قال: لقد رأيت ذلك أبلغ فى تأدية ما أريد من المعانى، قلت حسناً فعليكم إذن أن تتبعوه من الآن.

وبعد أن انتهيت من سؤال المعلمين سألت المفتش وأدهشنى أن وقف وأجاب ولكن لم يقف ليجيب على سؤالى فحسب بل وقف ليطرينى ويطرى مدرستى أمام الطالبات، ويقول إن هذا الدرس أفضل درس رآه فى حياته من دروس النقد العام فى التربية العملية. وهكذا اصطلحت مع أحد خصومى الألداء ولكن الحقد لم يفارق قلب الرجل وكان يسعى إلى مناوأتى جهد استطاعته.

وخيل إليه أنه لو عين بمدرستى ضابطة أجنبية لاختلفت معى وأظهرت للوزارة معايبى وكان فى ذلك ما يمكّن الوزارة من الإساءة إلى ويظهر أنه لم يتيسر له الحصول على ضابطة إنجليزية فعين لى ضابطة فرنسية.

وكانت سيدة فرنسية طيبة القلب حسنة الأخلاق ولكنها تجهل كل شىء بالمدارس فكنت أحسن معاملتها وكنت أقوم أنا بالضبط بدلاً عنها لأنها لا تعرف عن أمور الضبط شيئاً وفرضت أن الوزارة لم تعين ضابطة وأنى كعادتى أتفقد كل أمور المدرسة من نظافة وتعليم وخلافه، وكانت السيدة تشعر بذلك وتشكرنى عليه وبعد أن قضت

بالمدرسة ثلاثة شهور زارنا صديقى المفتش الإنجليزى المعروف، وكان أول همه أن يختلى بها وأن يسألها عن أحوالها فقالت: إنها ناظرة نشيطة طيبة القلب تقوم بعملى وعملها لأنى لا أعرف فى ذلك العمل شيئاً وما كاد يسمع منها ذلك حتى انصرف عنها وقد خاب أمله فيما دبره.

عرفت من تصرفاته بعد ذلك أنه يريد مناوأتى إذا استطاع فكنت لا أعبأ به، وشاء له الطمع وحب المال أن يؤلف كتاب مطالعة لمدارس المعلمات الأولية باللغة العربية وكنت غير راضية عن هذا الكتاب وإن كان قد استعان فى تأليفه ببعض المصريين أو المشايخ ولكن عبارات الكتاب أقرب إلى اللغة الإنجليزية منها إلى اللغة العربية، ودخل يوماً درساً من دروس المطالعة فسألنى فى شىء من الزهو عن رأيى فى كتابه وكان يعتقد أنى سأمدحه وأطريه، فدهش عندما أجبته: إنه ليس بكتاب عربى، قال: كيف ذلك فأشرت إلى جملة فيه ابتدأها بقوله: أنا أتكلم، أو ما شابه ذلك. فأشرت إليها وقلت ليس هذا بالأسلوب العربى الصحيح فغاظه ذلك وقال للأستاذ المعلم وكان من دار العلوم ولا يعرف شيئاً فى اللغة الإنجليزية: أفى هذه الجملة خطأ يا أستاذ وأشار إليها. قال الأستاذ: لا، فقلت: إنك تقول لا على أنه لم ينصب فى تلك الجملة الفاعل ولم يرفع المفعول ولكن هل هذا الوضع من اللغة العربية فى شىء فخجل الرجل وعرف أنى أعارض فى مدح الكتاب، وقال فى همس: لم أكن أعرف أنكما تتناقشان فى ذلك.

ودخل مرة علىَّ أستاذ من دار العلوم كان متين الأخلاق كثير الفضائل فلم يعجبه وقال إنه قديم فى أسلوبه لأنه لم يتبع الإرشادات التى وضعتها الوزارة فى تعليم الإملاء من كتابة الكلمات الجديدة على السبورة قبل الابتداء فى درس الإملاء. قلت: إن ذلك لا يتناسب واللغة العربية. قال: إنى من المستشرقين. قلت: نعم أما أنا فمن العرب ولا يعرف المستشرق فى لغتنا ما نعرف نحن من أن إملائكم لا ضابط له، فرائدنا فيها النظر والسماع وضربت له مثلاً بكلمات كثيرة تنطق بغير ما تكتب به، أو تنطق نطقاً لا يتناسب مع كتابتها أما فى اللغة العربية فإملاؤنا قياس تضبطه القواعدفإذا نحن كتبنا على السبورة كلمة «نداءكم» وهى مفتوحة أوهمنا الطلبة أن كلمة نداء بعدها حرف أو

حرفان تكتب مفردة رغم أننا لو قرأناها بالضمة لكانت «نداؤكم» بالواو ولو قرأناها بالكسرة لكانت «ندائكم» بالياء فليس لنا بعد هذا أن نقول للتلميذ انظر إلى الكلمة بل نقول له اسمع وتبين النطق بها إذاً يجب علينا فى إملائنا أن نذكر التلميذ بقواعد الإملاء التى قاعدة فيها وأن نأمر بأن يتبين النطق ليكتب الكلمة صحيحة، واضطر المستشرق أخيراً أن يوافقنى على هذا الرأى وأن يعترف أن ما كتبه من الإرشادات لمعلمى اللغة العربية كان خطأ.

مناوءات

ابتدأت المناوءات تحت إشراف ذلك المفتش فكان فى كل يوم جديد من الوزارة وكنت أسير فى عملى بحذر متناه ولا أعبأ بما يختلقون وكان كل هم كبار الوزارة أن يرضوا ذلك المفتش الإنجليزى على حسابى فكانوا يتخيرون لى المعلمين الذين سبق لهم أن تنازعوا مع نظارهم رجاء أن يحصل بينى وبينهم من الخلاف ما يجيز للوزارة التدخل فى شؤون مدرستى، وكنت لشدة حذرى وسعة صدرى مع المعلمين أتجنب كل إشكال من هذاالقبيل وكانت عادتى أن لا أتألم إلا من إهانة وجهت إلى ممن هو أعلى منى أما مرؤوسىّ فقد كنت أعتقد أن تسامحى معهم حلم ونبل فلا أتألم منهم مهما كانت تصرفاتهم. وكانوا بمعاملتى اللينة يطيعوننى أكثر مما يطيع المدرسون ناظراً عتياً مستبداً وكان بالوزارة كما قدمت عظيم يكرهنى فكان إذا سمع بمعلم اختلف مع ناظره نقله إلي، وحدث أن مرض معلم بمرض النورستانيا فنقل فى عام واحد إلى أربع مدارس وفى كل مرة ينقل من المدرسة بعد أن يضرب ناظرها، وسمع بحكاية ذلك العظيم فسر سروراً يتناسب مع عظمته وأمر بنقله إلى مدرستى بالإسكندرية.

نقل هذا المدرس إلى فجأة دون صفارة إنذار فدخل مكتبى لأول مرة وأخذ يشكو من الوزارة ويتململ لأنها نقلته فى عام واحد خمس مرات وقال إنه أتى وحده وترك أسرته فى القاهرة خشية أن تنقله الوزارة للمرة السادسة، فطيبت خاطره وقلت إنه من المنظور أن لا تنقل وإنى أنا شخصياً سررت بنقله وإنى سأعمل كل ما يرضيه. قال نحن فى الورديان أى فى بقعة نائية بعيدة عن السوق ولا أدرى كيف أتدبر غذائى اليوم. قلت لا بأس. يمكنك أن تدفع ثمن الغذاء للمتعهد وتصرفه لك المدرسة من اليوم. قال ولكنك لم تستأذنى الوزارة فى ذلك وكان قانون المدارس يقضى بأن يستأذن الناظر الوزارة فى السماح للمعلمين بالغذاء بالمدرسة إذا طلبوا ذلك على شرط أن يدفعوا الثمن. قلت لا بأس فإن الوزارة قد سمحت لزملائك بالأكل ولا شك أنها ستسمح لك به، ولا غبار على

عملنا إذا نحن صرفنا لك الأكل من اليوم إلى أن يأتينا تصريح الوزارة ما دمت أنت مضطراً إلى ذلك لبعد أسرتك عن المدينة فشكرنى وخرج، ولكنى لاحظت أنه غير عادى، وأن عينيه حمراوان فتخوفت منه. وقد شاء سوء الحظ أو حسنه أن أنسى مسألة غذائه فلم أتكلم مع المتعهد فى شأنها ولم أتذكرها إلا بعد أن دق جرس الغذاء وهنا خشيت إذا لم يرسل إليه غذاؤه أن يثور وهو والحمد لله ثائر من نفسه، خشيت مغبة غضبه فلم أر أمامى إلا أن أصرف له الغذاء من منزلى، فأمرت الخادم أن يحضر غذاءه من منزلى الخاص وما كادت تقدم الأكل إليه حتى ثار وتهيج وقال: كيف استطعت واستطاعت ناظرتك سرقة هذا الأكل من المدرسة بدون إذن الوزارة، ثار على المرأة حتى كاد يضربها فهرعت إلى ملتاعة، وقصت على قصتها، فذهبت لأرى الخبر بنفسى فرأيته ثائراً متهيجاً يسب ويشتم فى مدرسة تسرق أكل الوزارة علانية، وما كاد يقع بصره على حتى قال لابد من أن أقتادك إلى النيابة.

فقلت فى هدوء. ولم ذلك يا سيدى؟

قال: لأنك سرقت لى أكل الحكومة بدون إذنها فضحكت وقلت له وإذا كان هذا الأكل من منزلى أنا الخاص فماذا يكون موقفك؟ فقال: أقتادك إلى النيابة أيضاً كى أرد شرفى لأنك اعتبرتنى متسولاً قلت: ولم تتصور هذا؟ ولم لا أكون قد اعتبرتك ضيفاً كريماً فأردت الاحتفاء بك؟ قال: إنى لا أعرفك قلت: لقد تعارفنا اليوم يا سيدى وعملنا معاً.

وهدأ الرجل قليلاً كأنه يفكر فيما يصنع. وأسرعت أنا وأشرت إلى الخادمة بأخذ الطعام من أمامه وهو جسم الجريمة حسب اعتقاده، فهدأت ثائرته وكأنه نسى الموضوع، وعلمت من ذلك أنه غير عادى وراعنى شدة احمرار عيونه، وتأكدت أنه إما أن يكون شارباً أو مريضاً، وكان عندى معلم طيب السيرة من دار العلوم كنت أعتمد عليه لمتانة أخلاقه وكان اسمه "الشيخ حاتم" فاستدعيته وطلبت منه أن يشم رائحة ذلك الزميل وأن يخبرنى إذا كان هو فى حالة سكر، وعاد الشيخ حاتم فقال: إن الرجل غير سكران وأنا أعرفه من قبل ذلك. قلت: إذن هو مريض. قال قد يكون ذلك فإنه غير عادى فى كلامه.

عرفت من تلك الظروف أن الوزارة أرادت أن تنقل إلىَّ رجلاً متهيجاً ليناوئنى فكتبت إلى ذلك العظيم فى الحال أقول له: إن الرجل الذى نقلتموه إلى مدرستى

مـريض، وأرجـو أن لا تظن أنى تشـاجـرت مـعـه أو حـصـل بينى وبينه أى نزاع، الـرجل مريض وأنا طبعاً أسامحه فى كل مـا يقول لمرضه، ولكنى سأحملك تبعة كل ما يحصل من وجود رجل مختل الشعور فى مدرسة بنات، وانتظرك فإذا لم تنقله فى بحر أسبوع كان علىَّ أن الجأ إلى من هو أكبر منك.

عجب العظيم من خطابى هذا وأشفعته بخطاب آخر وكان للرجل فى كل يوم حادثة أو حادثتان. مررت على باب فصله يوماً فترك الفصل وخرج فى إثرى وقال: إنه لا يقبل أن يكون فى مدرسة لا أمانة فيها. قلت: وما هى الخيانة التى تبينتها حضرتكم. قال: عـدم محـافظتكم على مواعيد الحـصص بالضبط فـقـد انتهى وقت الدرس ولم يدق الجرس. قلت: إذاشئت فاترك الفصل. قال: لا... لا أقبل ذلك ويجب أن يدق الجـرس الآن فتركته وسـرت فى طريقى. وفى اليوم التـالى دخل مكتبى ثائراً متهيجاً يقول إنكم مثال الخيانة فى تلك المدرسة. قلت: ولم ذلك يا سيدى؟ فألقى أمامى بكتاب مطالعة كان لبنت تركت المدرسـة بعد أن كتبت اسمهـا عليه. وقد أعطاه لـه الكاتب بدلاً من أن يصرف له كتاباً جديداً. وقال هذا الكتاب لا تملك المدرسة حق استعماله واسم صاحبه مكتوب عليه. قلت: لقد تركت تلك الطالبة المدرسة وتركت الكتاب ولم تسأل عنه.

ولما كانت إدارة المدرسة لا تعرف الخيانة فهى تستعمله فى صالح التعليم. قال: إن هذا العـمل خـيـانة فى نظرى. قلت: ومـاذا تريد؟ قـال: أريد أن يرسل هـذا الكتـاب لصاحبته. قلت: لا نعرف عنوانها. قال: يجب أن تبحثوا عنه، فرأيت أن مناقشته ضياع لوقتى فـأظهرت شيئاً من الغضب وقلت: أترك هذا الكتـاب، ولا تدخل مكتبى مـرة أخـرى. قـال: أغـضـبت حـضـرتك. وظهـر عليـه شىء من التـعـقل. وهكذا السكران أو المجنون إذا رأى شـدة معقولة ارتدع. فقلت له: والله لقد ضايقنى حضرتك وحضـرة الوزارة وكل تلك التصرفات، ورجائى أن لا تدخل مكتبى مرة أخرى. قال: سمعاً وطاعة. وبعـد يومين من هذا التـاريخ نقل إلى مـدرسـة مـحـرم بك الابتدائيـة بناء على إلحـاحى وخطاباتى التى كانت تتوالى على ذلك الكبير، ولم يمكث فى مدرسة محرم بك يومين حتى تشاجـر مع ناظرها وضـربه وأبلغ الخبـر إلى الوزارة فـأحالتـه على القـومسـيون الطبى فقرر أنه مريض مختل الشعور، وأخذ ذلك العظيم يقول فى مكتبه: عرض ذلك

المعلم على خمسة من نظارنا الرجال فلم يعرفوه وتشاجروا معه. وبمجرد ما وقع نظر نبوية موسى عليه قالت: إنه مريض ويجب علاجه، تالله إنها لساحرة.

حصل ذلك فى سنة ١٩١٥ وانقطعت عنى أخبار ذلك المعلم فلم أعلم عنه شيئاً. وفى سنة ١٩٣٦ كنت عند سكرتير صاحب السعادة العشماوى بك وإذا بأفندى يقبل علىَّ ويسلم بلهفة ويقول لى: لم يساعدنى فى نكبتى من النظار إلا أنتِ، وفى الحال تذكرت ذلك الشيخ المريض وقلت: لعلك "فلان". فقال: نعم أنا هو، ولا أزال أحفظ لكِ ذلك الجميل.

استمرار المناورات

يئس المفتش من حصول نزاع بينى وبين المعلمين فأراد أن يتدخل فى الموضوع وأن يخلق هو نزاعاً بأى شكل كان. وشاء سوء الحظ أن تتاح له الفرصة فأرسلته وزارة المعارف إلى الإسكندرية للإشراف على حفلة توزيع إعانة المدارس الحرة للبنات ودعانى مفتش التعليم الأوَّلى لحضور حفلة التوزيع وألقى المفتش الإنجليزى كلمته فى الحفلة فابتدأها ببراعة استهلال قال فيها:

"لقد خلق المصرى جباناً بفطرته".

ثم انتقل من مدح المصريين بهذه الكيفية إلى المدارس التى جاء لتشجيعها فقال:

"إنك تدخل تلك المدارس فترى كل من فيها فى حركاتهم وسكناتهم وألفاظهم زبالين".

وساءنى أن يقوم إنجليزى فى حفل من المصريين كان يرأسه كبير من الأسرة اليكنية فيطعن المصريين أولاً ثم يعطف على المدارس التى جاء لتشجيعها فيرميها بكل عيب ونقيصه، ساءنى أن يحيينا ذلك الأجنبى تلك التحية وهو واحد ونحن جماعة، فملت أعيب على المفتشين ونظار المدارس الثانوية سكوتهم على تلك الإهانة وضحك أحدهم وقال: "إن الرجل كان يتكلم بلهجة أعجمية لم يفهمها أحد إلا الذين اعتادوا لهجة الإنجليز فى اللغة العربية. قلت: ولكنكم أنتم من هؤلاء. قال: نعم! ولكن ما الذى يدعونا إلى إذاعة ما قال بين الملأ مادام الناس أنفسهم لم يفهموه فكان عذراً ظريفاً وإن كان لم يقنعنى وقام المفتش الأول وقال كلمة فى تعليم الفتاة شاد فيها باسمى بصفتى أول فتاة مصرية تولت المناصب المختلفة بوزارة المعارف، وانتهت الحفلة بعد أن اختلى المفتش الإنجليزى بمفتش التعليم الأولى وأفهمه أنه أخطأ فى الإشارة بذكرى لأنى ضد وزارة المعارف ولأنه يجب محاربتى. قال مفتش الأولى ذلك لبعض أصدقائه وبلغنى فأوجست منه خيفة لعلمى أن هؤلاء الناس يخدمون الإنجليز فى كل ما يريدونه من رغبات ولو بالإشارة وفيما قاله المفتش الإنجليزى ما يكفى لتوجيه نظر المفتش الأولى إلى العمل ضدى.

لم يطل انتظارى حتى بدا لى مجهود ذلك المفتش فى العمل ضدى فقد ابتدأ أحد مدرسى مدرستى يشق عصا الطاعة ويناوئنى العداء بلا سبب فكنت أقابل هذا بصبر وحلم خشية أن يكون قد حرضه أحد على ذلك، وأخيراً أردت أن أكتشف الحقيقة فخاطبت مفتش التعليم الأولى تليفونياً فى مساء أحد الأيام وقلت له فى أثناء حديثى إن فلاناً ـ وذكرت له اسم المدرس الذى تخيلت أنه يحرضه ـ إن فلاناً هذا مع ما يبدو عليه من نشاط وذكاء قد ظهر أن نتيجته فى الامتحانات سيئة جداً، قلت ذلك لأعلم إذا كان بين المفتش والمدرس رابطة فينقل إليه ما قلت.

وفى صباح اليوم التالى كنت أحضر درس انتقاد كانت تلقيه طالبة فى مادة الخط وحضر جميع المعلمات والمعلمين وكان على منصة التدريس كرسى وضعته الطالبة لتشرح للتلميذات طريقة الجلسة أثناء كتابة الخط.

ودخل ذلك المعلم متأخراً والغضب يبدو على وجهه وكنت فى الأسبوع الذى قبله قد طلبت من المعلمين أن يجلسوا على أدراج طالبات كانت موجودة فى جهة من الفصل حتى لا يكونوا قريباً من المعلمات، وقد أعجب المعلمون بذلك الاقتراح ووافقوا عليه وجلسنا جميعاً ووقف هو زائغ البصر فقلت له فى هدوء وعطف "تفضل اجلس إلى جانبى". وكان بجوارى مقعد خال. فقال: لا... ثم ذهب إلى منصة التدريس وأخذ الكرسى الذى أعدته الطالبة ووضعه بشدة أمام المكان الذى كنت أجلس فيه ثم جلس.

وهمست أنا إلى إحدى الطالبات فأحضرت كرسياً آخر وضعته بدل الكرسى الذى أخذه المعلم وتابعت الطالبة السير فى درسها وعند انتهاء الدرس سألت الطالبات ثم المعلمات ثم المعلمين عن آرائهم فيه، ولم أشأ أن أتخطى ذلك المعلم حتى لا يظن أنى تضايقت منه، فقلت له: ما رأى حضرتكم فى هذا الدرس؟ قال: ليس لى رأى فيه لأنى كنت متعباً فلم أعمل شيئاً. قلت: أشكركم وسرت فى درسى حتى إذا ما انتهيت ذهبت إلى مكتبى وكتبت له خطاباً قلت فيه: إن بقاء المعلمين الرجال بين المعلمات وبين الطالبات ضرر لابد منه ونحن نتحمل مخالطتهم بالمعلمات وجلوسهم معهن رغبة فى الظفر بآرائهم فيما يتعلق بالدرس، وقد قلت إنك كنت مجهداً فلم تعمل فلم دخلت هذا الدرس بلا عمل؟ وأنت تعلم أنك لو طلبت منى تصريحاً بالتغيب عنه لما تأخرت فى

إجابة طلبك لأن بقاءك بلا عمل مثال سيىء لباقى المعلمات والمعلمين، إذ يكون هذا سابقة لبقائهم فى الدرس بلا عمل وصرفهم الوقت فى اللهو والعبث.

قرأ المعلم هذا الخطاب ولم يستطع الإجابة عليه بل ظل متردداً مدة طويلة ثم كتب لى كتاباً يقول فيه: "إنى قد خالفت أوامر الوزارة فى أشياء كثيرة منها: أنى صرحت للمعلمين بالأكل داخل المدرسة بعد أن منعت الوزارة ذلك رسمياً وأنى فتحت سنة أولى من القسم الإضافى فى العلوم مع أن الوزارة لم تصرح بذلك وأنى أزيد عدد حصص اللغة العربية عن المقرر" وطلب منى أن أرفع هذا الخطاب إلى الوزارة، وأردت أن أتأكد من أن المفتش وشى إلى المعلم بما أخبرته به فاستدعيته بالتليفون وحضر فى الحال فلما حضر استدعيت المعلم فدخل علينا وكانت دهشتى عظيمة عندما ابتدأ حديثه معنا بأن أخرج من جيبه خطاباً كان ذلك المفتش قد كتبه له وهو ناظر مدرسة يدرس بها ذلك المعلم يشكره فيه على حسن نتيجته فى الامتحان، قدم ذلك الخطاب وهو يقول إن سعادتك كتبت لى ذلك الخطاب تشكرنى على حسن نتائجى أيام كنت أدرس تحت رياستك وهى تنكر علىَّ ذلك وتقول إن نتائجى فى الامتحان سيئة، فنظرت إلى المفتش . وكنت فى ذلك الوقت أقوم بوضع أسئلة امتحانات النقل بنفسى دون أن يطلع عليها المعلمون . فنظرت إلى المفتش وقلت له: إنك تشكره فى خطابك هذا على حسن نتيجته فى الامتحان فهل كنت أنت واضع الأسئلة أم هو؟ قال: بالطبع هو الذى كان يضع الأسئلة. قلت: إذن أنت تشكره على خراب ذمته لأن المعلم إذا وضع هو أسئلة الامتحان فى المادة التى يدرسها وكان غير دقيق فى عمله وغير مأمون عليه. أعد التلاميذ له فنجحوا جميعاً. وليس فى ذلك ما يستوجب الشكر. بل فيه ما يستوجب الذم، أما أنا فإنى أضع أسئلة امتحانات مدرستى فإذا قلت عن شخص إنه مقصر أو إنه مجد فى تدريس مادته فأنا على حق فيما أقول. وإنى بعد هذا أسألك سؤالاً واحداً: هل بينك وبين هذا المعلم اتصال لاسلكى حتى استطعت أن تخبره بما قلته لك أمس فى نفس هذه الليلة..؟!

ليس فى منزل الرجل تليفون فكيف اتصلت به بهذه السرعة؟ لابد أنك كلفت نفسك كثيراً فأنت إذن ذو غاية سيئة ولهذا أطلب منك أن تترك هذا المكتب حالاً وأن لا تعود

إلى المدرسة مرة أخرى، أما معلمى فسأعرف كيف أقوده إلى الصواب.

وخرج المفتش دون أن يقول كلمة واستدعيت بعض المدرسين فقرأت عليهم خطاب المعلم الذى طلب منى تبليغه إلى الوزارة وقلت لهم إنكم تعلمون إنى لم آخذ منكم رشوة عندما سمحت لكم بالأكل فى المدرسة ولكنى سمحت بذلك حباً فى صالح عملى. فإن المدرسة بعيدة عن الأحياء المأهولة وليس بجوارها مطعم أو شىء يمكن أن يشترى للغذاء، والمعلم إذا بقى بلا أكل لا يستطيع أن يتقن تدريس الحصة السادسة أو السابعة وليس فى أكله فى المدرسة ما ينافى الآداب الشرقية لأنه يجلس فى غرفة المدرسين وهى منعزلة تمام العزلة عن المدرسة فإذا جاز له أن يلهو ويلعب فيها فقد جاز له أن يأكل أيضاً.

فالوزارة مخطئة فى عدم التصريح بأكل المدرسين بدعوى أنها مدرسة بنات وأنتم أنفسكم شكوتم لى ذلك التعنت فعملت على إزالته، وكذلك فتح الفصل ليس لى فيه مكسب شخصى، ولكنى أردت أن أخدم التعليم فى الإسكندرية ولم أكلف الوزارة زيادة المعلمين بل فتحت الفصل بكم ولم يتألم أحد منكم من ذلك فأنا إذن شريفة حسنة النية فيما أفعل لا أريد غير الإصلاح ولهذا سأرسل هذا الخطاب إلى الوزارة وسأعترف بكل ما فيه، وخرج المعلمون بعد ذلك يكادون يذوبون خجلاً من فعلة زميلهم ثم كتبت إلى المستر دانلوب خطاباً أرفقت به خطاب المعلم وقلت له فيه: إن كل ما جاء فى هذا الخطاب صحيح، ولم أعمله أنا لغاية شخصية، فقد فتحت القسم الإضافى سعياً فى نشر التعليم فى الإسكندرية دون أن أكلف الوزارة شيئاً، وصرحت للمعلمين بالأكل لأن ذلك فى صالح العمل وبدونه يختل نظام التعليم بالمدرسة لبعدها عن المطاعم وزدت عدد حصص اللغة العربية لأن الطالبات سيكن معلمات يدرسن بتلك اللغة وهن فى حاجة شديدة لها.

عملت ذلك للصالح لا للأغراض الشخصية وإنى مصرة أن أعمله طالما كنت ناظرة لتلك المدرسة فلا تحقق معى فيه، وافعل بى ما شئت على اعتبار أن ما بلَّغه المعلم صحيح أما المعلم فقد خرج فى كتابه هذا عن حدوده لأن الوزارة لم تعينه رقيباً علىَّ فليس له أن يتدخل فيما لا يعنيه.

وبعد أسبوعين من إرسال الخطاب إلى الوزارة جاء تصريح للمعلمين بالأكل فى المدرسة، وتصريح آخر بفتح الفصل، وإنذار لذلك المعلم تحذره الوزارة فيه من العودة إلى مثل ما فعل فكان هذا سبباً فى أن يبتعد المعلمون جميعاً عن المفتش الأولى الذى كان يمنى ذلك المعلم بالترقية فانتهت أمانيه بالإنذار.

تحريض مستمر

هكذا كنت لا تشرق الشمس علىَّ إلا استقبلت حادثاً جديداً من مشاغبات ذلك المفتش الإنجليزى القوى العنيد ولا أدرى كيف كنت أنتصر عليه مع ضعفى وقوته، وقد كان يساعده موظف عظيم من موظفى وزارة المعارف فما كان ينقل إلى مدرستى معلم إلا قابله ذلك الموظف العظيم وودعه بحرارة قائلاً له:

"إنى أعلم يا فلان أنى مرسلك اليوم إلى جهنم ولكن ما الحيلة ولابد من تعيين مدرسين فى تلك المدرسة؟ على أنى مستعد كل الاستعداد لنقلك إذا أنت شكوت من سوء معاملة ما".

ولا شك أن المعلم كان يكره النقل من القاهرة إلى الإسكندرية ومادام ذلك الرئيس الخطير قد وعده بالنقل إذا هو اشتكى فكان من المعقول أن لا يقيم فى المدرسة أكثر من أسبوع أو اثنين حتى يشكو أو يتشاكى، وكنت أجهل ذلك بالطبع ولكن الظروف كانت توقفنى على حقيقة ما يعملون مصادفة. ونقل إلى مدرستى معلم اسمه "الشيخ محمد سعد" وكان رحمه الله رجلاً تقياً مجداً فى عمله مخلصاً له وكان مستقيماً فى مسلكه إلى حد الخشونة فكرهته الطالبات لذلك التشدد وأردن أن يوقعن به فأبلغننى أن الشيخ سعد قال لهن كلمة منبوذة لا يجوز لمعلم أن يقولها، ولما كنت أعرف فى المرحوم الكمال والصدق والاستقامة لم أستطع تصديق ما قيل لى ولكنى دهشت مع ذلك من إجماع البنات عليه، فكنت أسألهن واحدة واحدة وهن مصممات على ما قلن لى من أن الأستاذ قال لهن كلمة لا يليق به أن يقولها وأخيراً طلبت منهن أن يقلن لى تلك الكلمة وبعد إلحاح قلن أنه قال "فواحش" وسألت "فى أى درس قالها" فقلن لى "فى درس الدين". وهنا طلبت كراسة من كراساتهن فى الدين فوجدت مكتوباً فيها تلك الآية الكريمة:

(الذين يتجنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إنَّ ربك واسع المغفرة).

ولم يكن المسكين هو الذى يختار تلك الآيات بل كانت الوزارة هى التى تختارها وهنا

أعدت السؤال على الطالبات فعلمت أن الكلمة التى قالت الطالبات إنه قالها هى المذكورة فى الآية، أى أنه قرأ الآية.

أدهشنى تفنن الطالبات فى الاتهام إلى ذلك الحد وسررت جداً من أن فراستى لم تخب فى ذلك الأستاذ الفاضل، فأرسلت إليه وقلت له "هل صحيح أن حضرتك قلت أمام الطالبات كلمة فواحش؟" فثار الرجل وقال: "إنى لم أصل إلى هذا الحد من الانحطاط، ولقد قال لى فلان باشا قبل نقلى إلى هنا إنى مقدم على جهنم ولقد صدق، وأنا أطلب نقلى اليوم" فضحكت فى شىء من الهدوء وقلت له دعنا مما قاله فلان وأرجوك أن تجيب على سؤالى فقط "هل قلت تلك الكلمة أم لم تقل؟" قال "بالطبع لم أقلها ولن أبقى فى مدرسة أسأل فيها عن ذلك" قلت "إنك واهم يا سيدى فالمدرسة لم تظلمك ولم تنكر عليك فضلك واستقامتك وما أردت بسؤالى هذا إلا لألفتك إلى الوسط الذى تعيش فيه لتحترس منه، أما الكلمة يا سيدى فإنك قد قلتها وكتبتها أيضاً على السبورة وأمرت الطالبات بحفظها وها هى كراسة الدين التى أمليتها أنت على الطالبات، وأظهرت له الكراسة فدهش الرجل وأسف لما بدر منه، قلت لا بأس إنك لم تسىء إلىَّ بما قلت بل أحسنت فقد عرفتنى بماذا يوصون المعلم عند نقله إلىَّ، وأظن يا أستاذ أنى انتصرت عليهم فى كل أدوارى وسأنتصر إن شاء الله، ولست أنا ممن يتهمون الناس جذافاً أو يسمعون فيهم كذب القول، بل إنى قد تحريت الوصول إلى الحقيقة فى مسألتك هذه حتى وصلت إليها قبل أن أعرض الأمر عليك وما عرضته عليك لأتهمك بشىء بل لأوجه نظرك إلى الخطر الذى يحدق بمدرس البنات خصوصاً إذا كان مستقيماً متمسكاً بأصول دينه بعيداً عن ملاينة الطالبات فأنت فى نظرى اليوم أفضل مما كنت بالأمس.

وبقى الرجل عندى إلى أن خرجت من المدرسة ونحن على أحسن حال من التفاهم وحسن المعاشرة.

مناورات

ظلت المناورات بينى وبين ذلك المفتش الإنجليزى طول مدة توظفى بالوزارة وكنت أعلم شدة كراهيته لى ولم أكن أعمل على إزالة تلك الكراهية لأنى كنت أعتقد أن ذلك فوق طاقتى وكنت أقول: لا معنى لاستجلاب رضاه مادام هذا غير ميسور ومادمت أنا هدف سخطه وتعنته فيجب على الأقل أن أعطى له كما أخذت منه والشر بالشر والبادئ أظلم، وكنت إذا تذكرت حالتى وحالته وضعفى وقوته أقول "أنا الغريق فما خوفى من البلل" وكان قليل الأدب مع المعلمين فكنت أدفع شره عنهم بقدر الإمكان وكنت كعادتى لا أتبع قانون الوزارة حرفياً بل أتصرف فيه سعياً وراء نفع الطالبات وكان مقرر الحساب لمدارس المعلمات فى ذلك الحين يحتم إعطاء الكسور الاعتيادية قبل العشرية ولما كنت أعلم أن هذا خطأ لأن الكسور العشرية فى عملياتها تسير على نفس الطريقة التى تسير عليها الأعداد الصحيحة فكل عدد من جهة اليمين يقل عن نظيره من جهة الشمال عشر مرات حتى إذا انتهت الأعداد الصحيحة جاء بعدها الكسر العشرى والرقم فى الخانة الأولى منه يقل عن نظيره فى العدد الصحيح عشر مرات وهكذا فكنت أرى أن إعطاء عمليات الكسور العشرية إعادة لعمليات الأعداد الصحيحة لا فرق بينها وبين الأعداد الصحيحة إلا تحديد موضع العلامة العشرية ولهذا كنت أطلب من معلم الحساب أن يعطى الكسور العشرية قبل الاعتيادية.

وجاء ذلك المفتش كان له أن يفتش على كل مادة فى العالم حتى القرآن، فلما رأى أن المعلم يعطى الكسور العشرية قبل أن يعطى الاعتيادية أحضر له المنهج وقال له باللغة العربية لا أقول الفصيحة بل اللكناء "هل أنت أعمى؟" مشيراً إلى ما كتب فى المنهج وكان ذلك أمام التلميذات وتصادف أنى كنت فى تلك اللحظة أمر أمام الفصل فسمعت قوله هذا لأنه كان يلقيه بلهجة غضب وصوت عال، فدخلت مسرعة وأردت أن أدافع عن كرامة المعلم أمام تلميذاته فقلت للمفتش باللغة الإنجليزية "لا يا سيدى ليس هو بالأعمى ولكنى أنا العمياء لأنى أنا التى أمرته بذلك" فخجل المفتش وكان يخشى أن

يتصادم معى فقال لى فى لهجة وادعة "لا بأس فإن هذا اختلاف فى الآراء".

وهكذا ظل الرجل يكرهنى ويخشانى وينتظر لى أقل كبوة ليهاجمنى من جرائها، وكان بالطبع كثير الأنصار يخشاه كل الناس ويتملقونه فكان يبتكر لى المنغصات ابتكاراً وكان مما فعله أنه لم يسمح لمدرسة المعلمات بالورديان بتعيين طبيبة فيها كما هى العادة فى جميع المدارس وكنت إذ ذاك قوية كثيرة النشاط فلم أعبأ بذلك وكنت أقوم بعمل الضابطة الفرنسوية التى لا تصلح لمركزها كما مر بنا. كما كنت أقوم بعمل الطبيبة، ومن حسن المصادفات أنى يوم خرجت من تلك المدرسة أسرع هذا المفتش فعين لها طبيبة فى يوم خروجى فلم تحضر الناظرة التى خلفتنى إلا وفى المدرسة طبيبة وذلك حتى لا تظهر قوتى بضعف من كانت ستحل محلى,وشاء القدر أن تهمل الطبيبة وأن تهمل الناظرة نظافة التلميذات فينتشر فى المدرسة الجرب بحالة مفزعة وكانت المدرسة بعد خروجى منها بأربعة أشهر محل قيل وقال لما منيت به من ذلك الداء العضال، خرجت الضابطة الفرنسية وحلت محلها ضابطة مصرية فكان بدلى ثلاث موظفات الناظرة، والضابطة، والطبيبة، ومع ذلك لم تكن المدرسة فى نظافتها على ما كانت عليه فى مدتى وعرف الرجل فى قرارة نفسه قيمة عملى فزادته تلك المعرفة حنقاً علىَّ وسيأتى فيما بعد مجهوده العظيم المنتج فى تعكير صفوى أينما كنت وكان يقول فى لهجته القاسية "إنها - أى نبوية - قوة شديدة خطرة".

لقد خرجت بذلك عن الزمن الذى أكتب فيه وهو زمن وجودى بمدرسة الورديان. لهذا أعود فأكمله.

قامت الحركة الوطنية فى سنة ١٩١٩ وكان صاحبى المفتش المذكور على استعداد تام للقضاء علىَّ إذا قامت مدرستى بحركة مهما تفهت وكنت محبوبة من المعلمين والمعلمات والطالبات أيضاً وكنت نافذة الكلمة فى الجميع فاجتمعت بالمعلمين والمعلمات وقلت لهم لست ممن يعتقدون أن الإضراب فى المدارس مما يفيد البلاد بل أنا أعلم أن البلاد على حاجة شديدة إلى التعليم وأن المعلمين يجب أن يكونوا بعيدين عن الحركة الوطنية لأنهم يقومون بعمل وطنى مجيد يجب أن لا ينصرفوا عنه إلى عمل آخر مهما جل وذلك العمل تثقيف أمة أمية قد انتشر فيها الجهل إلى أقصى حدوده فنحن فى

كفاحنا ذلك الجهل الشديد يجب أن نتفرغ له وأن لا ننظر إلى عمل غيره. هذا ويهمنى أن لا نكون قدوة سيئة للطلبة فنظهر أمام طالباتنا بمظهر الجبن والغش والكذب لأنى أعلم أن المعلمين هم الذين يحرضون الطلبة ثم يعاقب الطلبة وحدهم وهذا جبن من المعلم وكذب ورياء يجب أن لا يعلمه عنه تلاميذه.

فانتم الآن بين امرين إما أن تقرروا أنى على حق فى تجنبى الإضراب وتتبعونى عليه وإما أن تقرروا أنى مخطئة وأن نقرر الإضراب وفى تلك الحالة يجب أن نضرب نحن ـ أى الناظرة والمعلمين ـ علناً دون خوف أو مواربة ولست أخرج عن إجماعكم الذى تجمعون عليه، فإذا اخترتم الأولى وهى العمل فيجب أن لا تكونوا ضعفاء لأن المعلم الضعيف لا يصلح للتدريس ويجب أن تظهر قوتكم فى قيادة طالباتكم فلا تمكنوهن من الإضراب بتاتاً، وسأضطر إلى إخبار الوزارة عن كل ضعيف منكم، أى عن كل معلم أضربت طالباته فى وجهه.

انفض الاجتماع وخرج كل معلم وهو أحرص ما يكون على أن لا تضرب طالباته. وهكذا أضربت جميع المدارس إلا مدرسة معلمات الورديان وضاعت من يد المفتش الوسيلة التى كان يريد أن يهاجمنى بها فكان مغربى باشا رحمه الله يخاطب المدرسة تليفونياً كل يوم فيسألنى هل أضربت الطالبات؟ فلما كنت أجيبه بالسلب كان يضحك بملء فيه ويقول: إن عملك هذا قد فاق عمل السحرة والمشعوذين ولا أدرى كيف تضرب جميع المدارس ولا تضرب مدرستك وأنتِ وطنية؟ فكنت أقول أن وطنيتى يا سيدى تقضى علىَّ بعدم الإضراب لأنى أريد أن أخرج أمتى من هذا الجهل المخيم على العقول.

وهكذا أضربت جميع المدارس وسافر طلابها ولم يبق بالإسكندرية إلا مدرسة معلمات الورديان وقطعت المواصلات ثم أعيدت، وتلقيت أمراً كتابياً من الوزارة بمسامحة الطالبات أو بالإضراب لا أدرى وهكذا اضطرت الوزارة أن تأمرنى بالإضراب بعد أن أعياها احتمال إضراب تلك المدرسة.

إضراب إجبارى

أمرتنا الوزارة بمسامحة المدرسة كما قدمت، أو بالإضراب بعبارة أخرى وكانت المواصلات فى ذلك الوقت قد قطعت ثم أعيدت وأمرت الحكومة بأن لا يسافر أحد فى قطارات السكك الحديد إلا بتصريح من الحكومة وذهبنا إلى المحافظة وكتبت للطالبات وللمعلمات التصاريح ولى أيضاً، وكانت والدتى معى فرفض الضابط الإنجليزى أن يصرح لها بالسفر وأدهشنى هذا الرفض فأخذت أناقشه فى معنى رفضه هذا وكيف أستطيع أنا البقاء فى الإسكندرية بعد إغلاق المدرسة وكيف تستطيع والدتى البقاء وحدها وقد كانت تقيم معى فى بناء المدرسة نفسه بأمر من الوزارة؟ وبعد جهد استطعت أن أقنعه بوجهة نظرى ويظهر أن الرجل لم يكن يعلم فى ذلك الحين أن الفتاة المصرية كانت تستطيع التعبير عما تريده باللغة الإنجليزية فأدهشته مناقشتى وقال إنه سيساعدنى عند الحكمدار أو نائب الحكمدار لا أدرى وكان إذ ذاك المرحوم "انجرام بك" وقبل أن يذهب إلى الحكمدار سألنى فى شىء من الزهو: ألا ترين أنه ليس من صالح مصر أن تستقل وأن من الخير لها أن تبقى تحت سيطرتنا؟ قلت: إنك يا سيدى تكلفنى الإجابة على سؤال لو صدقت فيه لأسئ إليك، فأنتم المستعمرون بهذه الأسئلة تعلموننا الكذب والجبن وليس من المعقول أن يفضل أحد الاستعباد على الحرية.

فالوحوش فى الصحراء والطيور على الأشجار تفضل حريتها عن أن تحبس فى أقفاص من الذهب أو فى حدائق غناء مهما عوملت بالحسنى، ونحن بشر مثلكم فكيف نرضى أن تقودونا وكيف نعترف بذلك؟ إنك لو سألتنى التفضيل بين استعمار إنجلترا وفرنسا لما ترددت فى الإجابة عليك بل كنت أؤكد أننا نفضّل الإنجليز على كل من عداهم، أما أن تطلب منى المفاضلة بين حريتنا واستعبادنا فهذا هو الأمر المدهش، ويكفى أن يكون فى سؤالك هذا ما يظهر خطر الاستعمار فإنكم بمثل هذه الأسئلة تسلبوننا أخلاقنا وفضائلنا وتعلموننا الكذب والخداع وهما شر الصفات. قال: أو

تظنين أن فيكم الكفاية لحكم أنفسكم بأنفسكم؟ قلت: ولم لا يكون ذلك، ألسنا بشراً مثلكم؟ إن فينا من الذكاء ما قد يعوزكم أنتم الإنجليز فمنا من يتكلم الإنجليزية أو الفرنسية كما يتكلمها أهلها أما أنتم فلم أر منكم من أتقن لغة أجنبية عن بلاده، قال: صدقت أنتِ على شيء من الحق فى ذلك ثم تركنى ودخل على المرحوم "انجرام بك" ويظهر أنه روى له ما جرى بينى وبينه من المناقشة فأراد المرحوم أن يرانى واستدعانى إلى مكتبه فلما دخلت عليه حيانى وكان لطيفاً، ثم جلس ينظر إلىَّ وأخيراً قال لى: لم طلبت مقابلتى؟ قلت: أنا لم أطلب ذلك بل ولم أكن أعرف أن فى هذه الغرفة ضابطاً عظيماً اسمه انجرام بك، ولكنهم قالوا لى إن انجرام بك يريد مقابلتى، قال: ألم تطلبى ترحيل والدتك؟ قلت: نعم طلبت هذا، قال: ولكنى لا أستطيع ترحيلها لأنها ليست بمعلمة ولا طالبة، قلت: ولكنها امرأة تريد أن تصل إلى منزلها فالعطف عليها لا يقل عن العطف عن أى معلمة أو طالبة. فابتسم وقال: ولكنى لا أستطيع ذلك العطف، قلت: ولم طلبت مقابلتى إذن؟ قال: لأقول لكِ إنى لا أستطيع ترحيل والدتك، قلت: أما كان خيراً لى ولك أن ترسل إلىَّ بذلك النبأ المحزن فلا تؤلمنى بسماعه منك ولا تؤلم نفسك باحتجاجى؟ فضحك ضحكة عالية وقال: لا ألم.. فقد أمرت لها بالتصريح وهنا شكرت له ما صنع وخرجت.

إرهاق واستفزاز

لم يصلوا إلى ما أرادوه من اتهامى بتحريض الطالبات على الإضراب لأن المدرسة خيبت ظنهم ولم تضرب بتاتاً، فعمدوا إلى استفزازى وإرهاقى بكل الوسائل، وكانوا يعلمون أنى أحرص على إبعاد المعلمين عن المعلمات حتى أنى أعددت لمعلمى مدرسة المعلمات غرفة لها باب يفتح على الشارع مباشرة وبجانبها دورة مياه فهى لا تتصل بالمدرسة بأية حال، أما المدرسة الملحقة فقد كان جميع معلماتها سيدات وكانت هى داخل الفناء فلم يكن يدخلها رجل وأرادوا مضايقتى فعينوا لها ناظراً وكان شاباً لا بأس بجماله، أنيق الملبس، فكان عليه أن يبقى طول النهار بالمدرسة الملحقة أى وسط معلماته ومعلمات مدرسة المعلمات أيضاً لأن معلمات التربية كن يذهبن مع طالباتهن إلى التدريس بالملحقة، فكان هو يستطيع أن يرى أو يجالس كل من فى المدرسة من معلمات أو طالبات على ما كان عليه من شباب وجمال، فساءنى ذلك وأرسلت أطلب من وزارة المعارف نقله فلم تقبل ثم سألتنى الوزارة عن سبب النقل وأرادت بذلك أن توقعنى مع الناظر، فقلت: إن الرجل كريم الأخلاق ولا عيب فيه إلا أنه رجل أوبعبارة أخرى شاب جميل وما كان للوزارة أن تضع يوسف بين الفتيات وهى تعلم أن يوسف على فضائله وعفته قد ذهب جماله بعقول السيدات. فقالت الوزارة: إن السبب غير معقول، وأخيراً بلغنى أن هناك مركز ناظر مدرسة خالياً، فنصحت للرجل أن يطلب تعيينه فيه وقلت له إنك إذا لم تظفر بذلك المركز فقد تضيع عليك الفرصة لأنى سأعمل على إخراجك من هنا مهما كانت الظروف، وقد يضطرون إلى إخراجك من عندى حسب طلبى فى وقت لا يجدون فيه مركز ناظر خالياً من صاحبه، فاقبل نصيحتى وتشدد فى طلب النقل، ولكنهم أفهموه أنى أريد به السوء وأنى لا أستطيع نقله مهما فعلت وتصادف بعد ذلك مباشرة أن حدد يوم لزيارة حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد أيام كان سلطاناً وجاء رجال وزارة المعارف قبل الزيارة ليشرفوا على الترتيبات التى اتخذت وكان

فى مقدمتهم المرحوم مغربى باشا فقلت له: اعلم يا باشا أننى لا أستطيع أن أفهم معنى إصرارك على إبقاء شاب جميل بين فتياتنا طيلة النهار وهو والحمد لله لا عمل له لأنه ناظر، ولا أظن أن غيرى يفهم ذلك، وسأعرض المسألة على حضرة صاحب العظمة عند تشريفه المدرسة لأرى إذا كنت أنا على حق أم الحق فى جانبكم وسترى سعادتك أن عظمة السلطان سيخرجه أمامك رغم كل اعتراض ونظر مغربى باشا إلى بعض من كانوا معه وقال: "إنها تفعل ذلك وأكثر منه". فاستدعوا لى ذلك الناظر. ولما حضر وحياه قال: اسمع يا أستاذ إننا قد قررنا نقلك اليوم من هذه المدرسة. قال: إلى أين؟ قال مغربى باشا باسماً: لقد قررنا نقلك من هنا أما إلى أين فهذا ما لا نعرفه الآن.

وخرج الرجل يتعثر فى أذياله ويندب سوء حظه ويندم على عدم إطاعتى فيما رجوته فيه ثم عين معلماً فى مدرسة "إدكو" ومن غريب المصادفات أنه لم يتمتع بعدها بوظيفة ناظر وكان يرجونى كثيراً أن أتوسط له وكنت أجيب رجاءه وأفعل ما أستطيع دون جدوى وهكذا ناله من الضرر أكثر مما نالنى.

زيارة ملكية

عدنا إلى المدرسة بعد أن هدأت الحالة وتولى المغفور له الملك فؤاد سلطاناً على مصر فأخذ يزور المدارس جميعها واستعد مفتشو وزارة المعارف لاستقبال عظمته إذ ذاك فى كل مدرسة واجتهدوا أن يظهروا له فى كل مدرسة دخلها غرائب فن التربية وبدائع فن التنميق والتحسين والتجميل وصرفت الوزارة فى كل مدرسة مبلغاً عظيماً من المال للوصول إلى تلك الغاية وجعلوا مدرستى آخر مدرسة تتشرف باستقبال عظمته ثم أهملوها فلم يخبرونا بزيارة عظمته إلا قبل الزيارة بأسبوع واحد ولم يصرفوا لى مليماً واحد للإنفاق منه فى استقبال عظمته وعرفت أنا ما يراد بى فضحيت بمبلغ شهرين من مرتبى صرفته على استقباله وكانت لمدرسة المعلمات مدرسة أولية ملحقة يتمرن فيها الطالبات على التدريس كما قدمت فأعددتها للزيارة وكان ذلك ضد رأى حضرة صاحب السعادة المغربى باشا الذى قال: إنه لا يجوز أن يزور عظمته مدرسة أولية ولكننى نفذت رايى وأعددت المدرسة وكانوا يظنون أن عظمته قد لا يسر من مدرستى فيكون ذلك سبباً فى إخراجى منها وكان المرحوم المستر دانلوب الذى كان يحمينى من ذلك المفتش الظالم قد ترك القطر المصرى، وأصبح لصاحبنا كل السلطة والسلطان بصفته أحد أبناء التاميز ولا يستطيع أن يرد عدوانه إلا إنجليزى مثله.

شرف جلالته المدرسة فاستقبلته الطالبات فى أول فصل دخل بقصيدة استحسنها هو ومن معه وكانت من شعرى، ثم قدمتها إلى جلالته مكتوبة فى إطار على طراز عربى مزخرف بالصدف البراق، وأحطت القصيدة برسم بديع لبعض الأزهار فأعجب بها كل الإعجاب، وكان صاحبنا المفتش حاضراً فوقف صامتاً لا يكاد يصدق أذنيه، وكان يسير وراءنا المغفور له سعيد باشا ذو الفقار. وكان رحمة الله عليه يميل إلى مساعدتى فكنا إذا دخلنا فصلاً وخرجنا منه تغير موقفى بالنسبة لجلالته فصرت على يمينه بعد أن كنت على يساره وهنا ينبهنى سعيد باشا من خلفى قائلاً "إنك على يمين عظمة

السلطان" وكان عظمته مسروراً باسماً فشجعنى هذا فنظرت إلى عظمته مستفهمة: لقد تغير المركز دون أن أقصد، فهل ضايق هذا عظمتكم؟ فابتسم المغفور له وقال: لا.. أبداً.

وكنا قد فرشنا لعظمته فى الممرات بساطاً ضيقاً وفجأة نظرت فإذا أنا أسير على البساط وجلالته يسير على الأرض، فقلت: عفواً، إن هذا البساط قد وضع لعظمتكم أما أنا فأسير كل يوم من هذا الطريق على الأرض. فضحك جلالته ثانية وقال: لا حرج عليكِ.

زرنا جميع الفصول، وقد ارتاح جلالته إلىَّ وأخذ يصغى إلى حديثى كأنه يعرفنى منذ زمن بعيد فلما انتهت زيارته لفصول مدرسة المعلمات انتقلنا إلى الملعب، فشاهد عظمته فصلاً يلعب بعض تمرينات رياضية وكنت أقف إلى جانبه ومن ورائى حضرتا صاحب المعالى سعيد باشا ذو الفقار وعدلى يكن باشا وزير المعارف إذ ذاك وإلى جانب وزير المعارف المرحوم مفربى باشا وقد مال عليه وأفهمه أنى أريد أن يزور عظمة السلطان المدرسة الملحقة وهو ما لا يوافق عليه، واستعد المغفور له عدلى باشا لمنع تلك الرغبة التى أريدها أنا، ولكنى سبقته إلى تنفيذها، فقلت لجلالته: إنى قد أعددت لزيارة عظمتكم المدرسة الملحقة وهى أظرف بكثير من مدرسة المعلمات لأن تلميذاتها طفلات صغيرات ولكنهم يحاولون منعى من ذلك مع أنى أنفقت على زينة تلك المدرسة من جيبى الخاص، وكل حجتهم فى ذلك المنع أننا سنسير خطوات تحت الشمس، وأنا مستعدة رداً على هذا الاعتراض أن أحضر لعظمتكم مظلة. قال: أنا عسكرى يا سيدة وسأذهب إليها رغم هذا وبدون مظلة.

وانتهت ألعاب الطالبات وابتدأنا نسير جهة المدرسة الملحقة وأسرع المغفور له عدلى يكن باشا ليمنع جلالته عن الذهاب فقال له باللغة الفرنسية: لقد أعطيت وعداً بالذهاب، فسرنا وسار الجميع فى أثرنا وهم يتهامسون حتى إذا وصلنا إلى المدرسة الملحقة، قال عظمته: حقاً إنها أفضل من مدرسة المعلمات، وكانت المدرسة حديثة البناء تتكون من ثلاثة أضلاع، وكان العيب الوحيد الذى فى البناء أنه لا توجد مظلات أمام أبواب الفصول. بل كانت تفتح جميعها على العراء، ولستر هذا العيب وضعت أمام

الفصول قماشاً يحجب الشمس عنها فظهر بهاؤها ورونقها. فلما قال عظمته: إنها أحسن من مدرسة المعلمات. قلت: نعم هى أحسن الآن بعد أن وضعنا لها هذا القماش، لأن هذا البناء يعيبه عدم وجود مظلات أمام أبوابه ولعلهم أرادوا، بعدم مجىء عظمتك إلى هنا إخفاء ذلك العيب. فضحك جلالته ودفعنى عدلى باشا يكن فى ظهرى بقبضة يده قائلاً: ألا تريدين السكوت؟ قلت: لا، ويجب أن يعرف عظمته كل شىء. فضحك الجميع وسرنا إلى غرفتى. وهناك شكرنى حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد وقال إنه لم يسر من مدرسة مثل سروره من مدرستى، ووقف المفتش الإنجليزى مشدوهاً لا يبدى حراكاً، حتى أنه لكثرة دهشته فتح فمه فلم يغلقه، وخرج عظمة السلطان ومن معه ولم يبق أمامى غير حضرة المفتش فقال: لا أدرى ما الذى صنعت له حتى أعجب بك كل الإعجاب؟ قلت: لقد سحرته يا مستر فلان كما سحرت جناب المستر دانلوب من قبل، ولكنى لسوء حظى لم يفلح سحرى فيك أنت فقط، فتركنى دون أن يجيبنى وانصرف.

نتائج الزيارة الملكية

انتهت الزيارة الملكية وكان من أثرها أن عمل ذلك المفتش ضدى جهد المستطاع وكان لسوء حظى أنا أن المستر دانلوب الذى كان يحمينى قد عاد إلى بلاده، وانتهز ذلك المفتش الفرصة وأفهم الإنجليز أنى ضدهم وأن بقائى كناظرة محبوبة قد يكون له نتائج لا تتناسب وحالة الحرب التى كنا فيها، وتغاضى سامحه الله عن أن مدرستى كانت المدرسة الوحيدة التى لم تضرب ولم تقم بأية حركة ولكن هكذا الشخصيات تدخل فى السياسة وكل شىء فالرجل لأغراضه الشخصية اتهمنى بما يعلم هو نفسه أنه اتهام باطل والإنجليز يثقون فى بعضهم البعض ثقة عمياء فلا يبحثون عن مبلغ ما يقوله أحدهم من الصحة أو من الحقيقة، وهكذا اتفق رأيهم على أن لا أعمل فى التعليم عملاً جدياً، ولم أكن أعلم بذلك الاتفاق وبعد الزيارة بأسبوع جاءنى ذلك المفتش وقال لى: إن الوزارة قد رأت ترقيتى لأن عظمة السلطان قد سر من مدرستى سروراً عظيماً وإنه جاء ليخبرنى بتلك الترقية وقد بحث فى ميزانية المدرسة فلم يجد لى درجة تناسبنى ولهذا يريد أن يعيننى مفتشة وأن يرفع مرتبى من ٢٦ جنيهاً إلى ٣٥، وكنت أعلم أن المفتشة ليس لها عمل خاص تقوم به مستقلة وأنها إنما تكتب تقاريرها لكبار الموظفين وبعبارة أخرى للمراقب وهو بعد ذلك حر فى أن يعمل بإرشاداتها أو أن يهملها، فأثرها فى التعليم لا قيمة له؟ أما ناظرة المدرسة فمستقلة فى عملها يمكنها بكل سهولة أن تصلح شأن المدرسة التى ترأسها وأن توجهها إلى حيث تريد، ولقد كنت أنا أتفنن فى تنفيذ أوامرى إلى درجة أضطر بها الوزارة إلى إجابة طلبى مهما كان كما فعلت فى إنشاء فصل دون أن تأمر الوزارة به وفى السماح للمعلمين بالأكل دون أن تصرح به الوزارة وغير ذلك، ومما فعلته فى ذلك الصدد أنى أردت أن أقدم الغذاء لبنات المدرسة الأولية الملحقة بالمدرسة ولم تكن الوزارة فى ذلك الوقت قد سمحت لأية مدرسة أولية بهذا، وكنت أعلم أننى إذا طلبت ذلك رفض طلبى، كما كنت أعلم أن كتبة

الوزارة فى غـاية الكمل وأنهم قـد لا يعـرضـون الخطابات التى نرسلهـا نحن نظار المدارس على الرجال المسئولين إلا بعد ورودها بشهر على الأقل ولهذا كتبت خطاباً إلى الوزارة أقول فيه:

"إنه نظراً لبعد مدرسة الورديان عن الأماكن المعمورة وحضور التلميذات إليها من أماكن بعيدة لا أرى مندوحة من أن أدبر لهن مسألة الغذاء بالمدرسة وقد عرضت على المتعهد فقبل أن يقدم لهن الغذاء لكل تلميذة مقابل ثلاثين قرشاً تدفعها شهرياً، ونظراً لأن أهالى التلميذات قد ضجرن بالشكوى منذ زمن بعيد من هذه المسألة فقد رأيت أن تنفيذها لا يكلف الوزارة شيئاً وينفع التلميذات فى الوقت ذاته وقد جمعت منهن فعلاً المبلغ المطلوب للغذاء وسلمته للمتعهد وهو مستعد أن يقدم لهن الغذاء فى أول الشهر فإذا رأت الوزارة غير ذلك الرأى فلتكتب لى بسرعة قبل ذلك الميعاد حتى أستطيع منع هذا".

كتبت ذلك الخطاب فى الأسبوع الأخير من الشهر وأنا أعلم أنه لن يقرأ قبل أن يمر من الشهر الجديد أسبوعان على أقل تقدير وهكذا بدأت الغذاء وعرض الخطاب على ذوى الشأن فى أواخر الشهر الثانى وخجلوا أن يقولوا إنهم لم يطلعوا على الخطاب فى الوقت المناسب للرفض فاضطروا إلى إقراره، وهكذا ظفرت بما أريد رغم عدم ميل الوزارة إليه.

واحتجت فى بعض الأحيان إلى غرف أزيدها على مبانى المدرسة وكانت المدرسة فى بناء مستأجر تابع لوزارة الأوقاف وكان يحيط بذلك البناء منازل أخرى تابعة لوزارة الأوقاف أيضاً.

وكتبت إلى الوزارة لتخابر الأوقاف فى أن تؤجر لنا منزلاً معيناً من تلك المنازل التى تحيط بنا، وتلكأت وزارة الأوقاف فى إجابة الطلب، وعرضت الأوراق على المرحوم فتحى باشا وكان مشهوراً بتصرفاته المدهشة العجيبة ولما قرأ فى خطاب وزارة المعارف أنها فى أشد الحاجة إلى استئجار ذلك المنزل بأسرع ما يكون كتب عليه وهو يبتسم كلمة "طظ" وهكذا كلما عرض عليه أمر استئجار ذلك المنزل كتب عليه تلك الكلمة المأثورة وأخيراً ذهبت إليه وقلت له: إنك تعلم يا معالى الوزير أنى أنا الناظرة المصرية

الوحيدة فأنا أفتتح الآن طريق المصريات ولو أن ملف تلك المدرسة عرض عليك وفيه إشارة من ناظرة إنجليزية لنفذت لها معاليك ما تريد. وخجل المرحوم بعض الشيء وقال: لو أنى أعلم أن ناظرة تلك المدرسة مصرية لنفذت ذلك من زمن بعيد، وطلب الملف وكتب عليه بالتصريح بتأجير المنزل لوزارة المعارف بأسرع ما يكون.

ولكن المنزل لم يكن خالياً بل كان مسكوناً، وقال لى مأمور الأوقاف فى الإسكندرية إنهم لا يستطيعون عمل شىء لإخراج الساكن بالسرعة المطلوبة لأن بيده عقداً ولأنه يدفع الإيجار فى مواعيده فذهبت إلى الرجل ورجوته فى أن يخلى لنا المنزل وبحثت له عن منزل آخر من منازل الأوقاف أيضاً بأجر أقل من منزله وعرضته عليه ولكنه رفض وتعنت، وقد كان المنزل ملاصقاً للمدرسة فأفهمته أن المنزل مطلوب للحكومة وأن الحكومة تعمل كل ما تريد دون أن يستطيع أحد أن يعارضها "كلام فارغ" وكان الرجل جاهلاً لا يستطيع تكذيب ما أقول ولكنه مع ذلك تعنت ورفض أن يترك المنزل، وفى اليوم التالى لمقابلتى له أحضرت أحد البنائين ففتح باباً فى غرفة من غرف المدرسة ملاصقة لذلك المنزل وإذا بذلك الباب الذى فتحناه يؤدى إلى غرفة نومه وإذا به يرى أن غرفة نومه تهدم وأن المدرسة قد اتصلت به، فرجانى أن أكف عن تتميم فتح الباب إلى أن ينقل عفشه، ونقل عفشه فى الحال إلى المنزل الذى اخترته له.

وهكذا كنت أنفذ أوامرى بكل طريقة ممكنة وغير ممكنة فكنت كناظرة أقوم مستقلة بعملى أعمل لإصلاح المدرسة ما استطعت إلى ذلك سبيلا حتى كنت أعمل ما يراه غيرى غير ممكن. أما كمفتشة فليس لى التنفيذ ولا العمل مستقلة وكل ما أستطيع عمله هو تقديم تقارير واقتراحات تتضخم بها دواليب وزارة المعارف دون أن يقرأها أحد، ولقد عرفت ذلك من تجارب كثيرة إذ كنت أرى تقرير المفتش يأتينى وعليه إشارة مراقب التعليم والوكيل بأمل اتباعه وبعد شهر من تاريخ ذلك التقرير يأتينى تقرير آخر يناقضه وعليه نفس الإشارات مع العلم أنى لا أستطيع تنفيذ التقريرين ويعارض كلاهما الآخر. إذن تقارير المفتشين كانت لا تتبع إذا تعقل الناظر وأراد أن لا يسير سيراً مضطرباً متناقضاً، أو تنفذ لمدة شهر إذا كان الناظر عديم التفكير ثم يمحوها تقرير آخر ولهذا كنت أكره أن أعمل فى التفتيش الذى لا أثر له فى إصلاح التعليم

ولهذا كله رفضت الوظيفة التى عرضها علىَّ ذلك المفتش ورفضت العلاوة أيضاً ومقدارها ٩ جنيهات شهرياً وسافر المفتش ممتعضاً ثم عاد فعرض علىَّ أن يكون مرتبى فى التفتيش ٤٠ جنيهاً ثم ٤٥ ثم ٥٠ جنيهاً وأنا أرفض كل ذلك العرض.

وأخيراً غضب المفتش وقال: لقد جعلتنى أشك فى تصرفك كناظرة. قلت: إذن أنت تتهمنى بأنى أستفيد من المدرسة أو من الأغذية التى تصرف للمدرسة مبلغ ٢٤ جنيهاً شهرياً هذا إذا عملت المدرسة ١٢ شهراً وهى لا تعمل إلا ٨ شهور؟ فعظم المبلغ المعروض علىَّ يدلك على أنك مخطىء، أما رأيى فيك بعد ذلك فهو أنك لست بمعلم بل أنت دعى على المهنة ولقد قرأت لأحد الأساتذة الإنجليز عبارة يقول فيها "تتقدنى كلية كذا على عمل لو أنها منعته عنى لنقدتها لتعطينى إياه" وأنا كذلك الأستاذ تعطينى وزارة المعارف مبلغ ٢٦ جنيهاً شهرياً على عمل أنا أحبه ولو أنى غنية لأعطيتها ٣٠ جنيهاً لأستمر فى ذلك العمل فمرتبى إذن ٥٦ جنيهاً والعمل أحبه وأنت اليوم تعرض علىَّ عملاً مبغوضاً بمرتب خمسين جنيهاً فرفضى فى محله لا غبار عليه لمن يفهم مهنة التعليم، وخرج الرجل من مكتبى غاضباً وبعد ذلك ببضعة أيام استدعانى المغفور له يحيى إبراهيم باشا وكان وزيراً للمعارف وقال لى: "لست ممن يكذبون ويدعون أنهم يعارضون الإنجليز فيما يريدون، بل أنا رجل صادق، أقول لكِ إنه ليس فى مصر وزير يقف أمامهم ويبقى فى كرسيه دقائق بعد ذلك والإنجليز لا يريدون أن تكونى ناظرة وهم أيضاً لا يريدون الإضرار بكِ وقد عرضوا عليكِ مرتب ٥٠ جنيهاً لإرضائك، ورفضك هذا معناه أن أضطر أنا إلى إيذائك أو إخراجك قهراً من العمل وهذا ما لا أحبه" قلت: شكراً يا سيدى لم أكن أعلم ذلك، ولو علمته من قبل لقبلت ما عرض علىَّ، وأنا اليوم أقبله، وشكرت للرجل صدقه وإخلاصه فإنه لا يضر المصريين إلا أولئك الوزراء الذين يتشدقون بمقاومة الإنجليز فيما يريدون وهم فى الباطن أضعف بكثير من أولئك الذين يقولون الحقيقة لأن الذى يقول من وراء الإنجليز إنه يقاومهم يضطر أن يستر قوله هذا بطاعتهم طاعة عمياء لا نقاش فيها، أما الذين يصرحون بإطاعة الإنجليز فقد يدفعهم هذا التصريح إلى رجاء الإنجليز فى تعديل أوامرهم ولو قليلاً محتجين برغبة الشعب ولأنهم هم أصدقاء الإنجليز الذين لا يريدون لهم إلا كل خير.

وهكذا نفعنى ذلك الرجل العظيم بتصريحه وعدت إلى الإسكندرية وزارنى صاحبى المفتش فى اليوم التالى وسألنى عن رأيى فى العرض الذى عرضه. قلت لقد قبلت العرض مع الشكر قال إنك لم تقبليه حتى خاطبك الوزير. قلت: نعم لأنه كلمنى باللغة العربية "بالعربى" ففهمته ولم يفهم الرجل مضمون العبارة "العربية" التى أردت بها الصراحة. فقال ولكنك تحسنين اللغة الإنجليزية، قلت نعم ولكنى أحسن اللغة العربية أكثر من ذلك ولا أفهم الحقائق إلا بها. وهكذا قلت ما أريد دون أن يفهمه الرجل ونقلت بقدرة من لا أدرى إلى التفتيش.

كيف كانت خطتى فى التدريس؟

أرى وقد نقلت إلى التفتيش أن أذكر لقراء ذكرياتى كيف كانت خطتى فى التدريس قبل أن أعمل فى التفتيش.

أردت أن أجرب تدريس الحساب بنفسى لأرى نتيجة الطالبات إذا اتبعت المعلمة معهن التفكير المنطقى السليم فدرست الحساب للسنة الأولى وكنت آخذهن بالمنطق لا بالقواعد فقلت لهن إن المعاملات فى الدنيا لا تخرج عن حالتين إما أن يضم الإنسان شيئاً إلى سامعه وهذا يسمى "جمعاً" وإما أن يعطى غيره شيئاً مما معه وهذا يسمى (طرحاً) وليس فى الحساب إلا هاتان العمليتان أخذ وعطاء ولكننا نسمى جمع الأعداد المتشابهة ضرباً وبدلاً من أن أجمع ٥ على نفسها ست مرات أضرب ٥ X ٦، كما نسمى طرح الأعداد المتشابهة من عدد قسمة فإذا قسمنا ٣٠٠ على ٢٥ فنحن نطرح ٢٥ من ٣٠٠ ونبحث عن كم مرة يمكن طرح ٢٥ منه فخارج القسمة وهو ١٢ معناه إننا استطعنا أن نطرح ٢٥ من العدد ٣٠٠ اثنتى عشرة مرة وهكذا سرت مع الطالبات بطرق غير مستعملة لا أرى أن أشرحها فى ذكرياتى الآن وترتكز كلها على المنطق السليم والتفكير الصحيح فكان من نتيجة ذلك أنى عندما وصلت بطالبات السنة الأولى إلى السنة الثالثة كن أقوى تفكيراً وأدق منطقاً فى الحساب من طلاب البكالوريا.

وتصادف أن كان من بنات الإسكندرية نفسها سبع طالبات فى مدرسة بولاق رسبن فى امتحان الكفاءة فنقلتهن الوزارة إلى مدرستى بالورديان وكانت هذه أول سنة فتحت فيها المدرسة السنة الثالثة فلم يستطعن السير مع طالباتى لا فى الحساب ولا فى اللغة العربية أما فى الجغرافيا والتاريخ فكن يفهمنها حسب اعتقادهن كما يفهمها طالباتى لأن درس التاريخ لا يرتكز كثيراً على المعلومات السابقة فقد تدرس نابليون بنجاح دون أن يعرف الطلاب تاريخ جان دارك.

أما الحساب واللغة العربية فمجهود الطالبات فيهما يرتكز على المعلومات السابقة

وكيفية فهمهن لأصول المادتين ولهذا تضايقت الطالبات السبع وظنن أنهن لا يستطعن السير مع طالباتى فى الحساب واللغة العربية كما ظنن إنهن أقوى من طالباتى فى الجغرافيا والتاريخ فكتبن إلى الوزارة يتظلمن لها ويقلن إن طالبات مدرستى قد أنهين مقرر السنة الثالثة فى الحساب فى السنة الثانية كما أنهن يقرأن فى اللغة العربية فى كتاب قواعد اللغة مع أن المقرر عليهن هو الجزء الثالث من الدروس النحوية.

وشاعت قدرة أعدائى أن يقوموا ويقعدوا لهذا الخبر وأن يحرضوا جناب المستشار على إرسال مفتشة إنجليزية لتحقيق هذا الأمر وجاءت المس بيلى ومعها المرحوم كيلانى بك وكان مفتشاً للتعليم الأولى بالإسكندرية ولم يخبرانى بشىء ولكنه جلس معى ودخلت هى الفصول وبعد ساعة أو أكثر عادت الآنسة بيلى وهى تقول لقد تحققت من صحة شكوى الطالبات السبع المنقولات من القاهرة إلى هنا لأنى رأيت فى درج إحدى الطالبات كتاب قواعد اللغة العربية مفتوحاً مما يدل على أنها تستعمله. كما عرفت من الطالبات أنفسهن أنهن أنهين مقرر السنة الثالثة فى الحساب وهن فى الثانية. وأدهشنى ذلك القول منها فقلت لها: ولماذا تكلفين نفسك استنباط أشياء كان فى وسعك معرفتها منى أنا شخصياً لو تكرمت بسؤالى عنها؟ فطالبات مدرستى قد أنهين مقرر السنة الثالثة فى السنة الثانية ولا ريب فى هذا، وهن أيضاً يقرأن فى كتاب قواعد اللغة العربية ولو أنك شرفت المدرسة فى الحصة الأولى لوجدت الكتاب فى أيديهن.

قالت: ولم إذن تخالفين منهج التدريس؟

قلت: لم أخالفه يا سيدتى. لأن المنهج نص على تعليمهن الاشتغال والندبة وجموع التكسير وغير ذلك من الأبواب التى لا وجود لها فى الكتاب الثالث الذى وزعته الوزارة عليهن، وقد رأيت بدلاً من ضياع الوقت فى إملاء تلك الأبواب عليهن ونحن فى عصر السرعة أن يشترين كتاب قواعد اللغة، والكتاب ليس من تأليفى ولا من تأليف والدى حتى يظن أن لى غرضاً شخصياً من أن تشتريه الطالبات بل هو كتاب تبيعه وزارة المعارف فالربح عائد إليها وغرضى هو عدم ضياع أوقات الطالبات فيما لا يفيد، قالت: ولكنك خالفت المنهج. قلت: وكيف ذلك؟ قالت: لأن المنهج نص على أن تكون هذه

الأبواب حسب ما فى الكتاب الثالث، قلت: إن هذه الأبواب يا سيدتى غير موجودة فى الكتاب الثالث، فكيف نعطيها حسب ما فى الكتاب الثالث؟ إنه كلام لا قيمة له ولا معنى ولو أنك رجعت إلى مذكرات طالبات معلمات بولاق لوجدت أن المعلم قد أملى عليهن تلك الأبواب من كتاب قواعد اللغة بالحرف الواحد. قالت: كلا.. إنه يبسطها إلى حد الكتاب الثالث. قلت: إنى قد علمتك اللغة العربية يا سيدتى ومع ذلك فيظهر لى الآن أنك تعرفين فيها أكثر مما أعرفه أنا فهل لكِ أن تبسطى هذه الأبواب أو تأمرى معلماً بتبسيطها لأتعلم منك ما تريدين؟ قالت: وما رأيك فى الحساب وقد خالفت فيه المنهج صراحة؟ قلت: كلا لم أخالفه فإن المنهج قد ذكر أبواباً فى السنة الأولى أو فى السنة الثانية فعلمت كل ما ذكر وزدت عليه فأنا لم أخالف المنهج ولكن منهجكم ناقص وكان الواجب أن يقول: "ومحظور إعطاء غير ما ذكر" ولكنه لم يفعل. قالت: ولكنك بإنهائك منهج السنوات الثلاث فى سنتين تخلين بطرق التربية الصحيحة لأنك لم تسيرى فى تدريسك خطوة خطوة. قلت: لك الحق فى ذلك يا سيدتى، فأنا على ما يظهر قد درست مقرر السنة الأولى فى أربعة شهور بينما درستم أنتم فى مدرسة بولاق على ما يظهر لى فى ثلاث سنوات وإذا كان السير بالطالبات خطوة مفيد كما تظنين فأنا أطلب منك إجراء امتحان لطالباتى وطالباتكم فى مقرر السنة الأولى فقط فإن نجحت طالباتكم وجب علىَّ أن أغير خطتى، وإن نجحت طالباتى كان عليكم أنتم أن تغيروا خطتكم. قالت: ستنجح طالباتك لا مراء لأنك موهوبة فى الحساب ولكن المدارس الأخرى لو سارت على نهجك لفشلت؟ قلت: وهل طلبت منكم أن تسير المدارس الأخرى على نهجى؟ وما دمت أنا ناجحة فى طريقتى فكيف تنتقدوننى فيها؟ وطال بينى وبينها الجدال وأخيراً كلمت المستر دانلوب تليفونياً فقلت له: إن جناب المس بيلى تحقق معى فى تهم أنا معترفة بها ولا أرى مع هذا الاعتراف وجهاً للتحقيق فالمسألة أنى سرت فى طريقى على كيت وكيت والأمر بيدك إن شئت سمحت لى بالأمر فيما أفعل وإن شئت عاقبت بما تريد ولست أنوى التحول عن رأيى فاسحب مفتشتك واعمل ما تراه صالحاً، قال: سأحملك فى النهاية تبعة فشل هؤلاء الطالبات إذا لم تنجحى فى طريقتك. قلت: وهو كذلك وناولت سماعة التليفون للآنسة المفتشة فطلب منها أن تترك المدرسة.

وبعد أسبوع من ذلك التاريخ زار المدرسة مفتش إنجليزى لا أعرفه وكانت مهمته امتحان السنة الثالثة ودهش لسرعة الطالبات فى الإجابة مع صحة الجواب، بقى معهن ما يزيد على حصة كاملة ثم انتقل إلى مكتبى، فقال: لقد تحققت أن لكِ طريقة شاذة فى تدريس الحساب لا تتبعها المدارس الأخرى ولهذا أرجو أن تسيرى على نهج المدارس الأخرى حتى يكون بينكم وحدة فى التعليم، قلت: أرجو أن تخبرنى عن رأيك فى طالباتى وطالبات المدارس الأخرى أيهن أقوى تفكيراً وأكثر استعداداً؟ قال: إن طالباتك أقوى المدارس الأخرى بلا جدال. قلت: إذن فاطلب من المدارس الأخرى أن تتبعنى. قال: لقد استدرجتنى إلى ما لا أريده. قلت: إنما استدرجتك الحقيقة التى لا مراء فيها.

أخذت الوزارة تتكلم فى مسألة قوة طالباتى فى اللغة العربية والحساب وضعفهن فى التاريخ والجغرافيا حسب ما كانوا يظنون وأجمعوا رأيهم على أن يكون امتحان الكفاءة سهلاً جداً فى اللغة العربية والحساب وصعباً فى التاريخ والجغرافيا إلى حد الإعجاز حتى ترسب جميع طالباتى وفات منطقهم الصحيح أن صعوبة أسئلة التاريخ تأتى من أن يختار واضع الأسئلة موضوعاً عقلياً لا وجود له فى الكتب التى بأيدى التلاميذ، أقصد لا وجود له فى صفحة واحدة لأنه يتطلب مقارنة أعمال الملك فلان بأعمال غيره من وجهة كذا وكذا ومثل هذه الأسئلة تحتاج إلى فكر وإلى مقدرة فى الإنشاء، وهو ما كان فى طالباتى دون غيرهن، ولهذا ما كادت أسئلة التاريخ توزع على الطالبات فى مدرسة معلمات بولاق حتى صرخن وولولن قائلات إنهن لم يأخذن شيئاً منها وأخذ المفتشون يهدئون روعهن ويشرحون لهن الأسئلة دون جدوى وأخيراً اتصل رئيس لجنة مدرسة بولاق برئيس لجنة مدرستى بالإسكندرية وسأله عما تم له فى لجنتى فأجابه لا شىء والطالبات تكتب كتابة قيمة بلا انقطاع. فعجبوا لذلك، وكان رسوب طالبات معلمات بولاق ٤٠ طالبة من ٨٠ فى التاريخ وحده ولم ترسب من مدرستى واحدة، وما كان يعثر أحد من المصححين على ورقة جيدة فى التاريخ حتى يقول هذه ورقة من الإسكندرية.

وهكذا خاب ظنهم.

ولعل هذا كان من بين الأسباب التى جعلتهم يفكرون فى نقلى من ناظرة مدرسة الورديان إلى التفتيش.

عملى بالوزارة

حضرت إلى الوزارة وعرفت مما سبق أن الإنجليز وهم أسياد البلاد لا يريدون مجهودى كناظرة مدرسة ولا أدرى لم كانت هذه الرغبة؟ ولعل ذلك لأنى كنت أول ناظرة مصرية تولت رياسة مدرسة معلمات فى الوزارة وقد كانت مدرستى فى ذلك العام أولى مدارس المعلمات الأخرى مع حداثة عهدها فأخذ الناس يوازنون بين مجهود الناظرة الإنجليزية التى كانت تدير مدرسة معلمات بولاق منذ زمن بعيد وبين الناظرة المصرية وهى حديثة العهد بنظارة المدارس. وكتب بعضهم شيئاً من تلك الأفكار فى الصحف اليومية ولعل هذا كان السبب المباشر فى تمسك الإنجليز بإخراجى من وظيفة ناظرة وجعلى مفتشة والمفتشة لا يمكن أن يعرف مجهودها أو يظهر له أثر خصوصاً إذا كانت الوزارة لا تؤيدها فى عملها. على أنه قد ظهر لى فيما بعد أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد بل إن خصومى من رجال الوزارة الذين كنت أندد بمسلكهم وأعدد لهم الوقائع الصحيحة الدالة على انغماسهم فى الرذائل...

أرادوا أن يظهروا للإنجليز براءتهم من تلك الرذائل وأنى أقول عنهم - أى الإنجليز - كيت وكيت وأنى أحرض الناس ضدهم، ليحملوا الإنجليز على كراهيتى وعدم تصديقى فيما أقول، وهكذا تم لهم ما أرادوا وأيد افتراءاتهم ذلك المفتش الإنجليزى بأكاذيبه.

علمت ذلك فعلمت أنه لا يراد بى خير وأنهم وهم يخشون من نفوذى وقوتى فى مدرسة واحدة لا يمكن أن يقووا ذلك النفوذ فى جميع المدارس بل لا بد أن أعارض فى كل ما أريد. لهذا نويت أن لا أعمل وأن أنفذ لهم رغباتهم مهما كانت رغباتى وميولى:

إذا لم يكن غير الأسنة مركباً ـــ فما حيلة المضطر إلا ركوبها

حضرت إلى الديوان فاستدعانى المغفور له المغربى باشا وكان المعروف أنه يعرف من نوايا الإنجليز ما لا يعرفه غيره، وكان مستشار المعارف فى ذلك الوقت المستر «باترسون» الذى كان بعد ذلك مستشاراً للمالية فلما دخلت على المغربى باشا قال لى

(إنه مسرور جداً من تعييني مفتشة لما يعلمه من انتقاداتى الدقيقة التى لا تترك من عيوب التعليم شاردة ولا واردة) علمت من ذلك الكلام أنهم يريدون منى أن أنتقد المعلمين بشدة وأن أدقق عليهم كل التدقيق حتى إذا زرت عدداً عظيماً من المدارس اطلعوا على تقاريرى وعاقبوا كل من ذكرت عنه شيئاً من العيوب بخصم جزء من مرتبه وذلك بناء على ما جاء فى تقرير حضرة السيدة نبوية موسى المفتشة بالوزارة.

ولا شك أن المعلمين إذا فوجئوا بذلك العقاب سيتغيثون بالوزارة من تلك المفتشة ويطلبون عدم تفتيشها عليهم، وهذا كل ما تريده الوزارة لأنها لا تريد مجهودى فى أية ناحية من نواحى التعليم.

زرت بعد ذلك مائة مدرسة فلم أنتقد شيئاً فى تقاريرى عن معلمة أو معلم بل كنت أنصح المعلمين والمعلمات وأنتقدهم شفوياً ولا أدون شيئاً عن هذا فى تقاريرى. وعندما قمت بتفتيش ذلك العدد من المدارس خاطبنى المرحوم مغربى باشا تليفونياً وقال لى ما هذه التقارير التى كتبتها؟ قلت: وهل قرأتها سعادتك؟ قال: نعم. قلت: ذلك ما ظننت من قبل كتابتها، وهل تقرأ سعادتك كل تقارير المفتشين والمفتشات؟ قال: لا! ولكنى أقرأ المهم، فقد كنت أظن أن تقاريرك مهمة أما الآن فتقارير كهذه من شأنها أن تجعل المعلم يضع قدمه فوق رءوسنا قلت: لعل هذا يا سعادة الباشا كل ما أردته أنا، قال: ولكنى بعد هذه التقارير قد غيرت فكرى فى جهودك وذكائك. قلت: لا يجوز لك هذا. والله لولا ذكائى ما كتبتها على تلك الصورة لأنى إنما كتبتها لك لا للمعلمين حتى لا أعطيك فرصة عقابهم ودفعهم بذلك العقاب إلى الشكوى منى. وضحك المرحوم ضحكة عالية وقال "الله يجازيكِ هو أنتِ بتسحرى" ثم استمر يقول: ولكنك على كل حال قد ضيعت اعتقاد الناس فيك بهذه التقارير. قلت: سأرد ذلك الاعتقاد إلى ما كان عليه بكتابة تقرير إجمالى أشرح فيه عيوب تدريس المواد المختلفة بمدارسكم دون أن تستطيعوا عقاب أحد، وكتبت تقريراً مطولاً عن تدريس جميع المواد بالمدارس أظهرت فيه أن الرقابة على تدريس تلك المواد غير موجودة، وأن التدريس غير مجد وأن ذلك كله يرجع إلى تصرفات غريبة من ولاة الأمور أنفسهم، وأطلعوا المستشار على ذلك التقرير بعد أن ترجموه له، وكان كما أظن لا يريد أن أفتش أنا على المدارس، فأراد أن يتخذ من ذلك

التقرير وسيلة إلى بلوغ ما يريد من إبعادى إبعاداً كلياً عن التعليم، فاستدعانى وقال لى فى شىء من الشدة: إ هذا التقرير لا يتفق وآراء المس بيلى. قلت: أتعلم جنابك أنى أنا التى علمت المس بيلى اللغة العربية؟ قال: لا. قلت: سلها، فهى لا تنكر ذلك. قال: وما أهمية ذلك فى الموضوع؟ قلت: إن الدرس التى انتقدها هى اللغة العربية وما يدرس بها وعلى مس بيلى أن تتبعنى فيها لا أن اتبعها أنا. قال: ولكنها المفتشة الأولى. قلت: وماذا تريد منى جنابك؟ قال: أريد أن تنتقدى الدروس حسب آرائها لا حسب آرائك أنت. قلت: وكيف يتسنى لى ذلك؟ أمعنى هذا أنى أفتش المدرسة ثم أعود فأخبر المس بيلى عن كل ما رأيته فيها لتملى علىَّ انتقاداتها هى عما رأيته أنا؟ ولو أنى فعلت ذلك لكان عمل المفتشتين هو عمل مفتشة واحدة. كما انه يصبح عملاً معقداً لا قيمة له، وإنى بناء على ما تقول أظن أن جنابك لا تريد أن أعمل فى التفتيش. قال: أو تقبلين ذلك؟ قلت: ولم لا أقبله ما دامت هذه إرادتك أنت وما دمت تعطينى مرتبى كاملاً. قال: نعم، سأعطيك المرتب كاملاً وسأمتعك أيضاً بالعلاوات دون أن تعملى. قلت: لك منى ألف شكر على هذا، وسر الرجل من الاتفاق الذى تم بيننا وشكرنى جزيل الشكر وأوصلنى إلى خارج باب غرفته وهو يضغط على يدى ويقول: أشكرك.

وكانت الوزارة قد أعدت لى مكتباً خاصاً وساعياً خاصاً فبقيت فى ذلك المكتب ٦ شهور لا أعمل شيئاً للوزارة ولكنى كنت أكتب فى الأهرام مقالات أنتقد فيها نظم التعليم فى وزارة المعارف وأمهرها بإمضاء (ضمير) وأخيراً استدلوا على كاتبة المقالات وأخبروا المستشار بذلك وقدموا له مقالة منها منشورة فى الأهرام فاستدعانى وقدم لى المقال بعد أن لفت نظرى إلى الإمضاء وقال من كاتب هذا المقال؟ وكان جنابه يظن أنى سأتنصل منه ولهذا أعد الإجابة على جوابى شيئاً من السب والاحتقار كقوله (إنكم أنتم المصريين كذابون جبناء) وكم كانت دهشته شديدة عندما أجبته بعدم اكتراث إنى أنا كاتبة ذلك المقال. وقد أخذته الدهشة فبقى بضع دقائق دون أن يقول شيئاً ثم قال بعد أن خفت دهشته: وهل تبقين بعد هذا فى وظيفتك؟ قلت: ولم لا يا سيدى وهذا مقالى يشهد أنى لم أقل فيه من سفيه الألفاظ أو المعانى ما يعيب شخصاً أو يقلل من كماله إنه نقد برىء لطرق التعليم يا سيدى، فإذا كان قد ترجم خطأ فاتركنى أترجمه لك،

وأنت هنا مستشار التعليم تقول إنك ما جئت إلا لإصلاحه فهل يغضبك أنى أرشدك إلى ذلك الإصلاح أو أمهده لك كشخص من أتباعك يهمه أن يمهد لك ما تريد؟ قال: ولكنى لا أريد أن تكتبى فى الصحف. قلت: ولكنك لم تخبرنى بذلك حتى الآن. قال: لا بأس وأنا أمنعك من الآن من الكتابة. قلت: ولكنك يا سيدى تطلب منى دائماً المستحيل، إنك منعتنى من العمل فى التعليم الذى أعدتنى ثقافتى له، وجعلتنى أقيم فى غرفة كسجينة لا عمل لها وأنا أسلى نفسى بتلك المقالات وأعدها واجباً من واجبات التعليم التى يجب علىَّ القيام بها ومن الصعب بل من المستحيل أن أبقى فى غرفة بالوزارة بلا عمل فإذا كنت تريد منى أن لا أكتب فاسمح لى أن أخرج من تلك الغرفة وأن أذهب إلى حيث أريد وأن أعمل ما أريد، ومادمت أنت فى غنى عن مجهودى دون ذنب منى فيجب يا سيدى أن تصرف لى مرتبى كاملاً دون أن أحضر إلى الوزارة بل ودون أن أرتبط بالبقاء فى القاهرة. قال: لكِ هذا، اذهبى حيث تريدين واعملى ما تريدين، ومرتبك مضمون لكِ وحفظ الرجل وعده هذا فلم يخل به وخرجت من عنده علي هذا الاتفاق وفى اليوم التالى تركت القاهرة إلى الإسكندرية.

إنشاء مدرسة ترقية الفتاة

كنت قد تعرفت إلى كثير من سيدات الإسكندرية فى أثناء الحركة الوطنية من أشهرهن صاحبات العصمة حرم سليمان بك يسرى القاضى بمحكمة الاستئناف ومحمد بك درويش المستشار وعبد الرحمن بك سعد أحمد المستشار أيضاً وغيرهن وكن قد زرننى وأنا بمدرسة المعلمات وأظهرن لى رغبتهن فى العمل لصالح مصر وكان ذلك فى سنة ١٩١٩ فشرحت لهن أن التظاهر والمسير فى الطرقات لا يناسب كرامتنا كسيدات شرقيات وأن فى استطاعتنا أن ننفع بلادنا بطرق أخرى كالسعى الجدى فى نشر التعليم بين الفتيات لأن البلاد كانت فى أشد الحاجة إليه ومع أن مثل هذا العمل كان عملاً سلمياً لا يمكن أن يتعرض له أحد فهو عمل مجيد ينفع البلاد نفعاً جزيلاً ويبقى أثره بعد الحرب فلما اتفقت مع المستشار على مغادرة القاهرة عدت إليهن فوجدتهن على استعداد عظيم للعمل معى وقد ساعدتهن الزعيمة المحترمة صاحبة العصمة هدى هانم شعراوى وقمن بعمل حفلة عظيمة جمعن بها مبلغاً من المال فلما أخذن رأيى فى كيفية التصرف فيه قلت لهن أن يشترين بهذا المبلغ أدوات مدرسية وأن يستأجرن منزلاً لفتح مدرسة أهلية للبنات وتم الاتفاق وذهبت أنا مع أحد أزواج صاحبات العصمة أعضاء جمعية "ترقية الفتاة" وهو الاسم الذى اخترناه لهذه الجمعية وأمضى عزته عقد الإيجار. وقد شعر قلبى فى هذا الوقت بخطر أُستهدف أنا شخصياً إليه إذا كنت أنا التى سيعهد إلىَّ بإدارة المدرسة.

ودار البحث بين أعضاء جمعية ترقية الفتاة على كيف تدار المدرسة ومن الذى يتولى ماليتها وغير ذلك ثم أجمع أغلب الأعضاء رأيهن على أن تتولى الجمعية نفسها مالية المدرسة وأن أقوم أنا بإدارتها. ولما كنت أعلم أن الجمعية تديرها سيدات بعيدات عن العمل لا بقاء لها كثيراً لاختلافهن فى الرأى وعدم صبرهن على إدارة المدرسة. فقد رفضت وقلت إنى أنا شخصياً لا أقبل أن أوظف تحت عشر سيدات لا يبعد أن

يختلفن بعد شهرين وأن يغلقن المدرسة لهذا الاختلاف ولكنى مستعدة إذا هن سلمننى الأدوات التى اشتريت أن أسلمهن إيصالاً بها على أن أردها إليهن يوم أعجز عن فتح المدرسة أما إذا فتحت المدرسة وسارت فى طريقها فليس لهن أن يطالبننى بتلك الأدوات ما دامت المدرسة مدرسة. وأن أقوم أنا بإدارة المدرسة دون أن آخذ من الجمعية شيئاً وأن أكون مسئولة عن ماليتها فعلى غرمها أو لى غنمها وليس لهن حق التدخل فى تلك الإدارة ورفضت معظم السيدات هذه الشروط كما رفضت أنا أن اشتغل معهن على غيرها. . وفى صباح ليلة هذا الاجتماع جاءنى جماعة من أزواجهن يناقشوننى فى الموضوع فقلت لهم إن السيدات أعضاء الجمعية ليس لهن غرض مالى وإنما غرضهن هو إحياء تعليم الفتاة فى الإسكندرية وقد اشترين هذه الأدوات البسيطة التى لا تفى فى الواقع لفتح مدرسة ولكنها تصح أن تكون نواة لفتح ذلك العمل العظيم.

وأنا لا أستطيع القيام بإدارة المدرسة ما لم يكن فى يدى وحدى ماليتها لأن الإدارة بلا مال لا يمكن أن تأتى بالنتيجة التى يرغبها المدير وماذا يكون موقفى إذا طلبت من السيدات تعيين معلمة بمبلغ كذا من المال أو تعيين عدد كذا من المعلمات فرفضن ذلك لقلة المال لديهن فهل أستطيع فى تلك الحالة أن أدير المدرسة بنجاح؟ كلا أيها السادة. إننى أقبل أن أكون أنا من يتولى إدارة المالية دون تدخل أى شخص آخر وأن تتولى السيدات إدارة المدرسة الفنية لأنى بالمال الذى بيدى أديرها بكل نجاح رغم كل معارضة منهن أما أن يكون بيدهن المال وبيدى الإدارة فأمر لا أفهمه لأن إدارة بلا مال لا معنى لها، وتردد حضرات البكوات الذين تكلمت معهم فى هذا الأمر فى قبوله ونظراً لإصرارى على عدم الاشتراك فى المدرسة إلا بهذه الشروط اضطروا إلى قبولها وكتب عقد اتفاق بيننا أى السيدات أعضاء الجمعية على تلك الشروط كما كتب كشف بالأدوات التى سلمت إلىَّ واشترطت أن أردها إليهن يوم أعجز عن الاستمرار فى إدارة المدرسة.

أقمنا حفلة افتتاح باهرة حضرها كثير من أعيان الإسكندرية بفضل نفوذ السيدات أعضاء جمعية "ترقية الفتاة" وجعلت مصروفات تلك المدرسة أكثر من مصروفات مدارس الحكومة نفسها ومع ذلك فقد كان الإقبال عليها عظيماً جداً ونشرت الجرائد

أخبار تلك الحفلة مشيرة إلى أن نبوية موسى المفتشة بوزارة المعارف هى التى تتولى وحدها إدارة المدرسة وقرأ رجال وزارة المعارف الخبر واندهشوا له لأنه فى نظر كل شخص غريب مدهش فأرسل المرحوم المغربى باشا يستدعينى إليه ولما حضرت عنده عرض علىَّ مجموعة من الصحف وقال: ما هذا الذى تفعلينه فى الإسكندرية؟ قلت: أقوم هناك بما أعدتنى له وزارة المعارف فقد علمتمونى أن أكون معلمة فناظرة وأنا الآن أساعدكم على نشر التعليم مادمتم أنتم فى غنى عن جهودى فى الوزارة وإنى أشعر أنى أؤدى خدمة للأمة نظير المرتب العظيم الذى يصرف لى، أما قبل ذلك فكثيراً ما كان يؤنبنى ضميرى على أخذ مرتب من الحكومة وأنا لا أعمل شيئاً لصالح البلاد.

وها أنا اليوم قد أصلحت ذلك الخطأ فأنا آخذ مرتبى نظير عمل جليل أقوم به فى تربية الناشئات. قال: إذن فادخلى إلى المستشار عسى أن تستطيعى مواجهته بهذا الكلام. قلت: إنى أستطيع إقناعه أكثر مما أستطيع إقناعك أنت. قال: سنرى. ودخلت على المستر باترسون فى مكتبه فقال لى قبل أن يحيينى: ما هذا الذى صنعت. قلت: ليس لك حق فى هذا السؤال إنما هذا السؤال يستطيع أن يقوله حضرة صاحب السعادة المغربى باشا لأنه لا يعلم اتفاقى معك أما أنت فلا حق لك فيه. أبعد هذا الاتفاق تسألنى ماذا صنعت؟ صنعت يا سيدى ما اتفقنا عليه وهو أن أذهب أنى شئت وأفعل ما شئت مادمت لا أكتب بقلمى فى الصحف، قال: ولكنى لم أكن أعلم أنك ستفتحين مدرسة. قلت: وما الذى كنت تعلمه حين قلت لك أنى سأترك الوزارة لأعمل خارجها مادمتم فى غنى عن جهودى فهل كنت تظن أنى سأفتح منجماً للفحم أم متجراً للخشب وأنا لا أعرف من هذا شيئاً.

إنى معلمة يا سيدى فإذا عملت فإنما أعمل للتعليم وإذا كنت أنت قد جهلت ذلك فليس هذا من خطئى أنا بل الخطأ راجع إليك. قال: وماذا نصنع الآن؟ قلت: لا شىء فإنى بناء على وعدك لى صرفت كل ما أملك من المال فى فتح تلك المدرسة ولا سبيل إلى إغلاقها. قال: أو تبرين أنت بوعدك من عدم الكتابة فى الصحف. قلت: نعم يا سيدى إذا حفظت أنت وعدك معى على أن عملى فى تلك المدرسة محال أن يترك لى وقتاً للكتابة فاطمئن من تلك الجهة. قال: فليكن ما أراده الله. ولم يكن المغفور له

مفريى باشا يعلم شيئاً مما تم بينى وبين المستشار سابقاً ولهذا ظن أنى سألقى من المستشار عنفاً فلما عدت إليه قال: كيف رأيت جناب المستشار. قلت: على خير ما يرى الرجال أنه ألين من سعادتك عريكة وأرق قلباً وقد قابلته مقابلة الأصدقاء وافترقنا على ذلك. قال: إنك غريبة مدهشة فى تصرفك، قلت: هكذا أراد الله أن ألقى المدهشات فى حياتى وأن أقابلها بمثلها ثم تركته وعدت إلى الإسكندرية فى الحال.

أول متاعبى فى المدارس الحرة

استأجرنا للمدرسة منزلاً من منازل البارون منشة ويوم استأجرناه كان معى زوج رئيسة الجمعية، وحسب العادة المتبعة فى مصر من تقديم الرجال على النساء قدم إليه العقد فأمضاه وقد شعرت بشىء من القلق من جراء ذلك. وكان رئيس الجمعية هذا كما أحب أن أسميه باختصار قاضياً بالإسكندرية، وكان الشىء الوحيد الذى يهددنى هو أنه مستأجر المنزل وبناء على ذلك يحق له أن يدعى ملكية كل ما فيه من أثاث ولم يكن لى فى ظاهر الأمر دخل فى استئجار المنزل وإن كنت أنا ساكنته وصاحبة الأثاثات الموضوعة فيه ولم نعمل أكثر من ستة شهور حتى حدث ما كنت أتوقعه فإن أعضاء جمعية "ترقية الفتاة" فكرن أن يحولن المدرسة إلى مشغل للخياطة، ولما عارضتهن فى ذلك غضبن منى وسحبن تأييدهن لى ولكنى لم أعبأ بهذا وسرت فى طريقى ونقل رئيس الجمعية إلى قنا أو أسيوط لا أتذكر ولكن الحكومة انتدبته للعمل بالإسكندرية فأصبح نقله اسماً لا معنى له، ودهشنا كلنا لهذا النقل والانتداب فلم ألبث بعد هذا أن بلغنى أن البارون منشة رفع دعوى على رئيس الجمعية بصفته المستأجر يطالبه بإخلاء المنزل وبدفع تعويض قدره مائتا جنيه لأنه غيَّر معالم منزله، وظلت الدعوى بينهما مدة طويلة دون أن أعلم بها لأنه كان يعلنه بالدعوى فى منزله الخاص ولأن رئيس الجمعية لم يخبرنى بشىء من ذلك فلما بلغنى الخبر ذهبت إليه ورجوته أن يعترف بوجودى ولو كخصم ثالث لأنى أنا فى الواقع التى أسكن المنزل وقد وضعت فيه كل أثاث منزلى كما اشتريت كثيراً من الأثاثات المدرسية لأن ما اشترته الجمعية لم يكن يفى بشىء من لوازم المدرسة ولو أن البارون نجح فى دعواه وأخذ حكماً على رئيس الجمعية لاستطاع بهذا الحكم أن يبيع أثاث منزلى والمدرسة فى وقت واحد، وما دام رئيس الجمعية هو المستأجر للمنزل فليس لى أن أدعى ملكية شىء من الأثاث الموجود فيه.

شرحت للرئيس كل ذلك ولكنه رفض أن يدخلنى فى الدعوى أو أن يجعل لى أية

صفة فيها وقال إن البارون يعلم أنه هو المستأجر ولا يجوز لرجل فى مركزه أن يقول إنه إنما أمضى العقد دون أن يكون هو المستأجر الحقيقى وما كان لى أمام إصراره هذا إلا أن أرضخ لما أراد وأن ألاينه فى القول ما استطعت ولكنى فى الوقت ذاته شعرت أنى قادمة على خطر فقدان كل ما أملك وأخذت أبحث عن منزل أستطيع أن أنقل إليه أثاثات منزلى والمدرسة قبل أن تنتهى القضية وقبل أن يحجز على تلك الأثاثات فلم أوفق إلى استئجار منزل يسع المدرسة بأكملها ولكنى وجدت المنزل الذى أملكه الآن وقد نزعت ملكيته وقدم للبيع بالمزاد العلنى ودخل المنزل فى البيع ثلاث مرات فهوى ثمنه من ١٢ ألف جنيه إلى ثمانية آلاف وسبعمائة جنيه وخشى صاحبه أن يباع بأبخس الأثمان وقد كان مرهوناً على مبلغ أربعة آلاف جنيه وقد أراد الراهن بيعه بالمزاد ليستولى على دينه ولكنه لما رأى المنزل لا يقدم على شرائه أحد وقد هوى ثمنه فى بضعة شهور إلى هذا الحد خشى أن يباع بأقل من الدين فاتفق هو والدائن على تأخير البيع لعلهما يجدان شارياً، وذهبت أنا واتفقت مع صاحب المنزل على شرائه بالثمن الذى رسا عليه المزاد وهو ثمانية آلاف جنيه كما اتفقت مع الدائن أن أحل محل صاحبْ المنزل فى الدين على أن يمهلنى ثلاث سنوات فقبل الرجل كما قبل المالك أن يأخذ منى أربعة آلاف وسبعمائة جنيه وأن يبيع لى المنزل تاركاً لى دينه، وعاد الدائن فرفض هذا الاتفاق وقال إنه يريد دينه فوراً وهنا طلبت منه مهلة ستة شهور ريثما أستطيع رهن المنزل فى بنك من البنوك وساعدنى حسن الحظ فاستطعت الاتفاق مع البنك العقارى واتفقت مع البائع على أن أدفع له ألف جنيه عند كتابة العقد الابتدائى للبيع وبعد ٤٠ يوماً أدفع له ألفاً أخرى على شرط أنى إذا لم أستطع دفع ذلك الألف فى ذلك الميعاد أصبح البيع لاغياً وضاعت على الألف الأولى... شرط قاس ولكنى تحملته لأن ظروفى كانت أقسى منه، وكان لى منزل بالزيتون فسعيت فى بيعه حتى استطعت أخيرا أن أبيعه بألف جنيه وكان ذلك قبل حلول الميعاد بثلاثة أيام وتصادف أن أقمت حفلة المدرسة الثانوية فى اليوم السابق لحلول ميعاد كتابة العقد الرسمى كما اتفقنا وكلمنى محامى صاحب البيت بالتليفون ينبئنى أن غداً ميعاد دفع مبلغ الألف جنيه وكتابة العقد الرسمى، قلت إنى مستعدة لدفع الألف جنيه صباح باكر فقال وهل معك ٥٠٠ جنيه لدفع رسوم

العقد؟ قلت كلا ليس معى ذلك المبلغ، قال لقد ضاعت عليك الألف الأولى لأن اتفاقنا كان على أن تدفعى الألف جنيه وأن تكتبى العقد الرسمى ورسوم العقد الرسمى ٥٠٠ جنيه فإذا لم تستطيعى ذلك فقد خالفت الشروط وقد فسخ البيع وضاع عليك العربون.

قلت ولكنى سأعطيك الألف الى تريدها أنت وكتابة العقد الرسمى فى صالحى أكثر منها فى صالحك. قال: لا فائدة من الجدال فى ذلك ولا أقبل إنهاء البيع إلا بكتابة العقد الرسمى ساعة أن تدفعى إلى الألف جنيه واحترت فى أمرى ماذا أفعل وكانت الحفلة ناجحة وقد أعجب بها الناس واضطررت أن أترك التليفون لأشرف على الحفلة وأقابل الزائرين وكنت كعادتى أضحك باسمة لنجاح الحفلة وإن كان فى قلبى ما فيه من الخراب المحدق بى فى اليوم الذى بعده لأنه بلغنى أن البارون قد كسب القضية ضد رئيس الجمعية وأنه ينتظر استخراج صورة الحكم ليحجز على أثاث المدرسة وكنت اود أن أنهى عقد المنزل لأستلمه وأنقل أثاث المدرسة إليه فأهرب من ذلك الخراب المؤكد والآن وقد فسخ الرجل البيع ولا سبيل إلى مبلغ ٥٠٠ جنيه فى تلك الليلة أو فى صباح الغد فقد خسرت كل شىء لأن الألف جنيه الأولى التى دفعتها ضاعت كما سيضيع جميع الأثاث الذى صرفت فى شرائه كل ما أملك. وكنت مع هذا التفكير والضيق الذى كنت أشعر به أقابل الناس بثغر باسم حتى أخذوا يتهامسون قائلين لبعضهم البعض إن كثرة المال تجعلها تتمايل طرباً وسروراً بما نالت حتى لا تكاد شفتاها تنقطعان عن ابتسامات خارجة من قلب مسرور. وخرج الناس فى تلك الليلة ودخلت مكتبى فاعتمدت رأسى بين يدى وأخذت أفكر فى مصيرى فى الغد وكيف أقابل تلك النكبات المتوالية، وبينما أنا على تلك الحال إذا بعمدة بلدتنا قد دخل على وكان الرجل قد باع قطنه بسعر القنطار ٤٠ جنيه وكان لى وسط أرضه عشرة فدادين سبق أن طلبها منى فرفضت بيعها فلما أسعده الحظ ببيع قطنه بذلك السعر المرتفع، جاءنى وبيده عقد بيع عرفى كتبه له مأذون الناحية بثمن خمسة آلاف جنيه لتلك الأفدنة وكان الرجل ينتظر أن أرفض فأخذ يرجونى ألا يخيب أمله وألا أرده إلى البلدة خائباً وما كادت عينى تقع على النقود حتى ضحكت ضحكة من القلب لا تلك التى كنت أتظاهر بها منذ ساعات.

وقلت له بلهفة إنك ضيفى ومحال يا سيدى أن أردك خائباً فشكرنى الرجل وأمضيت له العقد وسلمنى النقود، وفى الساعة التاسعة صباحا كلمت محامى صاحب المنزل تليفونياً وما كاد يسمع صوتى حتى أجابنى بشدة قائلاً «لا فائدة من الكلام يا مدام إن لم يكن معك ألف وخمسمائة جنيه لدفعها اليوم».

قلت: إنى إنما أكلمك لتضرب لى موعداً لنذهب معاً إلى المحكمة لدفع ما تريد» قال «ومن أين أتتك الخمسمائة جنيه وقد أكدت بالأمس أنه لا يوجد معك إلا ألف فقط؟» قلت «ليس ذلك من شأنك يا سيدى فى شىء» وتم شرائى المنزل فى ذلك اليوم. وهنا صدمتنى عقبة أخرى وهى: أن المنزل كان يسكنه ست أسر كلها من الأجانب وكان من الصعب أن أضطرهم إلى الخروج منه وكان البارون على وشك الحجز على أثاث المدرسة إن لم أنقله منها فأخذت أعد العدة لإخراج هؤلاء السكان بأى ثمن كان.

إخراج السكان من المنزل

عرضت على كل ساكن مبلغ خمسين جنيهاً نظير أن يخرج من المنزل فرفضوا جميعاً وأخيراً اتفقت مع ساكن فقير كان يسكن «البدرون» على أن أعطيه ثلاثين جنيهاً وأستأجر له شقة صغيرة وأنقله إليها فقبل منى ذلك وبعد أن استأجرت الشقة وأعددتها له وجئت لأخذ منقولاته رفض لأن باقى السكان حرضوه على ذلك وكان صاحب المنزل يشغل غرفة مع ذلك الساكن فاستلمت تلك الغرفة وقلت للساكن إنى أريد أن أنقل منقولاتى إليها لأسكن فيها معكم فرفض ذلك وقال إن صاحب البيت ما كان يدخلها إلا من الشباك الخلفى. قلت له ولكنى لا أستطيع دخول الغرفة إلا من أبوابها وحصلت بينى وبينه مشادة وأراد أن يغلق باب الشقة ليمنعنى من الدخول إليها فأمرت فراشى المدرسة فخلعوا الباب وألقوه جانباً وجن جنون الرجل إذ رأى ذلك وتصور أنى قد جنيت جناية كماظن ذلك كل السكان فخرج مسرعاً إلى القسم وعاد بضابط فلما رآنى الضابط حيانى وسألنى عن المسألة قلت إنى مالكة هذا البيت وإنى أسكن فى غرفة مع هذا الساكن وقد أراد أن يمنعنى عن غرفتى فخلعت الباب حتى لا يغلقه وحتى أتمكن من استعمال غرفتى وأمن الساكن على كلامى ولكنه طلب أن أستعمل الغرفة من شباكها دون أن أدخل الشقة ورأى الضابط تعقد الحل فقال إن هذه مسألة مدنية لا شأن للقسم بها وحيانى وانصرف وقام السكان جميعهم وحرضوا ذلك الساكن وكان فرنسى التبعة. حرضوه أن يذهب إلى قنصل فرنسا وأن يشكو أمره إليه وكان لحسن الحظ أن سبق أن قنصل فرنسا قد زار المدرسة وأعجب بتعليم اللغة الفرنسية فيها وقرر لها مبلغاً من المال لإعانتها فكلمته تليفونياً قبل أن يصل الرجل إليه وقلت له إنى مضطرة أن أنقل المدرسة إلى ذلك المنزل بأسرع ما يمكن وإنى عرضت على الساكن ثلاثين جنيهاً وأجرت له الشقة التى ينقل إليها فوعدنى بالمساعدة ولما ذهب إليه الساكن أمره بالخروج من الشقة ويأخذ المبلغ ولكن الرجل كان عنيداً فأصر

على رأيه ولم يقبل الخروج وصممت أنا أيضاً على رأيى وملأت الغرفة التى أسكنها معه بعدد من موائد الأكل كما ملأت الصالة أيضاً بتلك الموائد وعارض الرجل وكان يعمل فى مدرسة الراهبات التى بجوار مدرستى فشكا أمره إلى رئيستها فأرسلت إحدى الراهبات لإصلاح ما بيننا فوجدتنى واقفة وقد اكتظت الصالة بنحو ١٥ فاعلاً أجرتهم خصيصاً لذلك، فسألتنى من هؤلاء وكيف يبقون فى المنزل؟ قلت: إنهم خدمى ولابد من مبيتهم فى تلك الغرفة وإذا كان هو لا يقبل البقاء معهم فما عليه إلا أن يترك الشقة ويقبل المبلغ الذى عرضته عليه ولكن الرجل استمر فى عناده وصمم أن يبيت فى غرفة نومه وعادت الراهبة من حيث أتت واشتريت لهؤلاء الفعلة عشرة أرطال من اللحم الضأن سلقتها على ثريد وأمرتهم أن يتمشوا باللحم والثريد وأن يقيموا حفلة ذكر لنبارك بها المنزل الجديد ثم يناموا بعد ذلك فى الغرفة وضج المكان بصوتهم فى حفلة الذكر وانزعج السكان الأجانب جميعاً لأنهم لم يألفوا تلك الحالة وأخيراً اضطر الساكن أن يأخذ زوجته وأن يبيت بها فى أحد الفنادق وفى الصباح قبل منى المبلغ الذى عرضته عليه وأخذ منقولاته وما كاد يخلى الشقة حتى أحضرت فيها كل ما استطعت من أدوات المدرسة وكان يسكن نصف البدروم البحرى والشقة التى فوقه ساكن إيطالى عرضت عليه أن يخرج من الشقة على أن يأخذ مقابل ذلك خمسين جنيهاً فرفض وقال أمامك المحاكم وأردت مضايقته فاشتريت مترين من الجير وعشرة أمتار من الرمل ووضعتها على ربوة كانت فى الفناء أمام شبابيك الإيطالى واستأجرت فاعلين بمهزتين وأمرتهما أن يجلسا فإذا رأيا أن شبابيك الإيطالى قد فتحت قاما بعملية الهز فيضطر الرجل إلى إغلاق شبابيكه وهى الشبابيك البحرية بالمنزل وهكذا مكث العاملان مدة أسبوع فتضايق الرجل وقال لى إنى أجنبى كما تعلمين أى فى حماية. قلت نعم ولكنك لا تكون فى حماية إلا إذا ضربت غيرك أما إذا ضربت أنت فأنت كأفراد المصريين وأنت ترى أن معى من الرجال العدد الكثير الذى يستطيع أن يمزقك إرباً بإظفاره من غير سلاح.

وخاف الرجل من هذا التهديد كما ضايقه الجير والرمل اللذين أتلفا منقولاته فقبل التعويض وترك المنزل، أما الساكن الذى كان أمامه فى نفس الدور الذى يعلو البدروم

فقد كان مديناً لصاحب المنزل بمبلغ ثلاثين جنيهاً وحكم لصاحب المنزل بالمبلغ وحجز على المنقولات حجزاً تنفيذياً فلم يكد يسمع منى تنازلى عن كل شىء فى نظير خروجه من المنزل حتى أسرع بالخروج وبذلك خلا البدروم والدور الذى فوقه مباشرة أما الدور الثانى فكان يسكن فى نصفه طبيب أجنبى وفى النصف الثانى سيدة غنية كانت مغنية فيما مضى وهنا استلمت الدور الأول والبدروم وطلبت من الطبيب الخروج من المنزل فرفض فقلت له إنى أغلق بابى من الساعة السابعة مساء فإذا تصادف وتأخر هو عن ذلك الميعاد فعليه أن يحضر معه نجاراً ليكسر له الباب وهكذا كان كلما عاد فى المساء وجد باب المنزل مغلقاً وظل خارج الباب فى أخذ ورد ونقاش إلى الساعة الحادية عشرة أو ما بعد ذلك وأخيراً اضطر أن يقبل التعويض وأن يترك المنزل. أما الساكنة الأخيرة وهى السيدة المغنية فلم أطلب منها الخروج ولكنى نقلت المدرسة وجعلت الجرس تحت شباك غرفة نومها وأمرت أحد الخدم أن يدق الجرس فى الساعة السادسة صباحاً من كل يوم دقاً عنيفاً يستغرق ربع ساعة كما أمرت خادماً آخر أن يستلم خطاباتها التى ترد من البوستة وأن لا يسلمها إليها إلا فى الساعة السادسة والنصف صباحاً فكانت المسكينة لا تكاد تخلص من دقات الجرس الشديدة حتى تسمع قرع باب شقتها قرعاً شديداً متوالياً فلم تستطع البقاء على ذلك أكثر من أسبوع وخرجت من المنزل دون أن تأخذ شيئاً أما الساكن الذى كان يشغل الاسطبل التابع للمدرسة وكان هو أيضاً أجنبى فلم أتعب فى إخراجه بل خرج على أبسط صورة بعد أن تنازلت له عن بعض الإيجار الذى كان متأخراً عليه. وهكذا أخرجت ستة من السكان فى مدة شهر واحد وابتدأت فى أن أنقل باقى المدرسة لهذا المنزل وكنت أعلم أن البارون قد كسب القضية المرفوعة وأنه على وشك الحجز فأخذت أنقل فى السر دون أن أخبر التلميذات حتى إذا تم نقل كل شىء فى الخميس والجمعة عادت التلميذات يوم السبت فوجدن المدرسة فى بنائها الجديد وأسرعت العيون الموضوعة علىَّ فأخبرت أولى الشأن بما جرى فاستعجلوا المحضر يوم السبت ولكنه لم يستطع الحضور إلا فى يوم الاثنين لأن الأحد عطلة رسمية للمحاكم المختلطة.

حضر المحضر يوم الاثنين فى منزل البارون فوجد الباب مغلقاً وسأل من الجيران

عن المكان الذى نقلت إليه المدرسة فدلوه علىَّ فجاءنى فى منزلى الجديد وهنا تذكرت فجأة أن سيارات المدرسة الكبيرة كانت لا تزال فى فناء منزل البارون وخشيت أن يفطن المحضر لذلك فأجلسته فى مكتبى وقلت له إنى لا علاقة لى بمنزل البارون ولم أكن مستأجرة له ولكن المستأجر صديق لى وأستطيع أن أحضر منه المفاتيح بكل سرعة وأجلسته فى مكتبى وأغلقت باب الشقة حتى لا يستطيع الخروج وأسرعت إلى منزل البارون فأخرجت السيارات بكل سرعة وأرسلتها إلى فناء المنزل الجديد وعدت إلى المحضر وأعطيته مفاتيح منزل البارون فذهب إليه ولم يجد به شيئاً يحجزه ورفع دعوى علىَّ انا شخصياً واوقع حجزاً تحفظياً على منقولاتى ولكن المحكمة المختلطة رفضت دعواه لأنى لم أكن مستأجرة للمنزل ولا علاقة رسمية بينى وبين البارون واشتد الغيظ بالبارون وحجز على منزل زوج رئيسة الجمعية لأنه هو المستأجر الرسمى وجاءنى يقول لى كيف يحجز على منزله فى مشكلة تتعلق بالمدرسة التى أستغلها أنا فقلت له إنى آسفة لذلك ولو أنك أدخلتنى فى الدعوة كما طلبت منك لأدافع عن نفسى لما حصل شىء من هذا ومع ذلك فإنى مستعدة أن أدفع المبلغ المحكوم به على شرط أن تبيع لى الجمعية الأدوات وإلا فللجمعية أن تستلم أدواتها وأن تعطينى إيصال الاستلام وتتصرف فى بيع تلك الأدوات لسداد المبلغ المحكوم به أما هو فقد فضل أن يعطينى الإيصال الذى أخذ علىَّ باستلام الأدوات وأن يأخذ منى المبلغ المحكوم به ومقداره ٢٠٠ جنيه.

وهكذا انتهت تلك المشكلة.

مناورات

انتهت مشكلة المنزل وسكنت المدرسة فى منزلى الخاص وكنت ولا أزال أعتقد أن البارون منشا وهو صاحب المنزل القديم قد حرض على ما فعل ولا زالت اليد المحرضة تعمل ضدى فإنى ما كدت أعمل فى المنزل الجديد أربعة شهور حتى زارنى أحمد بك كامل وكان فى ذلك الوقت مراقباً مساعداً لتعليم البنات فرحبت به اعتقاداً منى أنه جاء ليزورنى ولكن شد ما كان أسفى عندما أخبرنى أنه جاء ليحاسبنى عن مال جمعية ترقية الفتاة فقلت باسمة: وما قرابتك يا سيدى لجمعية ترقية الفتاة؟ قال: إن وزارة المعارف مسئولة عن الأموال التى تجمع باسم التعليم فأبنت له أن المدرسة لم تصرف من مال الجمعية شيئاً ولم يصلها من الجمعية إلا أدوات مدرسية كانت قد تركتها وديعة وأخذت بها إيصالاً ثم عادت فأخذت منى مبلغ ٢٠٠ جنيه ثمناً لتلك الأدوات وردت لى الإيصال أما شروطى مع الجمعية فقد كانت تمنع الجمعية منعاً باتاً من التدخل فى مال المدرسة. أظهرت له الشروط قال وكيف قبل عدد من القضاة أن يكتبوا معك شروطاً كهذه؟ قلت لأنى كنت مصممة عليها ولأن إرادتى والحمد لله قوية لا يقف أمامها شىء قال فليس لنا إذن ما نحاسبك عليه وحيانى وانصرف وأخذت اليد المحرضة ضدى تحرض إنجليز وزارة المعارف على محاربتى بدعوى أنى ضد الإنجليز وإنى أكرر ثانية وثالثة أن التهمة كانت باطلة وإنى أنا شخصياً لم أعمل فى السياسة بل وجهت كل جهودى إلى تعليم البنت ولا أدرى أكان الإنجليز يجهلون حقيقة الأمر التى لم يكن فيها من ريب أو شك أم أنهم كانوا غير راضين عن طريقتى فى تعليم البنت فكانوا يحاربون المبدأ لا شخصه. وعلى كل حال فقد كانت الحرب مستمرة والقائمون بها ولا شك أقوياء ولم تكن مدرستى خاضعة لتفتيش الوزارة ولهذا لم تكن وزارة المعارف تعطينى إعانة وقد عرض على كثير من وزراء المعارف محاربة المدرسة وكان منهم المغفور له أبو السعود باشا وجعفر والى باشا وغيره. وكنت فى ذلك الوقت قد حولت مرتبى إلى بنك

مصر فرع الإسكندرية وكنت أنتظر من يوم لآخر أن تفصلني الوزارة وتمنع صرف المرتب ولكن الوزارة كانت متجهة إلى إغلاق المدرسة لا إلى فصلى منها، ولذلك كانت تحاول إعادتى بكل الوسائل وكنت أنا أرفض، ولكى يصل أعدائى إلى إغلاق المدرسة عرضوا على صاحب المعالى المغفور له أبو السعود باشا أنهم فى حاجة إلى جهودى وأنه يجب ردى إلى العمل بأى ثمن كان ولم يكن المغفور له يعرف نواياهم وكان رجلاً ذكياً نزيهاً لا يعرف التواء فعرض على الأمر وطلب منى أن أقبل العودة إلى العمل فأفهمته ما يحاك ضدى من الدسائس وقلت له لاأود بحال من الأحوال إغلاق مدرستى لأنى غير واثقة من حسن نية رجال وزارة المعارف خصوصاً الإنجليز منهم بعد ما تركهم المرحوم المستر دانلوب وقلت له إنى مع ذلك لا أتأخر عن العمل بالوزارة إذا عينتنى مفتشة للتعليم الأولى بالإسكندرية وضواحيها وفى الحال صدر أمر معاليه بذلك وأرسلت نشرة إلى المدارس بذلك التعيين ولم أشأ ترك مدرستى فنقلت كاتب التفتيش إليها وأخليت له غرفة منها بدون أجر طبعاً وهكذا لم تستطع الوزارة نقلى إلى مقر وظيفتى بالقاهرة فنقلت الوظيفة إلى منزلى بالإسكندرية.

علمت المدارس الأولية بتعيينى وكانت المعلمات بالطبع يعرفن شدة حرصى على الأخلاق فأخذن يصلحن من زيهن ولم أزر المدارس إلا بعد ١٥ يوماً من تعيينى لأعطى لهن الوقت الكافى للاستعداد بلبس محتشم وكنت أعلم أن الكثيرات كن يذهبن إلى مقر مفتش التعليم الأولى بلبس خارج عن الكمال والحشمة أما أنا فلم تزرنى إحداهن فى مقر وظيفتى لأنى أظهرت لمن زارتنى منهن أول مرة عدم رضائى عن تعطيل أعمال المدارس وهكذا انقطعن عن زيارة مقر التفتيش وانصرفن إلى أعمالهن بالمدارس وزرت المدارس بعد ذلك فلم أجد فى لبسهن إلا الحشمة والكمال وأتذكر أنى لم أؤنب واحدة منهن عن خروجها عن الكمال فى ملبسها بل كنت إذا رأيت إحداهن تلبس ما لا أريده وجهت كلامى إلى زميلتها المحتشمة فامتدحت حشمتها وأطريت كمالها وقلت إن ذلك الكمال قد زادها جمالاً وهيبة فكان ذلك يدفع زميلتها المتبرجة إلى الكمال والحشمة سعياً وراء رضائى واقتناصاً لمدحى وإطرائى. وهكذا انتظم لبس المعلمات دون أخذ ولا رد وشعر كل أهالى الإسكندرية بذلك التغيير فاستدعانى المغفور له أبو السعود باشا

وأثنى على فيما وصلت إليه المعلمات من الكمال فى زيهن وضايق ذلك رؤسائى من رجال وزارة المعارف فاستمروا فى محاربتى ليظفروا بما يريدون.

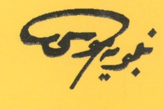
انتقلت الوزارة فى صيف ذلك العام إلى الإسكندرية وكان أحد كبراء الوزارة معروفاً لدى المعلمات بمسلكه وميله إلى المجون واللعب فأخذ بعضهن يذهب إليه خفية دون علمى وذهبت يوماً فوجدت إحدى معلمات المدارس الأولية وهى جالسة أمام مكتبه وقد تبرجت تبرجاً معيباً مزرياً وما إن دخلت الغرفة حتى ارتعدت الفتاة وارتعد ذلك الكبير أيضاً وقام ليحيينى فضغط على يدى وغمز بعينه يريد أن يلفتنى إلى تبرج الفتاة وإلى أنه غير راض عن ذلك فنظرت أنا إلى المعلمة وقلت لها إن سعادته يضغط على كفى مظهراً عدم رضائه عن زيك مع أنه كان جالساً يحدثك فكأنه يا ابنتى يغرر بك، وأنت أيها الرئيس لما تظهر عدم رضائك الآن بعد أن جلست معك مدة؟ أما كان الواجب عليك أن تظهر لها عدم الرضاء ساعة دخولها عليك لترشدها إلى السبيل السوى لا أن تلاينها وتمازحها وتدعى أمامى أنك غير راض عن تبرجها. وتركت الفتاة الغرفة مسرعة بالخروج وبقى هو وقد تلجلج فلم يستطع أن يرد جواباً ودخلت على المغفور له أبو السعود باشا وأمامه ذلك الكبير ويظهر أنه خجل من فعلته وأراد أن يداريها فقال لأبى السعود باشا لقد جاءتنى إحدى المعلمات اليوم وهى متبرجة تبرجاً معيباً، قلت نعم وهل علمت سعادتك السبب؟ إنها لا تقابلنى بهذا الزى مطلقاً ولكنها اختارته لسعادتك لأنها تعلم أنك تموت غراماً بمثل ذلك الزى وترقى صاحباتك فجاءت لتولعك بها علها ترقى أما أنا فلا تقابلنى إلا كاملة محتشمة لعلمها أن فى كمالها ما يحملنى على ترقيتها ولقد كان الأولى بك أن تكتم ذلك عن معالى الوزير لا أن تذكره أمامه فيعرف ما لا يرضاه وأقسم أن ذلك الكبير سكت فلم يجبنى بشىء والحق يلجم. أما معالى الوزير فابتسم ابتسامة لها كل مغزاها وخرجت من عند معالى الوزير وخرج ذلك الكبير معى وهو يقول لقد خلقت شاذة لا أنت بالرجل ولا المرأة وكان الأحرى بك أن تعلمى أن من مستلزمات النساء تزيينهن وإلا عد ذلك خروجاً على الطبيعة قلت: إن الزمن قد تغير يا سيدى وقد أصبحت المرأة تعمل وأصبح من مستلزماتها الجد والكمال لتستطيع إتقان عملها وإلا خسرت الحكومة كثيراً من توظف النساء.

خديعة

لم يكن الغرض من توظيفى بالإسكندرية أن أعمل لكنهم أرادوا أن يخدعونى لأترك المدرسة وأعود إلى الوزارة وكان الغرض الرئيسى فى الخديعة هو إغلاق المدرسة فلما قبلت أن أقوم بالتفتيش بالإسكندرية وفى نفس مدرستى أخذوا يحسنون معاملتى لأثق بهم ثم عينونى بعد ذلك كبيرة مفتشات وطلبوا منى ترك المدرسة وتولى عملى بالقاهرة ولكنى مع ذلك رفضت ولم أقبل ترك مدرستى وأرسل إلى وكيل الوزارة إذ ذاك حضرة صاحب العزة على بك عمر يقول لى إن سعادة الوكيل قد علم أنى ضد الإنجليز فاقسمت له إنى لم أكن يوماً من الأيام ضدهم ولم ألتفت إلى السياسة مطلقاً قال على كل حال فقد علم سعادته أنهم هم على الأقل ضدك وهم الذين منعوك من العمل ولما كان سعادته وطنياً صميماً كما تعلمين فهو يريد أن يردك إلى العمل قياماً بواجب الوطنية قلت فإذا كان الإنجليز يا سيدى ضدى وهم أصحاب السلطة والنفوذ هنا فكيف يستطيع سعادة الوكيل مناوأة قوم أقوياء من أجل فتاة لا يعرفها، لم أكن يوماً من الأيام خيالية ولست أصدق أن أحداً فى مصر يستطيع قهر الإنجليز وإنى شخصياً لا أريد محاربتهم لأنى أعلم أنى لا أستطيعها ولا أدرى كيف دفع سعادة الوكيل بنفسه إلى ذلك المأزق الحرج من أجل فتاة لا يعرفها فقال لى المرحوم على بك عمر إما أن تذهبى معى الآن أو أن تكتبى لسعادته خطاباً ففضلت الثانية وكتبت أقول لسعادة الوكيل إنى أشكره على وطنيته التى دفعته للانتصار لى ولكنى فى الوقت ذاته أنصح له أن يتركنى حيث أنا لأن الإنجليز أصحاب البلاد هنا وليس من الحكمة أن يقف هو فى طريقهم من أجل فتاة لا يعرفها ومن هى تلك الفتاة حتى يجوز لوكيل وزارة المعارف أن يزعزع مركزه من أجلها ما دامت هى نفسها لا تريد أن تقاوم الإنجليز بل تريد أن تنفذ رغباتهم ببقائها خارج الوزارة فجاءنى من سعادته خطاب سأنشر صورته بالزنكوغراف فى العدد القادم لأن ذلك الخطاب كان أصل بلائى وأول شقائى.

أنشأت مجلتى "الفتاة" فى أكتوبر سنة ١٩٣٧، وأخذت أكتب فيها بعض ذكرياتى فأقبل الناس عليها، وطلب منى كثيرون أن أدونها فى كتاب، وتلبية لهذا الطلب قمت بسرد ذكرياتى حسب تاريخ حدوثها فى حياتى، فأصبحت بذلك تاريخاً مفصلاً لما تكبدته من مشاق، وما شعرت به أحياناً من اغتباط إن كان فى ذلك التاريخ معنى للإغتباط.

وهو تحليل نفسى لفتاة قضت عمرها فى جهاد مستمر وهى نفسها لا تعرف إلى الآن أكان سبب هذا الجهاد والنضال المستمر خطأ صدر منها أو هو خطأ المقادير. لهذا أروى تاريخى بالتفصيل وأترك للقارئ الكريم بعد هذا الحكم لى أو على. وسأتحرى الصدق فيما أكتبه ليبنى القارئ رأيه على حقيقة واضحة لديه.







ملتقى المرأة والذاكرة